

معالم الفكر العربي المعاصر

مع دراسة من الثقافة العربية المعاصرة في معارك التغريب

بقلم

أنور الجندى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَطْبَعَةُ الرَّسَّالَةِ

شعبه كرمه، طهران ۳۳۰۰۰

(مدخل)

من خلال دراسة واسعة مستفيضة للأدب العربي المعاصر ، تكشف أن هناك مجالا واسعا خصبا ما زال بكرأ ، في حاجة للدراسة ، ذلك هو مجال «الفكر العربي» ، وهو مجال رحيب ، نابض بالحياة موصول بالحياة والمجتمع والدين والتراث والتاريخ واللغة ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن الأدب قطاع منه ، ومن هنا توسعت النظرة والدراسة ، ولا شك أن دراسة الأدب العربي المعاصر كانت في جذورها دراسة للفكر العربي أساساً ، وبعد أن كانت المهمة التي انتدبت لها نفسى تقف عند دراسة الأدب العربي المعاصر ، فقد توسعت لدراسة الفكر العربي والثقافة العربية في مرحلتين : الأولى مرحلة الاستعمار وقيام النفوذ الغربي ، والثانية مرحلة نهاية الاستعمار وقيام نفوذ التغريب والشعوبية بديلا عنه .

وكان أن فتحت لي دراسة (الفكر^(١) العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية) التي تناولت مرحلة الاستعمار والنفوذ الغربي منذ فجر الاحتلال إلى أوائل الحرب العالمية الثانية (١٨٧١ - ١٩٣٩) فتحت هذه الدراسة بابا واسعا للتعرف على أدواء فكرنا وقضاياها وأزماته في مواجهة الفكر الغربي بشقيه ، وكيف واجه فكرنا الالتقاء بالنظريات والمذاهب الجديدة التي قدمت له في ظل النفوذ الأجنبي القائم إذ ذاك في قلب الوطن العربي والتي كانت تهدف في الأغلب إلى عمل سياسى عميق الجذور هو القضاء على مقوماته الأصلية بما يمكن للاستعمار من بسط نفوذه ودعمه واستمراره ، ولما كانت مقومات الفكر العربي الإسلامى تعطى أساساً تلك الروح القادرة على المقاومة فقد قامت أزمة صراع بين القوى الفكرية النازية وأسس فكرنا الحى المتفتح القادر على الحركة والتلقى والاستجابة والإذابة في كيانه دون أن يتحول ، أو يصبح تابعا ، فهو قادر دائما على التلقى والأخذ والاقتباس وفق حاجته ، لا بالرأى المفروض .

(١) صدرت هذه الدراسة عام ١٩٦١ .

ومن هنا بدأت تظهر عشرات المسائل التي اختلفت فيها وجهة نظر الفكر الغربي عن فكرنا العربي الإسلامى على نحو أصبح من الضرورى معه البحث عن جذور هذه القضايا وعرضها عرضاً منصفاً لا ينكر فضل الغرب في تطوره وحضارته ولا يقضى على المقومات الأساسية للفكر العربى .

وقد حاولت في هذه الدراسة تناول التطورات في المرحلة الدقيقة بين الاحتلال والجلاء عن العالم العربى .

ولا شك أن يقظة العالم العربى الجديدة التى بدأت في ظل الثورة ويقظة القومية العربية وبروز فجر نهضة حقيقية للأمة العربية والفكر العربى قد أتاحت وضع أسس جديدة إيجابية بحيث يمكن الفصل بخط واضح معمق بين مرحلة ومرحلة في تاريخ الفكر العربى المعاصر .

وغاية ما يمكن أن يقال أن المرحلة التى تمثل سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية واندلاع دعوة القومية العربية قد أتاحت فرصة واسعة لدراسة المرحلة التى عاشها العالم العربى في مرحلتين مر بهما الفكر العربى الإسلامى في العصر الأخير :

المرحلة الأولى : الفترة من ١٥١٧ إلى حوالى ١٨٣٠ تقريباً وهى ثلاثمائة عام تقريباً من حكم السلطة العثمانية للعالم العربى وقد كانت هذه الفترة مرحلة ضعف عام للفكر العربى الإسلامى ، مصدره أن العالم الإسلامى والأمة العربية جزء منه كان قد جرى شوطاً طويلاً في خلال ألف عام كاملة منذ بزوغ فجر الإسلام ، وشارك مشاركة فعالة في مقاومة الفكر الإنسانى والحضارة البشرية وعمل على إنماء الجذور التى قامت عليها الحضارة الحديثة المسماة بالحضارة الغربية نسبة إلى مكان نموها وتوسعها أساساً ، وكذلك كانت الحضارة الإسلامية العربية دورة مستأنفة للتاريخ بعد سقوط الحضارة اليونانية والرومانية ، وكذلك كانت الحضارة الغربية دورة مستأنفة بعد ضعف الحضارة الإسلامية ، غير أن الفكر العربى الإسلامى لم يسقط يوم تلاشت الحضارة الإسلامية العربية وعند ما انطوت الدولة الكبرى المتمثلة في الأمبراطورية العثمانية ولكنه ظل موجوداً وإن خبأ ضوءه وعلاه الصدا ، وإن لم يعد يتفاعل مع الحياة ، فقد ظل مستمر الحياة حتى إذا انبعثت منه الصيحة مرة أخرى

بالدعوة إلى اليقظة ، تفتحت آفاقه مرة أخرى للنهضة ، وذلك قبل قدوم الحملة الفرنسية بقرن من الزمان حين بدأت اليقظة في الفكر العربي الإسلامي ترسم طريقاً جديداً .

٢ - ثم كانت هذه المرحلة الثانية التي يمكن أن تسمى مرحلة الاحتلال العسكري والسياسي للعالم العربي (١٨٣٠ - ١٩٥٢) والتي برزت خلالها أصوات جريئة وقوية من دعاة الإصلاح والتجديد في مجال اللغة والأدب والدين والاجتماع والتاريخ ، هذه المرحلة يمكن أن يطلق عليها مرحلة فجر اليقظة ، فقد قاوم فيها هؤلاء المصلحون قوى ضخمة من النفوذ الأجنبي والتبشير والتغريب والغزو السياسي والاجتماعي والعسكري في ظل مرحلة كان الفكر العربي خلالها يحاول أن يستعيد مكانته ويصحح مفاهيمه وينفض عن نفسه غبار القرون التي جمده وأصابته بالضعف ومن هنا فتحت أبواب التجديد والاجتهاد ، وبدأت تنكشف صورة هذا الفكر على حقيقته ، ويبدو جوهره النقي ليؤكد حياته وقدرته على الاستمرار والتفاعل مع النهضة والحضارة ، وليثبت أنه كان دائماً قادراً على الإيجابية والفاعلية ، وقد كان ولا يزال يحمل لواء التقدمية والعصرية متطاولاً مع الأزمان المتتالية والبيئات المختلفة .

ولكن الاستعمار كان يبغض هذه اليقظة التي تعمل أساساً على شجب نفوذه ومن هنا وجدت من النفوذ الأجنبي تحدياً ضخماً ، هو تحدى القادر الممتلك لمختلف عناصر القدرة في السيطرة السياسية والعسكرية ووسائل الثقافة من صحافة ومدرسة وجامعة ، ومن هنا كانت مواجهة التحدى بتلك الروح التي عرفت بها هذه الأمة حين تمر بها الأحداث الكبرى والأزمات العاصفة .

* * *

وأعتقد أن فترة الاحتلال وسيطرة النفوذ الأجنبي التي بدأت قبل منتصف القرن الماضي والتي أوشكت على الانتهاء خلال العقد الخامس من هذا القرن قد كان لها أثرها البعيد في التكوين العقلي والروحي للأمة العربية والعالم الإسلامي عن طريق نفوذها في المدرسة والصحافة وبث الفلسفات المادية ، ودفع ثقافات الغرائز والجنس ، واتخاذ المفاهيم الغربية أساساً لفهم القيم الإنسانية ، والاعتماد على مصادر الغرب في فهم أنفسنا ومحاولة

خلق جرمته قبل لاعتناق نظريات الغرب في التربية والنفوس والاجتماع والأدب ، وفي هذه محاولة الفصل بين الدين والفكر والقومية والإسلام ، وقد ظل هذا الأثر واضحاً إلى وقت طويل .

ولقد كان أبرز ما في مرحلة ما قبل الاستقلال ظهور مدرسة ذات نفوذ تفصل بين معركة الحرية وبين القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي ، ومن هنا مضت حركة المقاومة منفصلة عن مقومات فكرنا ، كانت السياسة تغلب الوطنية ، وكانت الوطنية ضيقة إقليمية ، وكانت الحركات الأربع العربية والإسلامية والشرقية والإقليمية تتصارع بتوجيه النفوذ الأجنبي .

وكانت معاهد التعليم تحت سيطرة النفوذ الأجنبي تخرج المؤمنين بالغرب المعجبين به ، الساخرين بالفكر العربي الإسلامي وقيمه ، والذين تملأهم نزعات الشكوك والريب ، منصرفين عنه إلى الفكر الغربي ومظاهر الحضارة باعتبارها المثل الأعلى .

وقد تعمقت في العالم العربي خلال فترة ما بين الحربين وما بعدها في ظل الاحتلال مدرسة « لا أخلاقية السياسة » البعيدة عن القيم العسكرية والروحية العربية الإسلامية والتي كانت تنظر إلى الدين نظرة الغرب وتنظر إلى الإسلام على أنه دين ، وتفصل بينه وبين نتاجه الفكري والحضاري والثقافي المتفاعل مع الفكر الإنساني والذي هو عصارة فكر الشرق كله في أديانه وثقافته .

وفي ظل النفوذ الأجنبي قامت مدرسة التغريب ودعوته ، وبرزت دعوة الشعوية ونمت ، وتعمقت مفاهيم الغرب في مختلف مجالات الصحافة والتربية والتعليم والثقافة وحلت مفاهيم غربية للقيم العربية الإسلامية الإنسانية .

وبذلك تعمقت الهوة التي تفصل بين الأمة العربية ومفاهيمها واضطرب الخط المتصل وبذلك انحرفت الشخصية العربية عن مقوماتها ومفاهيمها واستطاع الاستعمار والنفوذ الغربي خلال مرحلة الاحتلال للعالم العربي أن يعمق خطته الرامية إلى هدم :

(١) مقومات الأمة (٢) شخصيتها (٣) فكرها ، هذه الخطة التي جرت بأعمال

التبشير والتغريب والشعوبية وفي ظل خدمات الاستشراق في مراحل متعددة وفي مخطط دقيق ، وقد عمق النفوذ الأجنبي خطته على مراحل متعددة بوسائل تزييف الحقائق والتشكيك في المفاهيم ، وإحلال مفاهيمه للقيم الإنسانية بدلا من مفاهيم الفكر العربي . ويمكن أن نلخص الشبهات والالتهامات التي وجهها التغريب ووجهتها الشعوبية للفكر العربي الإسلامي ونوجزها حتى نكشف الطريق بين يدي الباحث :

(أولا) التجزئة بين العروبة والإسلام . على أساس المفهوم الغربي لكلمة الدين . والمعروف أن الغرب فصل القومية عن المسيحية ، لأن المسيحية دخلت على أوروبا من الخارج فكانت أجنبية عن طبيعتها وتاريخها في حين أن الإسلام بالنسبة للعرب في غير مجال العربية : ثقافة وفكر وحضارة وتاريخ .

(ثانيا) فرضية قبول الثقافة والحضارة الغربيين معا « حلوها ومرها ، خيرها وشرها ، ما يحمد منها وما يعاب » وهنا يبدو الخلط بين الثقافة والحضارة ، فالثقافة فكر والحضارة مادة ، والحضارة ملك للإنسانية ولكن الثقافة تستمد جذورها من وجدان الأمة وضميرها وروحها . والمعرفة غير الثقافة ، فالمعرفة كالحضارة ليس شرط أن تكون ثقافة ، ولكن هي ملك إنساني عام تأخذ الثقافات منها وتدع .

(ثالثا) الفلسفة العربية الإسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية وهذا غير الحق ، فقد كان للعرب طابعهم الواضح ، المستمد من روح القرآن والإسلام والتوحيد ، هذا الطابع الذي أخذ ورفض وأضاف وعدل .

(رابعا) الانفصال عن الماضي كلية باعتباره مصدر التأخر ، وهذا القول خطأ على إطلاقه ، فإن الغرب نفسه لم ينفصل في حضارته وثقافته القائمة عن مصادر التراث اليوناني والروماني . بالرغم من انفصاله عن هذا التراث ألقى عام وضياع اللغة اللاتينية . بينما بقي الفكر العربي الإسلامي وما زال متصل بجذوره ، وما زال مستمر الأثر والفاعلية .

(خامسا) « روحية الثقافة العربية » هذا خطأ محض ، فإن الفكر العربي الإسلامي يتسم بالمزيج المتفاعل بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

(سادسا) احتقار آسيا واتهامنا بأننا آسيويون ، على أساس أن ذلك مصدر تخلف عن أوربا ، والواقع يؤكد والتاريخ يثبت أن آسيا قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العريقة : كالأكادية والشمرية والبابلية والآشورية والهندية والصينية وقدمت للانسانية ديانات أرضية كالبودية والبرهمية وديانات سماوية كاليهودية والنصرانية والإسلام .

(سابعا) المحاكاة إلى فترة الضعف ؛ هذه الفترة التي انتهت بها دورة من دورات الحضارة وبدأت دورة جديدة لا يمكن أن تمثل حقيقة القيم والمفاهيم الأساسية للفكر الإسلامى . بعد أن غلبت نزعات الجمود والتقليد .

(ثامنا) الرأى الغربى فى كلمة « الدين » ، هذا الرأى ينطبق على مفهوم المسيحية الغربية وعلى تاريخها ومراحل التقائها واختلافها مع النهضة الغربية ، ولا يصلح هذا الرأى بتطبيقه على (الإسلام) أو الفكر العربى الإسلامى بصفة عامة . إن مفهوم المسيحية الغربية يختلف عن مفهوم المسيحية السمحة النابعة من الشرق ، ثم أن مفهوم الإسلام يختلف عن مفهوم الدين ، باعتبار الإسلام دين وفكر ومجتمع وحضارة ، وهو فى تطوره وحركته وإيجابيته وتقدميته وقدرته على البناء والإخذ والعطاء تختلف كثيرا عن غيره من الأديان .

(تاسعا) دعوات الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والبربرية وغيرها ، هذه الدعوات التي استغلت للتفرقة بين أجزاء الوطن الواحد ، واتخذت وسيلة لإحياء خلافات مذهبية قديمة مثل الإسلام ومحاولة تغليبها لخلق قوميات ضيقة ودعوات إقليمية مسرفة فى التخلص من روح الفكر العربى الإسلامى الذى شمل المنطقة ووحدها بعد الإسلام ، وقد أثبت عديد من الباحثين بدلائل قوية أن الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ما هى إلا موجات عربية متتالية تدفقت من قلب الجزيرة العربية وانساحت فى المنطقة كلها حيث لم يكن من الممكن أن تبنى حضارة شائخة فى جو حار وعلى رمال ساخنة إلى أطراف الجزيرة ووديان العراق وسهول مصر والشام الخصبية وإلى سواحل البحار والأنهار .

(عاشر) دور الحضارة الإسلامية العربية في الحضارة الإنسانية . وقد تجاهل هذا الدور كثير من الباحثين وتجاهلوا أوليات فكرنا العربي الاسلامى في مختلف العلوم والفنون ، كالفلك والجبر والهندسة وارتياذ البحار ونظرية الضوء والطب وغيرها .

(حادى عشر) العالم العربى أيقظته أوربا : وخطأ هذا هو أن العالم العربى استيقظ قبل الارساليات وقبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، ويمكن القول بأن الحركة الوهاية (١٧٤٠م تقريبا) تعد أولى علامات اليقظة وتسبق نابليون بمخمسين عاما . ولا ننسى الوثيقة التى حصل عليها العلماء من الحكام الماليك قبل الحملة الفرنسية والتى يمكن أن تعد بحق الوثيقة العربية لحقوق الإنسان .

(ثانى عشر) اللغة العربية لغة ميتة كاللغة اللاتينية ، وخطأ هذا أن اللغة اللاتينية كانت لغة دولة ولم تكن لغة أمة ، وكانت لغة أرستقراطية لا يمارسها إلا النخبة الممتازة ، ولم تتغلغل فى طبقات العوام ، أما اللغة العربية فقد كانت لغة الإسلام والقرآن ، عاشت معهما ونمت فى ظلها ، وكانت تامة كاملة قبل الإسلام والقرآن ، وقد استطاعت بحيويتها وقوتها أن تصرع كل لغات العالم الإسلامى وتأخذ المكان الأول وستظل حية لأنها كانت قادرة على التجاوب مع الحضارات والمدنيات دوما .

واقد استطاع الفكر العربى فى فترة الاحتلال (١٨٣٠ - ١٩٥٦) تقريبا أن يقاوم هذه النظريات والشبهات وأن يدحضها غير أن النفوذ الغربى المغلف وراء التغريب والشعوبية أجرى محاولات جديدة لبسط هذه الشبهات بأساليب جديدة .

* * *

هذا هو الموقف الذى واجه الفكر العربى فى أوائل مرحلة الاستقلال وإنهاء النفوذ الأجنبى والذى حاول أن يثير الشبهات حول يقظة العالم العربى الجديدة ، وأن يوجه ظلال الشكوك حول الحرية والاشتراكية والوحدة ، هذه الشكوك التى تحاول أن تعوق العالم العربى وقد أوشك على التحرر من النفوذ الأجنبى العسكرى والسياسى حتى تفرض عليه أن يواجه معركة جديدة هى التخلص من التغريب والشعوبية ، وقد وضع الاتجاه نجو تأصيل النهضة وكشف تآمر التغريب عليها فى كلمات مضيئة :

« نحن في حاجة إلى الوحدة الفكرية حتى ندعم هذا التضامن العربي ، أن التحرر الفكري ضروري لها في هذا المجال ، وهناك واجب أساسي في إقامة أدب عربي مستقل خال من السيطرة الأجنبية أو التوجيه الأجنبي فلا نكون ذيلاً لكتلة من الكتل .. ففكرنا ينبع من ضميرنا ، مع وعي عميق بالتاريخ وأثره على الإنسان المعاصر من ناحية ومن ناحية أخرى بقدرة الإنسان بدوره على التأثير في التاريخ ومع فكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية يأخذ منها ويعطيها ، ولا يبعدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد مع إيمان لا يتزعزع بالله ورسوله ورسالاته القدسية التي نعيشها بالحق والهدى » .

وعصارة هذه الفترة تتمثل في عناصر محددة :

أولاً : نحن لسنا خصوماً للحضارة الغربية أصلاً ، فالحضارة الغربية مدنية إنسانية عالمية شاركنا في بنائها وكان لنا دورنا في تكوينها ، وهي حق مشاع لكل الأمم والشعوب ، وقد أخذنا منها أرقى ما وصلت إليه ، واستطعنا في ظل اليقظة التي عرفها العالم العربي كله منذ عام ١٩٥٢ أن نصل منها إلى مرحلة كبرى في مجال الصناعة والتسلح وبناء الطائرات والتكتيك العلمي وما يتصل بالذرة والفضاء بحيث لا يمكن أن نتهم اليوم بالقصور أو التخلف ، وبحيث نكون قد عدونا الطوق الذي كان يضربه الاستعمار والنفوذ الغربي حول الأمم حتى لا تصل من الحضارة إلى جوانب القوة فيها .

ثانياً : لسنا خصوماً للفكر الغربي أصلاً إلا حين يحاول هذا الفكر أن يسيطر علينا لحساب النفوذ الأجنبي ، أما فيما عدا ذلك فالفكر الغربي يحمل عصارات من الإبداع والعبقرية في مجالات الفلسفة والفن والأدب والتاريخ تتجه نحو ترقية الإنسانية ولكننا نقف منه موقفين واضحين :

الأول : لنا أولية في مجال النهضة والحضارة وكان فكرنا العربي الإسلامي له دور وأثر واضح أكيد لا سبيل إلى إنكاره أو غمطه أو تجاوزه^(١) .

(١) اقرأ كتابنا (صفحات من أمجادنا) ، وكتابنا (أضواء على الفكر العربي الإسلامي) .

الثانى : أن الفكر الغربى - عن طريق النفوذ الاستعمارى المخفى وراء التغريب والشعوبية ، يحاول أن يفرض علينا بعض النظريات والأفكار والمذاهب التى لا تتفق أساساً مع مقومات فكرنا العربى الإسلامى فى مجال : الجنس والتربية وعلم النفس والمادية التاريخية وغيرها ، ونحن نرى أن هذه النظريات إنما هى مراحل فى تطور الفكر الغربى تتصل بحضارته وثقافته المستمدة من مصادر اليونان والرومان أساساً ، ونحن بفكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية ننظر فى هذه النظريات بروح الاستقلال والرشد الفكرى ، ونقف منها موقف القدرة على الأخذ والرد ، والقبول والرفض ، فقاعدتنا أساساً أن لنا مقومات وقيم أصيلة ترسم ثقافتنا وشخصيتنا وفى ضوءها نأخذ وندع ، ولن يتحقق أبداً أن نكون تابعين أو مستوردين ، أو أن ندوب فى فكر الغرب .

ولعل أبرز ما أعطينا يقطتنا العربية هى هذه القدرة على مواجهة الفكر الغربى دون استسلام له ، لقد أعطينا القدرة على إسقاط « عقدة الأجنبي » وذلك ببلوغنا مداه فى الحضارة والمدنية والتقنية « التكنيك » . ومن هنا أصبح فى مقدورنا ألا ننظر إليه نظرة المألوف إلى الغالب ، لقد توارت هذه النظرة ونشأ فى عالمنا العربى اليوم تيار ضخم قوى : أننا أمة لها مقوماتها وفكرها وقيمها أساساً ، وأن هذه المقومات قادرة على أن تقوم وتحيا ، وهذا هو سر مفهوم الثورة : « التحرر الفكرى من كل سيطرة أجنبية أو توجيه أجنبي » ولكننا فى نفس الوقت نعيش « بفكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية » فلا نخشى أن نواجه كل أفكار الأمم وثقافتنا فنحن ندرسها ونتفجع بكل الخبرات والتجارب العالمية والبشرية والإنسانية فى مجالات الاقتصاد والاجتماع ، ما دمنا ثابتين على قاعدتنا .

(الثالث) أن فكرنا العربى الإسلامى ليس أساساً فكر جامد ولا متخلف ، ولا متوقف عند الماضى ، ولا دافع إلى الارتداد . أو الرفض لمنطق الحياة والتطور ، بل هو متبلور حتى قادر على الحركة ، مواجه للنهضات والثقافات ، قادر على الانتفاع بكل جديد يأخذ منها ويعطى ، لا يبعدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد « وفوق ذلك فهو

مؤمن بأنه فكر تترج فيه الروحية والمادية والعقل والقلب ، والحياة والآخرة ، إيمانه بالله ورسله ورسالاته القدسية لا يتزعزع .

(الرابع) أن وحدة فكرنا العربى الإسلامى هى مصدر الوحدة العربية أساساً ، وأنها فى ظل يقظتنا نحس بأن فكرنا العربى قد أخذ طريقه الحق ، التعمق ، الحى ، على الطريق الذى كان قد عجز عنه فى خلال فترة الاحتلال ، ولذلك فهو قادر اليوم على أن يواجه حملات التغريب والشعوبية التى يقودها النفوذ الاستعمارى أساساً عن طريق منظمات وصحف مشبوهة تصدر فى بعض أنحاء العالم العربى ، وتهدف أساساً إلى مقاومة الوحدة العربية ، واليقظة ، والنمو والبناء الذى تقوم به بلادنا من أجل دعم العالم الثالث ، ودعم الأمة العربية فى مجال الحضارة والعلم والقوة والصناعة والاقتصاد وبناء الإخاء الإسلامى والرابطة الإنسانية ولذلك فنحن نرى أساساً أن حركة الشعوبية والتغريب هى بديل النفوذ الأجنبى والاستعمار ونحن نحاربها ونقاوم آرائها على هذا النحو .

(الخامس) نحن فى ظل يقظتنا العربية الواعية العصرية التقدمية ، سنابق متحررين من كل المذاهب : مذاهب الجلود والتعصب أو مذاهب التحلل والإباحة والإلحاد ، وفكرنا هنا هو فكر الأمة الوسط ، يأخذ ويمطى على قاعدته الأساسية المستمدة من جوهر الأمة العربية فى مفاهيمها وتراثها وتاريخها وروحها وثقافتها ، فلن تنحرف مفاهيمنا ، ما دامت مستمدة من ميثاقنا ومنهجنا ، فنحن فى مرحلة ما بعد الاحتلال فى العالم العربى نجعل من تجاربنا ومفاهيمنا ضوءاً كاشفاً وهادياً للطريق ، مرتبطاً بقيمنا أساساً ، لا نذهب مذهب الجلود والتعصب ، ولا التحلل والإباحة ، نرى فى التغريب والشعوبية بديل النفوذ الأجنبى وأداته ، فقد تكشف أن كل حملات التغريب والشعوبية إنما تستهدف الوحدة العربية واللغة العربية والتاريخ العربى وتحاول النض من قدر أمة متجددة تنشئ الحياة وتبنى فى مجال الحضارة والعلم والصناعة ، ومقاومتنا لهذه الحركة التى تلجأ إلى إذاعة بعض المذاهب الفكرية الغربية الجالحة ، إنما هو مقاومة أساساً لتيار مشبوه ، ولا زلنا نذكر كيف قال أشكول فى إسرائيل

أنهم يحاربون وجود لغة واحدة في الشرق الأوسط هي اللغة العربية أساس الوحدة الفكرية وجوهرها .

وبعد فإن فكرنا العربي المعاصر هو امتداد معمق موسع تقدمي لفكرنا العربي الإسلامي على قاعدة الحركة والقدرة على الأخذ والعطاء دون أن ننحاز أو نستورد أو نكون تابعين ونحن في طريق البناء نحاول أن نصحيح الأخطاء ونرسم فلسفة تقدمية لفكرنا العربي من خلال يقظتنا الجديدة البناء .

(السادس) القومية والديمقراطية والاشتراكية نظرات منبعثة أساساً من فكرنا العربي الإسلامي ، ولها جذور أصيلة في مقومات فكرنا ، ونحن اليوم نعاملها باعتبارها قيماً إنسانية أساسية للفكر الإنساني كله ، وقد كانت واضحة الدلالة في فكرنا ، ومن هنا فنحن لا نأخذ مفاهيم الفكر العربي لها ولا نعتنق تفسيراته ، وإنما نحن نستمد مقوماتها من واقعنا وفكرنا وتراثنا أصلاً ، وليس لنا أن نشجبها وإلا كنا متخلفين عن تطور فكرنا أصلاً قبل تطور الفكر الإنساني الذي استمد مفاهيمه للقومية والديمقراطية والاشتراكية من فكرنا العربي الإسلامي أساساً ثم نماه ، وتطور به مع تطور الزمن والحضارات وجريان النهر البشري الذي لا يتوقف عن الحركة والحياة . ومن ناحية أخرى فإن عمق فكرنا ووضوح مقوماته وشمولها يقضي على التعارض الذي يواجهه الفكر العربي فيما بين هذه المذاهب .

* * *

هذه بعض المعالم التي تكشف عنها دراسة هذه الفترة ، وهي كما قلت فترة لم تبعد بعد عن نظر الباحث المعاصر حتى تكون الأحكام فيها سديدة ومقررة . وليس عملنا إلا إلقاء الضوء على الواقع ورسم صورة له . ولا شك أن الصورة تعطى فكرة واضحة ، قوامها : أن الفكر العربي قد انتقل إلى مرحلة جديدة . وأن المرحلة السابقة قد أوشكت على أن تنتهي ، وأن المرحلة الجديدة واضحة في أنها أكثر اتصالاً بروح العصر مع الاعتماد على الجذور ، وأكثر تعميقاً لهذه الجذور ، وأكثر استنارة في فهمها والأخذ منها ، وتعميمها ، وأنها تؤمن أساساً بأنها لا تتلقى من الفكر الغربي تلقى التابع أو المستورد أو غير القادر ، وإنما يقودها إيمان .

بحقها في أن تأخذ الحضارة فقد ساهمت في بنائها أصلاً وكان لها دورها ، وهي تفرق بين الحضارة والثقافة ، أما في مجال الفكر فهي تؤمن بأن لها فكراً له طابعه ومعاله وشخصيته ، وأنها ليست مستعدة للتفريط فيه ، هذا الفكر نفسه وعلى قاعدته نستطيع أن نتقبل بحرية وطلاقة تجارب الفكر الإنساني وندرسها ونأخذ منها وندع ، بما يتفق مع مقوماتنا وحاجتنا وظروف الزمان والمكان .

ولاشك أن الفكر العربي المعاصر في عصر التحرر من الاستعمار والتجمع للوحدة قد بدأ يصحح مفاهيمه ، ويكشف روح التغريب والشعوبية ويشجبهما ، وهو يحاول أن يشق طريقه حيثما ، بعيداً عن أخطار التعصب والجمود من ناحية والتحلل والإلحاد من ناحية أخرى ملتزماً بمقومات فكره الأساسية : امتزاج الروح والمادة والعقل والقلب .

وهو بسبيل التقدم خطوة أخرى ، هذه هي خطوة العطاء وتقديم عصارة فكره للإنسانية التي تتطلع إلى ضياء جديد ، سيكون مصدره بحق هذا العالم الأوسط المتمثل في الشرق العربي الإسلامي وفكره العربي الإسلامي ، هذا الفكر الإنساني الوسيط .

عناصر البحث

- أولا : مقومات الفكر العربي ومعطياته .
- ثانيا : مقومات الفكر العربي ومعطياته .
- ثالثا : التغريب والشعوبية الفكرية الحديثة .
- رابعا : نحن والحضارة الغربية .
- خامسا : نحن والفكر الغربي :
- دراسات مقارنة : للثقافة والدين والتراث والتاريخ واللغة والأدب والقومية والأجناس بين الفكر العربي والفكر الغربي .

الكتاب الأول
الفكر العربي الإسلامي
(مقوماته ومطباته)

مقومات الفكر العربي الإسلامي

يتميز الفكر العربي الإسلامي في مقوماته، ويختلف عن فكرين واضحين في مقوماتهما في العالم الحديث : أولهما « فكر الغرب » . وثانيهما « فكر الشرق » .

فالفكر الغربي الذي قام أساساً في أوروبا وامتد إلى أمريكا له طابعه ومقوماته ومفاهيمه الأساسية التي تتمثل في مزيج من الوثنية الأفريقية والمسيحية الغربية المستقاة من المسيحية الأصلية ، ويتمثل جوهر هذا الفكر في « المادية » العلمانية الخالصة . وإلى هذه المنابع ترد كل اتجاهات الفكر الغربي ومفاهيمه .

وفكر « الشرق » الذي قام أساساً في أواسط آسيا وامتد إلى الصين واليابان يقوم على أساس الروحية الخالصة ممثلة في فلسفات وديانات البوذية والهندوكية والكنفوشية وغيرها . وهو فكر يؤمن بالروحية الخالصة جوهرًا لكل مقوماته ومفاهيمه الأساسية .

أما « الفكر العربي الإسلامي » فهو فكر العالم الإسلامي وقوامه الأمة العربية وتركيا وإيران وأفغانستان والباكستان وأندونيسيا وأفريقيا ومجموعة من يتكلمون اللغة العربية أو يدينون بالإسلام في هذه المنطقة الممتدة فوق أفريقيا وآسيا والتي تتوسط المجموعتين الآخرين من حيث المكان والجغرافيا والمناخ ، وتتوسطهما أيضاً من حيث مفاهيمها وقيمها التي تجمع بين الروح والمادة وتمزج بينهما وهي الأمة الوسطى والقارة الوسطى . فإذا قيل أن الفكر العربي الإسلامي هو الفكر « الأوسط » فإن ذلك يكون مساوياً لما يقال من أنه يعيش في المنطقة الوسطى من العالم « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » .

* * *

وهو فكر إسلامي عربي لأنه مزيج من الإسلام واللغة العربية . فهو فكر أساسه الإسلام وجوهره « التوحيد » وطابعه ذلك المزيج الجامع للروح والمادة ، والعقل والقلب ، والعلم والدين ، والدنيا والآخرة ، والحياة والموت ، وهو فكر موحد لا يقبل النظرة

الجزئية وإنما يقوم على النظرة السكلية أساساً ، وقوام هذا الفهم أن لإسلام ليس ديناً فحسب ، بل هو دين وفكر وحضارة ومجتمع ، فالدين بمعناه العلمى جزء منه ولكنه ليس هو كله . « واللغة العربية » هى مادة هذا الفكر ووعائه وهى رمز على هذه الأمة التى نشأ فيها ومنها امتد إلى العالم كله ، فضى شرقاً إلى الصين ومضى مغرباً حتى عبر إلى الأندلس .

والعروبة والإسلام شقين لحقيقة واحدة ، يكمل كليهما الآخر فليس يضير أن يتسمى باسمهما معاً ، حتى لا يفهم أنه فكر عربى « قومى » يدخل فيه العرب وحدهم ، وحتى لا يوصف بأنه فكر إسلامى يقوم على الإسلام وحده ، ذلك أن الفكر العربى الإسلامى فى الحقى هو عصارة فكر الأجيال والثقافات المختلفة التى عاشت فى هذه المنطقة ، وهو مزيج من ثقافات الفرس والهند والرومان واليونان والمسيحية التى تبلورت كلها فى بوتقة واحدة ، وحملت طابع الإسلام الذى ليس ديناً فحسب ، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع ؛ ومن هنا كان هو فكر كل الأديان والثقافات والأمم والشعوب التى عاشت تحت اسم العالم الإسلامى وما تزال تعيش — من مسيحيين ويهود ، من فرس وترك وأفغان وهنود وجاويين وغيرهم . ومن هنا لا ينطبق على الإسلام ما ينطبق الأديان الأخرى التى تعرف فى الفكر الغربى باسم « اللاهوت » أو مجموعة الطقوس والعبادات... وتتمثل فيها الأنظمة الكهنوتية ، والمقارنة هنا بين الدين والإسلام مقارنة بين الجزء والكل ، فالإسلام يحمل فى كيانه جزئية هى « الدين » ولكنه إذا ورد اسمه « الإسلام » فليس معنى الدين وحده وليس يمكن وضعه موضع المقارنة مع المسيحية أو اليهودية أو البوذية .

* * *

وإذا قيل الفكر العربى الإسلامى فليس ذلك يمنع أن يكون مكتوباً بالفارسية أو التركية أو الأوردية أو غيرها من اللغات المبثوثة فى العالم الإسلامى والتى بدأت متصلة باللغة العربية أو مكتوبة بحروفها أساساً ، فإن جوهر هذا الفكر هو أساساً « عربى إسلامى » بمفاهيمه ومقوماته التى تتمثل فى امتزاج الروحية والمادية أساساً ، وهذا هو ما يكشف عن طابعه المتميز عن الفكر الشرق والغربى على السواء .

ولعل أبرز الأزمات التى مرت بالعالم الإسلامى إنما جاءت من الفصل بين هذه القوى المتلاقية المترجة فى كيانه ، فإذا غلبت المادة تقلصت الروح ، وإذا امتد العقل تقلص

الضمير ، أو العكس ، فهنا يقع الاضطراب الذى يبعث على التخلف ، والهزيمة .

ولقد كان جوهر فكرنا المتمثل فى الروحية والمادية متمزجتين هو سر الأسرار فى كل ما عرف عن الفكر العربى الإسلامى من تجدد وانفساح واتساع فى آفاقه على نحو بهر الباحثين والمؤرخين ، حيث لم تبلغ حضارة من الحضارات ما بلغه فى التوسع فى زمن قليل لا تريد عن قرن من الزمان .

كذلك كان لجوهر فكرنا الأثر الواضح فى البقاء والحياة والاستمرار بالرغم من اضطراب الدولة وسقوطها تحت سلطان الغزاة : التتار والصليبيين والاستعمار الحديث .

فهذه النظرة الكاملة الشاملة للمادى والمعنوى معا ، هى سر القوة والحياة ، ومنها يصدر ذلك الروح الواضح من القدرة على المقاومة والتحدى للغزاة ومنها تتمثل الملامح الاستقلالية الذاتية التى تطبع الأمة بطابع لا يمكن أن يندمج أو يذوب أو يضعف فى غمار المذاهب والنظريات التى يحملها الفكر البشرى من الشرق أو الغرب .

ومن هنا كان إصرار النفوذ الغربى على غزو هذا الفكر للقضاء على طابعه الأساسى فى امتزاج الروحية والمادية المتمزجة فيه بطابع الفكر الغربى « المادى الخالص » ومن هنا نشأ الصراع بين الفكر العربى الإسلامى وبين دعوات التغريب التى تحاول أن تحل مفاهيم غربية لقيمه الأساسية أو تحل قىما غربية مكان القيم التى يحملها الفكر العربى الإسلامى .

ولعل أخطر ما حمل عليه الفكر العربى الإسلامى هو « جزئية النظرة » لتحل محل النظرة الكلية الشاملة التى هى طابعه الأصلى ، والتى تحول ذون تجزئة الأحكام بين النفس والاجتماع أو بين الدين والتربية أو بين الأدب الخلق على النحو الذى يتمثل فى النظرة الغربية . فالفكر العربى الإسلامى يؤمن بقاعدة الأساس المتمزج من الروح والمادة والتوازن المتسق بين العقل والروح ، فحيثما توقف إشعاع الروح تجمد إشعاع العقل .

ولا يوجد قطاع من الفكر العربى الإسلامى يمكن فهمه لو أخذ بمفرده وعزل عن

القطاعات الأخرى ، وأى جزئية لا يمكن فهمها وتفسيرها إلا إذا درست متصلة اتصالاً وثيقاً بالأجزاء الأخرى ، ذلك أن بناء الفكر العربى الإسلامى يقوم على رابطة أساسية تمثل الهدف وهو بناء « الإنسان » فلا بد من الترابط بين الجوانب المختلفة ، فى أى قضية فنحن لا نستطيع أن ندرس الأدب دون أخلاقيته ، ولا ندرس التربية منفصلة عن روح الدين ، ولا نحل مشكلة ما دون تقدير جوانبها الاجتماعية والنفسية والروحية والعقلية فى وقت واحد . وهنا يبرز جوهر الفكر العربى الإسلامى الذى يمزج فى تفاعل بين القيم الروحية والمادية ولا يفصل إحداها عن الأخرى .

أبرز مقومات الفكر العربي الإسلامي أنه يمثل الإنسان كائناً حياً محباً للحياة يعمل لدنيائه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخريته كأنه يموت غداً ، في ظل من الأخوة والمحبة ، مع إيمان بالله وإيمان بسيادة الإنسان على الكون تحت ظل الله بوصفه صاحب الخلافة في الأرض .
وتتلاقى في الفكر العربي الإسلامي : العاطفة والعقل ، الروح والمادة ، العلم والدين ، الفكر والشعور ، النفس والجسم ثم يظهر طابع الأخلاقية العليا وانحيا في الاتجاه نحو الإنسانية والمجموع أكثر من الاتجاه نحو الفردية والذاتية والتضحية بالنفس في سبيل الكل ، ومقاومة الغاصب وجهاد المعتدى ، مع زهاده فيما ليس ملكاً له أو حق وتقدير للشرف والفضيلة والصداقة . واستعداد للجود بما يملك ، وإقامة العدل الاجتماعي وإقامة بنيان المجتمع على أساس التضامن والمساواة .

وجوهر الفكر العربي الإسلامي يجمع بين المحافظة والانطلاق ، والتحليل والتأليف ، والمثال والواقع والبساطة والوضوح . يحب القصد « لا وتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » . ينظر في كل شيء بفكر مفتوح وبغير عقيدة مسبقة وينقده ولا يراه مقدساً فوق النقد ، لا تقوم نظريته إلا على الاقتناع العقلي مع لإيمان الروحي . يمزج بين القيمة والمصلحة . له قدرة كاملة على الحركة ومع الحيوية له القدرة على الامتصاص مع سعة في الأفق ، واعتدال الملكات فيه البساطة مع الرونة ، وله القدرة على الأخذ والعطاء ، والقدرة على التأقلم ، يربط بين الماضي والحاضر ، آفاقه مفتوحة على الثقافات والحضارات والمذاهب ، يرى الحكمة ضالته أئى وحدها ، ويرى الموت في الحق هو عين البقاء ، قادر أن يقول لا إذاسيم الخسف ، الإنسان عنده ليس إمعة يجري مع التيار ، ولكنه قادر دائماً على أن يقول أحسنت وأسأت ثم هو يجمع بين الحق والعدل والخير .

وتمثل جوهر الفكر العربي الإسلامي في الاستعلاء على فوارق الجنس واللون والمنصر ، مع الإيمان بالعلم والبحث « طالب العلم فريضة » ، اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ، يتصل بالثقافات اتصالاً حراً لا تحده قيود إلا الحفاظ على مقوماته وشخصيته . يؤمن بالحركة على الأساس الثابت لا يقر العبودية الفكرية ولا التبعية ، تبرز فيها الإنسانية بالإقليمية .

وتمثل طابع الفكر العربي الإسلامى فى حرية العقل وسعة الأفق ، واعتبار التاريخ مرآة واللغة أساس ، مع القدرة على الهضم والتمثل والامتصاص ، فى ظل الفناء المذات واعتدالها ودون تعارضها ومع التعاون على البر والحق ، والوفاء بالعهد والإنسان سيد الكون تحت حكم الله ؛ وسيادته ليست سيادة مادية ، بل سيادة القيم الإنسانية من العدل الحرية إلى الإخاء والمساواة . والانسجام بين الفرد والمجتمع ورقى النفس عنده يجرى مع الرقى المادى . وفى مجال العلم قوامه الإيمان بالتجربة « قل هاتوا برهانكم » حيث يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ؛ وفى كل نظرة : الاعتدال . الخلق . الكرامة . العفة ، العرض ، الشرف ، الشورى . لإسراف ، لا انحراف ، لا تعصب ، لا تفرقة عنصرية . لا تقنى شخصية المرأة فى شخصية الرجل ، لا يقدم الرجل المرأة كالرقيق لمتعته وفائدته المادية . التكامل والتكافل والزكاة والعدل فى الاقتصاد والاجتماع . وضوح سلطان العقل على البدن والغرائز ، المنزلة الوسطى ، لا عقوبة بلا مسئولية لا الإخاء والمجد والسلام ، لا شئ يفرض بالقوة ولكن بالاقناع والبرهان .

وهكذا يقدم الفكر العربى الإسلامى نظرة كاملة للحياة والإنسان على أساس الالتقاء والامتزاج بين الذهن والقلب والروح والمادة ، فالفكر العربى الإسلامى لا يحتقر الحياة ولا الأمور المادية ، ولا يذهب مغربا إلى الروحية والغيبيات . وهو يدعو إلى الاتصال بالحياة والارتباط بها والتفاعل معها دون أن يتجاوز حد القصد والاعتدال . وفق مثل أعلى رفيع . مع استملاء على النفعية والرهبانية على السواء ، يقيم أحكامه على أساس العقل والعدل . ويوفق بين الاتجاهات المتقابلة ويجمع بين الدنيا والدين . على أساس الزهد فى مجال الثراء ، والإباء فى مجال الفقر ، فى انسجام والتقاء متكامل .

هذه لمحة من المقومات التى تكون « قاعدة الأساس » فى بناء الفكر العربى الإسلامى المتفتح القابل للالتقاء بالفكر الإنسانى فى مختلف مذاهبه وأفكاره ونظرياته ، القادر على أن يأخذ منها ويدع ، ويجرى فى مجال الحياة والتطور دون أن يتوقف أو يجمد ، وهذا عندى سر بقاء واستمراره حيا متفاعلا بالرغم من سقوط الدولة التى كانت تحمل اسمه . ومن هذه النظرة يتكشف لنا أنه من العسير جداً أن يذوب الفكر العربى الإسلامى فى الفكر الغربى أو الشرقى أو يتخلى عن أساسه الأصيل ، وهو امتزاج الروحية بالمادية ، هذا الأساس الذى تقوم عليه النظرة الشاملة فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة والدين والفكر والنفس والتربية .

معطيات الفكر العربي الإسلامي

استطاع الفكر العربي الإسلامي أن يقدم للفكر العالمي والحضارة الإنسانية الخطوط العريضة والثقافة والعلم والفن ، بعد أن تبلورت في بوتقته عصارات الثقافات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، وأن يخلق من هذا المعطيات المضافة إلى أصوله الأساسية فكراً واضح المقومات والقيم .

ولم يكن الفكر العربي الإسلامي ناقلاً أو مترجماً فحسب ، بل ومبدعاً وبانياً وفي خلال هذه المرحلة التي تسلم الفكر العربي الإسلامي فيها أمانة الحضارة ، فاستطاع أن يضيف كثيراً من الثمرات وأن يبدع الجديد أيضاً ، وكانت أبرز معطياتنا هي طبع الحضارة بطابع سيادة الخلق ومبادئ الشرف ومعاني العدل والإخاء والتكافل الاجتماعي . وكان الرق في نظرنا هو تغلب الإنسان على المادة وعلى أهوائه في نفس الوقت .

ولعل أبرز ما أعطى الفكر العربي الإسلامي للحضارة الحديثة « المنهج العلمي » فالعرب المسلمون هم أول من وضع قواعده وأأسسه ، وطبقوها تطبيقاً كاملاً على كل ما اتصل بهم من قضايا الفكر . وقد كان الإسلام في أسسه الأولى والقرآن في مطالع آياته قد دعا إلى « البرهان » في كل قضية ، ومن هنا نشأ في مجال الفكر العربي الإسلامي ما يسمى بالبحث عن الدليل ، مع النهي عن التقليد ، وتحرير النص بعد مراجعته ومطابقته للعقل مع إقرار مصدره .

وقد وصل الفكر العربي الإسلامي في ذلك إلى غايته نضوجاً وقوة فحينما ترجمت آثار اليونان والإغريق لم يأخذها المفكرون العرب والمسلمون قضايا مسلماً بها ولكنهم ناقشوها وراجعوها ، وقبلوا منها ورفضوا . فابن سينا يخالف أرسطو وأفلاطون وغيرها في كثير من النظريات والآراء فلا يتقيد بها ، بل يأخذ منها ما يقتنع به ويوافق مزاجه الفكري . ويزيد عليه ، وعنده أن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس ، ولذلك فهو لا يتقيد بآراء من سبقوه بل يبحث فيها ويدرسها ويعرضها على المنطق والعقل ، وعبارته مشهورة

حيث يقول « حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا » .

وابن رشد يعضى في طريق البحث العلمى خطوات أشد عمقا واتساعا، فيدعوا إلى النظر فيما قدمته الأمم وفق شرائط البرهان ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان غير موافق للحق نهينا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

وابن الهيثم والبيرونى يصلان في هذا إلى المدى^(١) البعيد ، ويضع القاضي عياض « علم المصطلح في الحديث » متحريرا الدقة في التفكير والاستنتاج وقد سار « النظام » في بحوثه على أساس الشك والتجربة، فاعتبر الشك أساسا للنجاح ، وأشار إلى ذلك أبى هاشم البصرى والجاحظ ودعا جابر بن حيان إلى إجراء التجربة ، وقال أن المعرفة لا تحصل إلا بها ، وللاجاحظ وابن حزم نظرات في هذا المجال تستطيع بالإضافة إلى ما سبق أن تكون في مجموعها أسس البحث العلمى كما عرفه الفكر العربى الإسلامى على نحو تطبيق لا نظرى، قوامه : الاستقراء والقياس والتمثيل . مع قصر البحث العلمى على المشاهدة والتجربة وجمع المشاهدات ونتائج التجارب وربطها وتبويبها . ثم ربط الحقائق المستخلصة منها على النحو الذى يجعلها قانونا طبيعيا أو نظرية علمية ثم استنباط النتائج التى تفضى إليها وبحجة تلك النتائج ومطابقتها للواقع .

وقد نضج هذا المنهج على يد ابن الهيثم (١٠٣٩ م وسبق به فرنسيس باكون ١٦٢٦ م ويرى قدرى طوقان ومصطفى نظيف وغيرهم من العلماء المعاصرين أن ابن الهيثم لم يسبق . ليكون محسب ، ولكنه سما عليه فقد كان أوسع منه أفقا وأعمق تفكيراً .

وقد أشار إلى ذلك منصف من الغرب هو الأستاذ بريفولت الذى قال « إن ما ندعوه العلم فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبى .

وقال بريفولت أن روجر بيكون قد نقل مذهب العرب فى البحث العلمى بعد أن درس

(١) راجع فصل البحث العلمى فى الفكر العربى الإسلامى .

اللغة العربية والعلوم العربية الإسلامية في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه في الأندلس، وليس لروجر سيكون ولا لسميه فرنسيس سيكون الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر سيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلامى إلى أوروبا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب بوصفها الطريق الوحيد لمعرفة الحق » .

* * *

ومن عشرات الشهادات المنصفة يتبين أن الفكر العربى الإسلامى كان مبدعاً؛ شهد بذلك :
لاروم لاندو . ليبرى . كاجورى . هوى لين . جول لا بوم ، ولیم أوسلر ، سارطون ، ماكس مايرهوف . برنارد لويس ، درابر ، بريفو ، ديلاس أوليرى . سيديو . لويجى رينالدى .
دولامبر ، جوستاف لوبون « هؤلاء جميعاً شهدوا بفضل الفكر العربى الإسلامى على علوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والكيمياء والنبات والآداب والفنون والفلسفة والموسيقى .

وملخص شهاداتهم: (١) أن العرب المسلمين عرفوا التشريح ومارسوه (٢) الأطباء العرب المسلمون فى القرن العاشر يعلموا تشريح الجثث فى قاعات مدرجة خصصت لذلك فى جامعة صقلية (٣) ابن النفيس الدمشقى المصرى اكتشف الدورة الدموية ونقلها (هارفى) (٤) الكشف العرب والمسلمون اكتشفوا أمريكا عام ١١٠٠م قبل كولبس ١٤٩٢م .

(٥) الفكر العربى الإسلامى لم ينسخ من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخاً ولكن رجاله جفوا بين المصدرين ثم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية (٦) علم الضوء أسدوا إليه عظمة الابتكار ، وكذلك علم المثلثات (٧) الفكر العربى الإسلامى علم العرب أن يضعوا العقل أولاً (٨) اكتشفوا وجود العدوى وطبيعتها لأمرض الجدري والطاعون والكوليرا .

(٩) حتى أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا لا تزال تناقش فى جامعة مونيليه بفرنسا ، وقد عاشت جامعات الغرب خمسمائة سنة تكتب للعرب خاصة، (١٠) أن العرب هم الذين

مدنوا أوربا في المادّة والعقل والخلق وهم الذين علموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين (١٠) عد (لكرك) في تاريخ الطب العربي ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب من الفكر العربي الاسلامي إلى اللاتينية .

(١١) اخترعوا الساعات الدقاقة والزوالية واكتشفوا قوانين نقل الأجسام (١٢) عرفوا تركيب النار اليونانية (١٣) أول من استخدم البوصلة في الملاحة (١٤) واكتشفوا الإبرة المغنطيسية ، (١٥) وضعوا أصول علم الجبر وحساب المثلثات (١٦) سجل ابن البيطار ١٤٠٠ عقار لم يعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقار والآلفا اكتشفها العرب (١٧) عللوا صعود الماء في العيون ، (١٨) بحثوا في الصوت وعللوا حدوث الصدى ، والجذب في المغناطيس (١٩) ودرسوا نظرية النشوء والترقي وطبقوها على المواد غير العضوية والمعادن (٢٠) أنشأوا المراصد واخترعوا إلى الاسطرلابات الدقيقة ، وحسبوا طول السنة الشمسية . وصححوا أخطاء بطليموس (٢١) وضعوا أسس علم الكيمياء ومارسوا التقطير والترشيح (٢٢) فتت الأطباء العرب المسلمين لأول مرة الحصى في المثانة وسدوا الشرايين النازفة واستعملوا المرقد (المخدر) في العمليات الجراحية .

(٢٣) صححوا آراء بقراط وجالينوس في التشريح ووظائف الأعضاء (٢٤) عرفوا «الصفير» ولم يعرفه الغرب إلا في القرن الثاني عشر .

* * *

كما قدم الفكر العربي الإسلامي فلسفات الاجتماع وأصل الأنواع . فقد سبق (ابن مسكويه) دارون إلى نظريتي أصل الأنواع والتطور ، فقد ذكر ابن مسكويه في كتبه نشوء الحيوان من النبات ، وأن الإنسان ناشئ من آخر سلسلة البهائم « وأنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقي حتى رتبة أعلى من مراتب البشر » كما سبق ابن خلدون آدم سمث في نظرية قوانين الاجتماع .

وقد تأثر دانتى في قصته « الكوميديا الإلهية » بالعري في رسالة الغفران .

وسجل الفكر العربي الإسلامي أوليته في مجال كتابات المكفوفين التي عرفت

بالحروف البارز سجل ذلك على بن أحمد بن يوسف الآمدى فى مؤلفاته وذكره صلاح الدين الصفدى فى كتابه نكت الهميان فى نكت العميان .

وسبق أبو بكر الطرطوشى فى التأليف عن سياسة الملوك الكاتب الإيطنالى (ميكافيللى) وكتاب الطرطوشى (سراج الملوك) مصدر لكتاب (الأمير) وسابق له بخمسة قرون فقد اكتشف الباحثون أن معظم مواد كتاب الطرطوشى قد نسقت فى كتاب الأمير .

* * *

وكان للفكر العربى الإسلامى أوليته فى الموسيقى ، واعترف الدكتور هنرى فارمر فى بحثه عن تاريخ الموسيقى العربية (١٩١٤) بفضل العرب المسلمين على نظرية الموسيقى العربية وأن ابن سينا والفارابى وغيرهم من علماء المسلمين قد زادوا على الموسيقى اليونانية وأدخلوا تحسينات واضحة ، وأثبت أن العرب أجادوا فى بحوث التمججات الكرية للصوت . وأن العرب أضافوا آلات جديدة ، وابتكر الفارابى الآلة المعروفة بالقانون وهو أول من ركبها هذا التركيب الذى لا تزال عليه حتى الآن . ويرجح فارمر أن الكندى أول من كتب نظرية الموسيقى ، ويذهب إلى نفس الحقيقة الدكتور آدموندو كورايا لوبس فيقول إن الموسيقى العربية هى أم الموسيقى الأسبانية . وإن أسبانيا هى أم الموسيقى العالمية . وأعلن المستشرق خوليان ريباراً أن موسيقى القرون الوسطى ترجع إلى أصل عربى .

* * *

والواقع أن هذه الحقائق تكفى للرد على الاتهامات التى وجهت للفكر العربى الإسلامى بأنه تراث Legacy ولا شك أن كلمة «التراث» تعنى ما تخلفه الحضارات البائدة والثقافات المنقرضة ، وقد ينطبق ذلك على تراث الاغريق والرومان والفراعنة ، لأن مدينة هذه الشعوب ولغاتها قد انتهت ، أما الفكر العربى الإسلامى فما زال حيا باقيا وقد اتصل بالثقافات المختلفة اتصالا حراً ، لم يقيدته نفوذ ولم يفرض عليه اختيار ، فامتص واقتبس ما ناسب مقوماته الأساسية . ثم خطا به خطوات ، وابتدع فنونا جديدة ، ولقد كان هدف الفكر العربى الإسلامى أساساً هو تحرير الإنسانية من الوثنيات وكان طابعه التقدم

في مجال العلم مع سيادة الخلق والعدل والحق وفق قاعدة تكريم الإنسان ورفع قدره ،
وعلى نحو لا يجعله عبداً للمادة فظل هو المسيطر عليها .

والواقع أننا في حاجة إلى أن نفهم مدى دورنا وقوة معطياتنا للحضارة الإنسانية
والثقافة والفكر العالى . وسنجد أن أوليات الفكر الإنسانى وبذور العلوم والثقافات
قد بدأت في حضارة فكرنا فإذا هي عادت إلينا اليوم فإنما ذلك حق في دورة التاريخ ،
وقد شاركنا أساساً في إبداعها والإضافة إليها .

* * *

ولقد حاول كثير من الباحثين إنكار مرحلة الحضارة العربية الإسلامية وردد القول
بأن (الحضارة الرومانية) انتهت في القرن الرابع الميلادى وأن (الحضارة الغربية) بدأت
في القرن الرابع عشر وأن فترة الألف عام في عمر الإنسانية كانت فترة القرون الوسطى
المظلمة (٤٧٦ - ١٤٥٣) والواقع أن هذه الفترة كانت فترة ظلام وركود وانحطاط
بالنسبة لأوروبا والغرب وحده ، أما بالنسبة للعالم العربى الإسلامى فقد كانت فترة يقظة
وضياء لا يحدله ، فقد ظهر الإسلام في هذه الفترة واتسع نطاق اليقظة وامتد حتى بلغ
الصين شرقاً والأندلس غرباً وزحف على أوروبا نفسها وكاد أن يطوقها .

وقد اعترف الباحثون المصنفون : جوستاف لوبون ، لويجي رينالدى ، برنس دافن ،
سينديو ؛ بأن الفكر العربى الإسلامى قام كالنار المضىء في القرون الوسطى الأوربية فأعاد
نور الحضارة والمدنية .

يقول لوبون « كان تأثير الإسلام والعرب في الغرب عظيماً ، وإلهم يرجع الفضل
في حضارة أوروبا ، فإذا ما زجمننا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد يوم كانت المدينة
الإسلامية في أسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد الغرب
كانت عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بأنهم أميون ، لا يقرأون
ولا يكتبون وكانت الطبقة العامة المستندرة عبارة عن رهبان فقراء جهلة يقضون الوقت
بالتكسب في ديارهم بنسخ كتب القدماء .

وطال عهد الجهالة في أوروبا ولم يبد منها بعض الميل للعلم إلا في القرن الحادى عشر .

عند ما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة إلى نفى كفن الجهل الثقيل ، فطرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العصر ، وما عرفت القرون الوسطى المدنية إلا بعد أن مرت من لسان أتباع محمد ، فإلى العرب وإلى العرب وجدهم لا إلى رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يحلون حتى اللغة اليونانية يرجع الفضل في معرفة الأقدمين والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإتقادهم هذا السكز الثمين .

* * *

وقد أشار الأستاذ ما كميل في كتاب (تراث الإسلام) إلى أن أوربا مدينة للفكر العربي الإسلامي بنزعتها المجازية الحماسية Romance وقال : إننا مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والخيال للعالم الذي كانت تحكمه روما ، وقال إن القصة الأوربية في نشأتها قد تأثرت بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى وهي المقامات ومغامرات الفرسان ويرى كثير من النقاد الأوربيين أن رحلات جيلفر التي ألفها سويقت ورحلة روبنسون كروزو التي ألفها ديفوي مدينة لألف ليلة وليلة ورسالة حي بن يقظان .

وقد أشار برتراند رسل في شأن مقام الفكر العربي الإسلامي من العلم إلى « أن العرب كانوا أميل إلى التجريب من الإغريق وخاصة في الكيمياء » .

* * *

وإذا كان كتاب « التغيرب » الذين يحملون لواء الخصومة الجاحدة للفكر العربي الإسلامي قد هاجمو معطيات هذا الفكر فإن الانصاف قد وجد طريقه إلى أقلام كثير من الباحثين الغربيين الذين حاولوا أن يقولوا كلمة الحق . وفي مقدمة هؤلاء الكاتبة الدكتورة سيجردهونكه في كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) .

ولعل أبرز ما تنبعت إليه الكاتبة المنصفة تصوير مدى الفوارق العميقة بين الفكر العربي الاسلامي والفكر الغربي تقول :

« إنه لمن السخف أن تعيش العبقرية العربية الإسلامية على مقياس العبقرية الإغريقية وتلومها لافتقارها إلى التعليل الفلسفي للكون . إن لكل عبقرية طابعها الخاص وطريقتها الخاصة ، وأن مآثرة الفكر العربي الإسلامي الخالدة لتقوم في تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم الخائقون الحقيقيون للاستقصاء العلمى ، فقد كانوا أول من جعل من الوقائع الموزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام أو من الطريقة الاستقرائية إلى الطريقة العلمية الأساسية . إن المنجزات التى حققها رواد العلم العربى على أساس المشاهدة والتجربة سوف تحدد الحركة الأولية لتحرر الفكر الغربى عن طريق روجر بيكون وألبير الكبير وليوناردو دى فنسى وغاليلوس . . . » .

ويقول : لشد ما يذنب حقهم حين يكتفى بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم الغربى بعد ما حفظوه من الدمار ، فذلك يعنى فى الواقع التقليل من قيمتهم والسكوت عن الأمور الجوهرية فى عملهم الحضارى وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير . والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب مدموغة بآثارهم .

الكتاب الثاني

الفكر الغربي

مقوماته ومعطياته

مقومات الفكر الغربى

من المعتقد أن « الحضارة » غير « الفكر » وأن الحضارة ملك مشاع للإنسانية من حق كل الشعوب والأمم أن تأخذ منها ما تشاء . فهى متصلة بالحياة والاختراعات والآلات والعلوم التجريبية .

أما « الفكر » فيختلف عن ذلك ، ويرتبط أساساً بالنفس الإنسانية فى ميولها وقيمها ومفاهيمها الروحية والاجتماعية والمقائدية . ولذلك فليس من السهل أن يقل كالحضارة . وإن كان من الحقائق المقررة أن الثقافات الحية تكون مفتوحة دائماً على الثقافات الإنسانية تأخذ منها وتعطى على قدر ما تمدها بالقوة والحيوية والتطور . وتجعلها مضطردة النمو والاستمرار مع موكب الحياة الذى لا يتوقف . ولكل فكر « مقوماته الأساسية » التى لا تتحول عنها ، هذه المقومات التى امتدت من القرون الطويلة وتكونت نتيجة للذوق والضمير والبصيرة والروح الأصيلة للأمة أو القوم . ولقد تأكد بصورة قاطعة أن هناك ثلاث ثقافات أساسية فى العالم الحديث تبدو كل منها ولها طابعها الواضح الصريح .

× الثقافة الغربية (بشطريها المادى والماركسى) .

× الثقافة الشرقية .

× الثقافة العربية الإسلامية .

وفى تفريق شامل أساسى سريع يتبين : أن الثقافة الغربية أساسها مادى خالص ، وأن الثقافة الشرقية أساسها روحى خالص ، وأن الثقافة العربية الإسلامية أساسها مزيج متفاعل من المادة والروح . ومن هنا يتبين مدى اختلاف وجهات النظر فى المقومات الأساسية للفوارق بين الثقافات الثلاث .

وإذا كان هناك مصدر لهذه الثقافة أساساً فهى الأديان والمعتقدات وتراث الأدب والفن والفلسفة ، أما الثقافة العربية الإسلامية فقد قامت أساساً على مفاهيم الإسلام بوصفه ديناً

وثقافة ونظام حياة كما قامت الثقافة الغربية على مزيج من المسيحية الشرقية والوثنية الاغريقية والعلم الحديث . أما الثقافة الشرقية فقد قامت على أساس مفاهيم الدينين الكبيرين: البوذية والكنفوشيوسية .

ويمكن القول بأن الثقافة الغربية تتمثل في أوروبا وأمريكا وأن الثقافة الشرقية تتمثل فيما يطلق عليه الشرق الأقصى وهي الأجزاء غير الاسلامية والعربية من آسيا .

وأن الفكر العربي الاسلامي يتمثل في المنطقة الوسطى التي تتكلم اللغة العربية (العالم العربي) أو التي تدين بالاسلام (العالم الاسلامي) .

* * *

وعندما نتعمد المقارنة بين الثقافتين العربية والغربية يتبين مدى الاختلاف الجذري بينهما بحيث لا يمكن التقائهما في أساس . وإنما يمكن تبادل الامتصاص أو الاقتباس بين الثقافتين من جوانبهما المختلفة وبالنسبة للثقافة العربية يمكن نقل أساليب الفكر الغربي ومناهجها للانتفاع بها في تجديد عرض جوانب هذه الثقافة وإغنائها وإعطائها قوة جديدة على الحياة والحركة والتطور دون أن يؤثر ذلك في مقوماتها الأساسية .

والفكر الغربي يقوم أساساً على الوثنية الاغريقية + المسيحية، وفي ظل النظرة المادية التي قدمتها النظرية الرومانية ومن عصارة هذا المزيج أقام الفكر الغربي أساس نظريته إلى الله والحياة والانسان وأساس حضارته وطابعها .

* * *

(أولاً) الوثنية الاغريقية .

(ثانياً) النظرة الرومانية التي تتمثل في إن كل ما غير روما فهو أرض العبيد .

(ثالثاً) المسيحية الوافدة من الشرق .

١ - الوثنية الإغريقية

هي أحد الدعائم الثلاث التي يقوم على الفكر الغربي . وتتمثل في التراث الاغريق الذي يصور العقلية الهلينية الحرة المنطلقة التي تتميز بأسس واضحة هي : (١) تعدد الآلهة (٢) صراع الانسان مع الآلهة والطبيعة (٣) حرية الغريزة والجنس (٤) تقديس الجسد (٥) غلبة النزعة الأسطورية (٦) تأليه العقل .

وقد صور دعاة الفكر الغربي مفهوم الوثنية الاغريقية مبنيا على الخلاف الجذري بينها وبين فكر الشرق الاسلامي . فقال « أول عنصر من عناصر القوة في حضارتهم إنهم لم يكونوا يوما عبيدا للتقليد . لم تسكبلهم الطقوس والعادات ، آلهتهم تسرح وتمرح على جبال أولبوس وتتصرف تصرف البشر . كانوا يحبون ويكرهون ويخطبون نساء بعضهم بعضا ، كانت آلهة اليونان أناسا ولكن جبابرة ، لم يستولى على خاصة الإغريق خوف ولا رهبة ولا جود أمام الآلهة . لم يشعر اليوناني أمام ربه أنه عبد ذليل بحاجة إلى الرحمة والشفقة ، بل ظل سيد نفسه متغطرسا ، موقنا أنه سيد الأرض ، لم ترق الكون قوة لسحقه ، إجلال العقل وإحلاله مرتبة مقدسة ، لم يرض بالأسطورة والحرافة تعليلا لمظاهر الكون وأسراره بل حاول أن يجدوا لها تعليلا عن طريق العقل والمنطق في ظاهرة تأليه العقل وهم بذلك يختلفون عن الشعوب السامية التي أحلت « الأيمان » المحل الأول . وإذا كان هم السامي إماتة الجسد والانصراف إلى الروح الخالدة وكان همهم عالم بعد الموت والإعراض عن الدنيا فإن الإغريق قدس الجسد وجماله ، وكان انصرافه إلى الحياة الدنيا بالدرجة الأولى فكان عنده الغناء والرقص والشعر والتمثيل والتصوير والنحت ، وهي التي أعرض عنها السامي إعراضا كلياً على أنها من مطالب الجسد ^(١) . »

* * *

ومن دراسات متعددة للتراث الإغريقي يبدو أن هناك خطان أساسيان : (الأول) العداء

(١) أنيس صايغ : مجلة الأبحاث م ..

بين الآلهة والبشر وانتقام الآلهة، وصراع الإنسان مع الآلهة ومحاولة الانتصار عليها (الثانى) عبادة الإنسان وقداسته وإعلاء جانب الماديات والجنس والغرائز وإهدار جانب الروح، وتكشف هذه النظرة عن المخالفة الواضحة للخلاف بين الفكر العربى الإسلامى وأسس الوثنية اليونانية فى نظرتها إلى الآلهة والسكون والإنسان .

ومن هنا تبدو النظرة الإغريقية - وبالتالى النظرة الغربية - ناقصة جزئية بينما تبدو النظرة العربية الاسلامية شاملة .

فليس فى النظرة الاسلامية إماتة الجسد والانصراف إلى الروح أو عالم ما بعد الموت أو الاعراض عن الدنيا كلية ، وربما كانت هذه نظرة الفلسفة الشرقية أو الفكر الشرقى . أما نظرة الفكر العربى الإسلامى فهى جماع الروح والجسد والعقل والقلب ، وهى لا تنصرف عن الحياة ولكنها لا تسرف فى الاندفاع وراء الغرائز ، وهى تؤمن بالله والموت والغيب ولكن ذلك لا يصرفها عن الحركة والتطور والعمل فى الدنيا والابداع ، وتجربتها فى ذلك معروفة وواضحة وليست فى حاجة إلى الدفاع عنها ، فقد استطاع الفكر العربى الإسلامى أن ينشئ حضارة وثقافة لها فاعليتها وحيويتها وأوليائها فى عالم الفلسفة والعلوم التجريبية والموسيقى والطب والفلك دون أن تتخلى عن إيمانها بالله وكانت ولا تزال متفتحة على الثقافات الانسانية ، ترجمت فى عصر ازدهارها فكر اليونان والرومان ونقدته وأضافت إليه واعترضت على بعض جوانبه التى لا تتفق مع منطوق فكرها ومقوماتها ونمته وامتمت عصارات الفكر المسيحى والهندي والفارسى جميعا وأساغته وبلورته فى بوتقة شخصيتها فامتد به كيانها وتوسع ، وهى فى هذا العصر لا تتوقف عن الامتصاص من عصارة الفكر الانسانى ما يزيد قوة وحياة ، وسوف تظل قادرة على الأخذ منه بحرية مهما كانت ظروف الضغط التى يقوم بها الغزو الفكري أو التغريب أو الشعبية لملها على الدوبان فيه والتحول عن طابعها وكيانها إليه تحولا كاملا .

ولقد كانت الثقافة العربية الاسلامية قادرة دائما على أن تأخذ وتدع وتعطى فى أصالة دون أن تتحول أو تذوب أو تتنازل عن قيمها الأساسية ودون أن تكون تابعة أو مقودة . وقد أولى الفكر العربى الحديث ولأى وتبعية وترابطا مع التراث اليونانى لاحد له بالرغم من فواصل الزمن وتحول المفاهيم ، بينما عارض رجاله ذلك بالنسبة للفكر العربى المعاصر فى ارتباطه بمقوماته الأساسية .

٢ - النزعة الرومانية

تتمثل نظرة الحضارة الرومانية في قاعدة أساسية هي : « كل من عدا الرومان برابرة » وهي نفس النظرة التي اتخذتها الحضارة الحديثة . فالعدل والحرية والمساواة للرومان فقط أما غيرهم فبييد ولا تنطبق عليهم أى قواعد العدل . وقد استمد هذا الاتجاه «مونتسكيو» في كتابه «روح» القوانين فقال : إذا طاب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزوج عبيد أفانى أقول أن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تبدأ من أن تستعبد شعوب أفريقيا كي تستخدمها في استغلال هذه الأقطار الفسيحة والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرة ، ولا يمكن للانسان أن يتصور أن الله ، وهو ذو الحكمة السامية قد خلق روحا طيبة في داخل جسم حالك السواد .

هذه النظرة الأساسية في الحضارة الرومانية ، وقد ورثتها الحضارة الغربية الحديثة واتخذتها قاعدة لها في عملية الاستعمار الضخمة التي قامت عليها النهضة ، تختلف اختلافا واضحا وجذريا مع مقومات الفكر العربى الاسلامى الذى لا يرى فوارق بين السود والبيض ، وإن أكرم الناس هو أبقاهم وإن تميزهم إنما يكون بالأعمال والقدرات وموازين الأخلاق والقيم لا بالألوان أو الأجناس ، ولذلك أنكر الفكر العربى الاسلامى النظرية العنصرية وحاربها .

وإذا كانت الوثنية قد امتزجت بالمسيحية (كما يقول ديرير في كتابه بين الدين والعلم) فإنه نتيجة لذلك — وعلى حد قول ديرير — قد نشأ دين جديد تمتزج فيه الوثنية بالنصرانية . وعنده أن الامبراطور قسطنطين حاكم روما وأول نصير للمسيحية قد عمل على مزج الوثنية بالمسيحية ، لمصلحة الحزبين المتنافسين (النصرانى والوثنى) وذلك رجاء التأليف بينهما ، وأن المسيحية النبرية كانت تحكم بالقانون الرومانى ولم تستمد شريعتها من التوراة . وتتمثل الصورة التي عرفها التاريخ كلها في فرض الكنيسة للضرائب الفادحة ، واحتجاز ملكوت السماء لأولياهم والتمذيب والحرمان لكل دعاة العلم النظرى والتجربى أمثال جرادنو برونو وكوبر نيكوس وجاليلو ، والحق أن هذه الصورة ليست مستمدة من المسيحية الأصلية ولكنها مستمدة من المفاهيم الرومانية .

فإذا أضيف إلى هذا مفاهيم النزعة الرومانية فى الاغراق إيماننا بالمادة ، وأعطاء الذائد الجسدية غايتها ، وتضخيم عالم الحس ، وإراقة الدماء والقتل والتمثيل والتعذيب ، تمثل مدى ما ورثته الحضارة الغربية الحديثة من جذور الحضارة الرومانية .

٣ - المسيحية « الغربية »

تمثل « المسيحية » العنصر الثالث من عناصر الفكر الغربى ، فقد امتدت المسيحية السمحة التى كان مهبطها الشرق إلى أوروبا واستطاعت أن تحتل مكانا فى الدولة الرومانية حين أعلن الإمبراطور « قسطنطين » اعتناقها فأصبحت دين الدولة الرسمى . وذلك بعد صراع طويل واجهت فيه المسيحية العسف والاضطهاد والاستشهاده .

غير أن الفكر الغربى لم يتقبل المسيحية كما جاءت من الشرق ، وكان للعقل الغربى بمكوناته الأصلية قدرة خارقة على امتصاصها وتحويلها إلى كيانه الوثنى الأصيل ، ومن ثم امتزجت المسيحية بالوثنية الإغريقية فكان من هذا المزاج ما عرف من بعد باسم « المسيحية الغربية » . ثم لم يلبث الفكر الغربى أن واجه عصر النهضة وهنا تحول تحولات كثيرة غيرت مفاهيمه إزاء المسيحية بل إزاء الدين بصفة عامة . فقد كان تأثير الفكر الغربى بالفكر العربى الإسلامى فى أوائل عصر النهضة عاملا من العوامل الضخمة التى أثرت فيه وحولته عن اتجاهه الأصيل .

كان لسريان الفكر العربى الإسلامى فى دم الفكر الغربى أثره البعيد المدى فى (١) قيام نهضة الإصلاح التى حمل لوائها لوتر وكلفن ومن بعدهما . فقد كانت المسيحية بالصورة التى عرفها الغرب مجموعة من الوصايا ، ويمكن القول بأنها كانت « نظاما روحيا وإرشادا خلقيا » دون أن يكون لها أساس واضح فى التشريع والاقتصاد والسياسة كما تتمثل الإسلام « دين وحضارة ونظام مجتمع كامل » ، والسرى فى هذا أن نظامها كان موجودا فى اليهودية ، إذ المعروف أن المسيحية جاءت تحمل الروح لمادية اليهودية . وطاعت لتكسر من حدة القسوة التى عرفتها اليهودية ، فجاءت المسيحية تحمل كلمات السلام والبر والخير والتسامح . ومن هنا كان وصف الغربيين لها بالسلبية والنسك والاتجاه إلى الآخرة دون الدنيا ، وقد هاجمها على هذا النحو أعلام الفكر الغربى أمثال : رينان ونيتشة وسفيتزر .

وقد صاحب المسيحية أول ظهورها في الغرب الخلاف الطبيعي في الرأي واصطدمت بالتحليلات والتأويلات في مسائل الآلهة والروح ، مما كان لابد معه أن تؤسس كنيسة تصرف الرأي في أمر كل هذه المناقشات والمجادلات . غير أن هذه الكنيسة لم تلبث أن أصبحت هي أبرز ما في المسيحية الغربية ، وأصبح لها سلطانها القوى الضاغط الذي اختفت وراءه حقيقة المسيحية ، ثم ساد سلطان الكنيسة حتى أصبح عنيفا رهيبا على النحو الذي تصوره كتب التاريخ .

ولم يقف هذا السلطان عند حد فرض الضرائب الفادحة وتأييد نفوذ الإقطاع ، بل أنه امتد إلى حد قتل حرية الرأي وإعدام كل من يقول برأى جديد يخالف رأى الكنيسة التي كانت تتمثل في سلطان الكهنوت كما حدث لجاليلو وغيره ومن هنا كانت ثورة «لوتر» تستمد أسسها من مفاهيم الفكر الإسلامي العربي .

(٢) ظهور المدرسة « الرشدية » التي استمدت من ابن رشد مفاهيمه الحرة وفلسفته العربية الإسلامية التي هزت أركان العقيدة المسيحية والفكر الغربي كله ودفعته دفعة قوية إلى التحرر والانطلاق وكسر قيود الجمود الكنسي .

وبهذا يمكن القول دون أن يتجاوز ذلك نطاق البحث العلمى أنه قامت فى أوربا ما يطلق عليه « المسيحية الغربية » .

ولطالما واجه الباحثون الغربيون الماديون فكرة استيراد الغرب للمسيحية بازدراء عجيب كأنما عز على الفكر الغربى أن يلقح بأثر من آثار الفكر الشرقى الذى لم يولد فى غير بيئتهم . يقول إسماعيل أدهم أحمد (وهو مستشرق مسيحى روسى تركى الأصل) : قامت المدينة الرومانية على تراث الإغريق ، غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما وهبت عليها حاملة معها نزعات المنطق الآسيوى ، والروح الشرقية ، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها وتمثلتها . وكان فى هذا الابتلاع والامتصاص والتثليل بعض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية ، ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للكثير من التفاسير ، مرنة بطبيعتها غير حاملة فى طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة ، لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائعه التى هبت بها على أوربا .

ولقد نضب معين مدينة رومية لعوامل داخلية فهاجمها البربر من الجرمان والصقلب والسلاف والهون ، وسقطت امبراطورية الرومان على ضفاف التير ، فكانت عصور ظلام فى أوربا ، غير أن الشعوب البربرية التى ورثت امبراطورية الرومان احتفظت بالكثير من نظم الرومان وعاداتهم وكان ذلك مقدمة للعهد الاقطاعى .

ثم طفت موجة العرب على الغرب غير أن الغربيين نجحوا فى وقف الموجة العربية عند تقاوم أمرها ، وكان نجاح شارل مارتل على العرب على نهر اللوار كنجاح الاغريق على الفرس سببا فى إنقاذ العقلية الغربية من روح النسك الآسيوية .

فى ذلك الوقت كانت العقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت السكسنى الذى قام بروما رقبيا على النفوس والعقول ، محملا بكل سيئات روح النسك الآسيوية .

غير أن العقلية الجرمانية لم تر في رقابة روما وتسلط البابا إلا روحا آسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربى فعملت الجهد على تقطيع أوصالها .

وبدأ عهد الإصلاح بالصراع بين الذهنية والجرمانية الخالصة ممثلة العقلية الأوربية وبين العقلية البابوية التى تحمل فى طياتها شيئا من روح النسك الآسيوية . . . » .

ومعنى هذا الفهم للعلاقة بين المسيحية السمحة والغرب ، هو أن الفكر الغربى فى استعلائه بجوهره الوثنى الستمد من الفكر اليونانى والرومانى قد استطاع أن يقاوم المسيحية ولا يستسلم لها وحاول أن يحورها ويحولها إلى شىء آخر ، ثم لم يلبث أن تخلص من المسيحية نهائيا .

* * *

ومن هنا لم تكن المسيحية فى الفكر الغربى هى المسيحية السمحة التى عرفها الشرق وإنما هى مسيحية أخرى صنعها العقل الأوربى فكانت مزيجاً من الوثنية والمسيحية .

ثم لم تلبث أن مررت المسيحية الغربية بالمرحلة الدقيقة الخطيرة حين حمل عليها العلم التجريبي وأقصاها نهائيا من مجال الفكر الغربى حين وقفت فى وجهه وحاربت مقدراته واكتشافاته ورأت فى نور العلم ما يصرع سلطانها الكنسى وتقوذاها القائم على استسلام العقل الغربى .

ومن نظرة الفكر الغربى للمسيحية التى قاومت العلم وحملت لواء الاستبداد وحمت الإقطاع والأمراء وأثارت روح الإرهاب والتسلط ، كون نظرتها لا إلى المسيحية وحدها بل إلى « الدين » بصفة عامة .

ثم لم يلبث أن طبق هذه النظرة على الإسلام فكان ذلك مصدر خطأ الذى لا حد له . فليس الدين هو المسيحية وحدها وليس الإسلام دين فحسب ، وإنما هو دين وفكر وحضارة ونظام مجتمع .

وإذا قيل « الدين » فهو فى منطق البحث العلمى ذلك الجانب الروحى الذى يتصل بالأنوهمية والتوحيد ويربط بين الإنسان وخالقه وقد كان هذا الجانب فى مسيحية الغرب مضطربا على النحو الذى تكون به حين أضاف روح الوثنية واستمد من أساطيرها .

أما الإسلام فإنه يجمع إلى جانب الدين الذى يمثل علاقة الإنسان بربه ، جوانب أخرى تتعلق بالعلاقات والروابط الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والدولية .

ومن هنا اختلف الفكر العربى الاسلامى فى جذوره ومقوماته وأساسه عن الفكر الغربى ، فقد أمدّه الاسلام بنظام كامل فى هذا المجال ، ورسم له إطاراً كاملاً للحياة مجتمع ومعاملاته فى مختلف جوانبه ، بينما لم يجد الفكر الغربى هذا فى المسيحية فكانت نظرتة إلى الاسلام على أنه دين نظرة قاصرة ، إذ أن الاسلام جمع بين جابين : الجانب الروحى أو اللاهوتى وهو ما يطلق الغرب عليه كلمة «دين» والجانب الاجتماعى المتصل بالحياة والسياسة والفكر والأخلاق ، ومن مزيج هذين الجانبين قامت الثقافة العربية الاسلامية وأنشئت الحضارة العربية الاسلامية .

وعلى هذه الفوارق الجذرية يقوم جوهر الخلاف بين الفكر العربى الاسلامى والفكر الغربى عميقاً بعيد المدى ، ومن هنا يبدو ضلال القول الذى يقول «إن شأن الاسلام^(١) فى الشرق شأن المسيحية فى الغرب لم يغير العقلية » . وإذا كان هذا القول قد صدق بالنسبة للمسيحية فى الغرب فإنه لم يصدق بالنسبة للإسلام فى الشرق ، ذلك أن المسيحية كانت عند الغرب طامعاً روحياً وإرشاداً خلقياً ولم تكن نظام مجتمع متكامل فيه أساس التشريع والاقتصاد والسياسة كما فعل الإسلام .

* * *

غير أن الفكر الغربى فى تطوره بعد النهضة من العقلية إلى التجريبية وقد نحا المسيحية عنه وصرفها وانخلع عنها على ذلك النحو العروف ، ظل يحمل فى أعماقه الخصومة العميقة والتعصب العنيف للفكر العربى الإسلامى .

لقد ثار الفكر الغربى على المسيحية وسيطرتها وتعسف كهنتها (على حد تعبير أنيس صايغ) ولكنه جعلها معقد الخصومة بينه وبين العالم الإسلامى . فكانت حملاته الضخمة على الإسلام وفكره ولغته وكتابه باعتباره المقوم الأصلى الذى يعطى العالم الإسلامى قوة

(١) وردت هذه العبارة فى كتاب مستقبل الثقافة للدكتور طه حسين .

المقاومة للاستعمار الغربى ، فكان اندفاعه فى القضاء على مقومات هذا الفكر عملاً رآه ممهداً أساسياً لبقاء سيطرته .

وقد تطورت هذه الحركة من التبشير إلى التغريب إلى دعوة الشعوبية والغزو الثقافى فى مراحل متعددة خلال أكثر من مائة عام ، ولكنها ظلت تحمل فى أعماقها كلمة جمال الدين الأفغانى التى ما زالت تدوى فى آذان العالم الإسلامى كله منذ مائة عام :

« لم تبرح الروح الصليبية كامنة فى قلوب أهل أوربا حتى اليوم كما كانت كامنة فى قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية (الغربية) لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها متغلغلاً فى أحشائها وهى أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العدااء والحقد والتعصب المقيت » .

وهذا يختلف اختلافاً جذرياً مع موقف الفكر الإسلامى من المسيحية وهو موقف التقدير والترابط الزمنى والإعتراف بها كمرحلة على طريق الإنسانية وإعزاز رسولها وتكريم معتنقيها والتآخى معهم .

* * *

وقد بدت هذه الروح فى الحروب الصليبية، ثم ألقى اللورد اللبى ١٩١٨ فى فلسطين كلته المدوية وقال : « الآن انتهت الحروب الصليبية » دليلاً على أن الاحتلال الغربى للعالم الإسلامى كان امتداداً للحروب الصليبية التى ظن أنها انتهت منذ ثمانية قرون والتى عرف من بعد أنها كانت مستمرة فى حركة التفاف ضخمة حول العالم الإسلامى . وأن نهايتها هى سقوط العالم الإسلامى كله تحت سلطان الغرب .

وقد هاجم المفكرون الغربيون « المسيحية الغربية » هجوماً عنيفاً ومع ذلك فقد اسمت حضارتهم واتسم فكرهم باسمها ، كما ظهرت دعوات مختلفة لتحريرها وتحويرها ، وقد حملت هذه الدعوات فكرة تصادم الدين مع العقل فى المسيحية . كما هاجم كتاب الغرب دعوتها إلى السلام والرحمة والحنان . وكان فى مقدمه هؤلاء نيتشه : ثم كانت الماركسية حملة ضخمة على المسيحية الغربية والدين كله . وقد وصفها كارل ماركس بأنها « ديانة الكلاب الضالة الضائعة » .

وكما ذكر الغرب كلمة « القرون المظلمة » كان هدفهم منصباً على المسيحية الغربية

يقول سلامه موسى : كلما ذكر الانسان القرون الوسطى خطر للذهن تسلط الكنيسة على التفكير وحجرتها على الحرية الذهنية . وليس شك من هذا التسلط وهذا الحجر ، فنذ القرون الأولى للمسيحية أخذ الناس يدرسون لغاية واحدة هي خدمة الدين . ولقد أصبح الرجل المثقف راهباً ، وهو يفعل هذا لأن الكنيسة تمنحه من درس الطبيعة والعلم .

وإذا كنا في حاجة إلى أن نستشهد بموقف المسيحية الغربية من العلم وحرية الفكر فإننا نستشهد برجل من أشد المسيحيين إيماناً بالمسيحية والفكر الغربي معا حتى لا يرى رأينا بالغلو أو التحيز : يقول سلامه موسى : « أنت ^(١) » عند ما تقرأ الانجيل تجد أن المسيح لم يكن يقصد إلى وضع نظام كنسى جديد له كهنة وحكومة ، وأن المسيح الصادق في نظره هو الذى يدخل غرفته ويصلى لربه . والحق أن لهجة المسيح كلها توهم القارئ أن يوم القيامة قد أزف فليس هناك ما يدعو إلى إيجاد نظام وحكومة ، وإنما يجب على الناس أن يعيشوا في سلام ، . . . ولكن المسيحية نشأت في حضن اليهودية وعاشت مدة غير قصيرة والمؤمنون بها يعتبرون أنفسهم يهوداً لهم مذهبهم الخاص ، ولذلك جرت المسيحية في نظامها على ما رأت من النظم اليهودية فصار لها كهنة ، وكان هؤلاء الكهنة هم المضطهدون للعلم والفلسفة مدة ألف عام تقريباً ، فالكنيسة اضطهدت العلماء والمسيح الذى كان يطالب من المسيحي أن يدخل غرفته ويقفل على نفسه ويصلى ، لم يفكر قط في إنشاء كنيسة وإقامة كهنة عليها . وإنما جاءت هذه الفكرة من « بولس » ، فالمسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول للميلاد هي مسيحية بولس وليست مسيحية المسيح . وتقول بعبارة أخرى أن الدين للمسيح وأن الكنيسة لبولس . وأن الدين إذا كان قد عاق العلم أحياناً ببعض عقائده فإن الكنيسة هي التى اضطهدت العلماء .

ولما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية في ذلك الوقت من تلك الأديان ومازلنا نحن المصريين نعرف في المسيحية فكرة الثلاث : الآب والابن والروح القدس . وأنها هي الفكرة التى كانت فاشية عند المصريين باسم أوسوريس وإيسيس وهورس .

ويقول سلامه موسى : إن الكهنة رأوا أنهم أمام تيار قوى من الثقافة — في أوائل

الأنهضة — يكاد يطمو بهم ويفرقهم فألفوا الجامع لحرمان الناس من قراءة الكتب التي لا توافق الكنيسة على نشرها^(١) . . . ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتبع الاضطهادات التي نالت المؤلفين والطباعين من الكنيسة والحكومات ، وأشار سلامه موسى إلى محاكم التفتيش وذكر جاليلو فقال أنه لما بلغ محكمة التفتيش في إيطاليا آرائه كتبت إلى الكردينال بلارمين بأمر تأمره أن ينهى جاليلو عن هذه الآراء وفي حالة مخالفته يسجن . وسكت جاليلو لأن شيخ النار الذي أوقدت لبرونو سنة ١٦٠٠ كان لا يزال قريباً . فلما نشر جاليلو كتابه الذي وافق عليه البابا هاج رجال الدين ومنعوا نشر الكتاب وانمقدت محكمة التفتيش وحكمت عليه .

ولا عجب إذا قلنا أن المسيحية الغربية لم تحمل روح المسيحية الحقيقي ولم تعرفه ويتمثل هذا في أمرين (الأول) هذه الحروب الضخمة والمجازر الشنيعة التي قامت في أوروبا في الصراع بين البروتستانت والكاثوليك وأبرزها معركة سانت بارتلمى .

(الثاني) هذه الحرب التي شنها الغرب على العالم الإسلامي وسيطرته عليه ومحاولة سحق قيمه ومفاهيمه ومحاربة الإسلام واللغة العربية والقضاء على الفكر الغربي الإسلامي .

ذلك أننا إذا أردنا أن تتمثل المسيحية والمسيح في صورتهم الأصلية لوجدنا البون شاسعاً ، فقد دعا المسيح إلى السلام وكل ما يتصل بالفكر العربي والحضارة الغربية لا يطابق مفهوم المسيحية الحقيقي .

فليست المسيحية التي شعارها « على الأرض السلام وللناس المسرة » هي مسيحية الغرب التي شنت الحملات الصليبية على المسلمين مائتي عام كاملة (١٠٩٦ — ١٢٩١) ثم عادت تغزو العالم الإسلامي مرة أخرى باحتلال الجزائر ١٨٣٠ فالعالم العربي والإسلامي متصلاً حتى انتهت الغزوة عام ١٩١٨ حين وقف اللورد اللنبي في فلسطين وأعلن قوله : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

(١) ل احصاء أن عدد الكتب التي حرقها الكنيسة ولا تزال حتى الآن تبلغ أكثر من خمسة آلاف كتاب .

وقد عنى كثير من المفكرين الغربيين بتفسير هذه الظاهرة الذين يرون أن الخلق المسيحى قد انتهى فى الغرب ، وأنه قد ضاعت من نفوس الكثيرين الثقة بما يسمونه فى أوربا بالخلق المسيحى ، فقد أنهار هذا الخلق فى كثير من البلدان^(١) ، وفى هذا قول برتراند رسل : إنه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد واحد ، هذا الفرد مات على الصليب .

* * *

ويقول سبنسر فى حديث له مع الشيخ محمد عبده : وقد أكد كثير من الباحثين أن الفكرة الرئيسية للمسيحية كما حاولت أن تصورها الكنيسة لا تمثل حقيقة هذا الدين « وخاصة ما يتعلق بالخطيئة التى تنسب إلى آدم ويحمل الإنسانية من الأذى إلى الأبد مسئوليتها » .

وقد أفاض الباحثون فى القول حول وثنية المسيحية أو امتزاج الوثنية بالمسيحية فى الفكر الغربى ويرى إسماعيل أدهم : أن العقل الأوروبى لم يلبث حين تفتح فى عصر النهضة أن رفض الدين المسيحى كله وأن أوربا قد عادت من جديد إلى حالتها الأولى من الوثنية وخلقت آلهة جديدة تسميها تارة العقل وأخرى العلم وأخيرا الإنسان ويقول « عادت عقلية أوربا وحضارتها إلى جذورها الأرضية وقطعت علاقتها الروحية بالسما » .

ومن ثم اصطفت المسيحية بلون الفكر الإغريقى فى طابعها الوثنى الأسطورى ، المتمثل فى الطلاق الجنىسى والفراش .

ويقول أنسى الحاج أن المسيحية كما طبقت كانت إغريقية رغم ما فيها عبريات . ولذلك فإن المسيحية لم تكن ثورة وإنما كانت امتداداً وانتعاشاً لحضارة سابقة ، لذلك لم تر مانعا من أن تقتبس الكثير من الوثنية .

أساس الفكر الغربي

« مادة الحياة والتربية والجنس »

يقوم الفكر الغربي أساساً على الوثنية الإغريقية + النظرة الرومانية إلى الإنسان (كل ما عدا روما عبث) + المسيحية المستوردة من الشرق (المسيحية الغربية) .

فقد كانت المسيحية التي بزغت أضواءها في الشرق قد عبرت إلى أوروبا ، ما تزال نظرة العقل الأوربي إليها تتمثل في نظرتها إلى الوافد الغريب بينما ظلت نظره إلى تراث الإغريق على أنه المنبع الأصيل ، لذلك فهو لم يتقبلها ككل ، وإنما قبل منها ما وافق مزاجه الوثني وإضافه إلى الأصل ، ومن هنا نشأ مزاج أغريق روماني مسيحي للفكر الغربي . ثم كان للنهضة العلمية التجريبية أثرها البعيد المدى في بروز النزعة المادية الخالصة التي لم تلبث أن حاربت الدين وأقصته عن مجال الفكر ، وأصبحت هي القاعدة الأساسية لهذا الفكر بظهور نظرية دارون وتأصلها . فقد أصبحت النظرة المادية بما تحمل من معنى التطور وحيوانية الإنسان مصدر كل نظريات الغرب وفكره في مجال النفس والاجتماع والفلسفة والأخلاق والاقتصاد والأدب والتربية .

ثم لم يابث هذا الفكر أن تولدت منه النظرية المادية الماركسية فأصبحت الشق الثاني له . وهنا تمثلت أسس الفكر الغربي في (١) إلغاء فكرة الألوهية والدين (٢) مادة الحياة (٣) حيوانية الإنسان وإطلاق غرائزه .

ويمكن القول بأن أبرز النظريات ذات الفعلية في الفكر الغربي هي :

- × نظرية المادية التاريخية (ماركس) .
- × نظرية العدم (الوجودية) .
- × مادة السلوك والتربية (جيمس وديوي) .
- × نظرية الجنس (فرويد) .

١- المادية التاريخية : ماركس

كان ظهور « الماركسية » إيذاناً بانقسام الفكر العربى وتمزق جبهته ، وإن كان هو أساساً وليد هذا الفكر ، قام على أسسه المادية والدارونية وعلى نظراته إلى الله والسكون والتطور وإن اختلفت نظراته إلى الإنسان والمجتمع . وهو نفس الخط الذى سار عليه من بعد فرويد، وهو إزلال الإنسان من مجال إنسانيته وتعريفه مضافاً إليه نظرة التفسير المادى للتاريخ الذى يستمد الأسباب والمسببات من الاقتصاد وحده. ويرى ماركس أن التاريخ يمثل صراعاً عنيفاً بين الطبقات ، سواء فى ميدان السياسة أو الدين أو الفلسفة أو الاجتماع فهو يرده جميعاً إلى الاقتصاد والمادة ، ولا شك أن نظرة ماركس فيها شيء غير قليل من الحقيقة التى اكتشفها من قبل ابن خلدون ونماها كثيرون قبل ماركس حتى وصلت على يديه إلى هذا الحد ، غير أنها فى نظر الفكر العربى الإسلامى لا تمثل الحقيقة كاملة ، فليس الاقتصاد والمادية هى المصدر الوحيد لكل دوافع التحول فى التاريخ وإنما هناك عوامل أخرى روحية ومناخية ، وتقوم الماركسية التى هى فلسفة اقتصاد وسياسة ومجتمع على تغليب المادة واسقاط الدين فهى ترى أن المادة أصل كل الأشياء وأنها تسبق الفكر ، بل أن الفكر والروح وعندها هو تطور المادة إلى أعلى درجات التطور .

وعندها أن الدين هو مظهر عجز الإنسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الاقتصادية ، وأنه يوم يجد الإنسان الطمأنينة على رزقه وحياته سيختفى الدين وستنقضى الحاجة إليه ، ولا تنادى الماركسية باضطهاد الدين أو القضاء عليه ولكنها تقول بسحب الأرض من تحته بالقضاء على الأسس المادية والمعنوية لوجوده .

ويرى ماركس أن التاريخ العام للبشرية يسير وفق حتمية عبر العنصر الصناعى . هذه الحتمية التاريخية نفسها هى التى تحفز العمال إلى أن ينتزعوا الدولة من البرجوازية شيئاً فشيئاً بالطرق الدستورية ، ولما كان فعل التاريخ والطرق الدستورية بطيء فلا بد من الاسراع فى تطوير التاريخ ومساعدته وذلك إنما يكون بثورة العمال ضد البرجوازية لانتزاع الدولة . ويرى ماركس بأن الأحوال الاجتماعية فى الأمة ليست سوى المظهر الخارجى لنظامها

الاقتصادي وأن الظروف والقوى التي يخضع لها الإنسان لتأثيرها هي بدورها تخضع لتأثير فعل الإنسان نفسه . وحتمية التاريخ الذي نادى به ماركس هي الحتمية التي تتحقق بسيادة الطبقة العاملة (البروليتاريا) .

وبالجملة فإن فلسفة ماركس تقوم على (١) حقيقة العالم تنحصر في ماديته (٢) لا إله والحياة مادة (٣) الدين أفيون الشعوب (٤) القيم مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي وهي غير ثابتة (٥) الدين أسطورة ابتدعها أصحاب المصالح (٦) تفسير الحياة الإنسانية من خلال التفسير المادى (٧) إغفال القيم وأثرها في الحياة وفي توجيه سلوك الناس (٨) اعتبار القيم الأخلاقية قيا متطورة لا ثبات لها .

* * *

وقد استطاعت فلسفة ماركس بتطورها وتحولها إلى نظام اقتصادى واجتماعى يتمثل في الدولة البلشفية التي قامت عام ١٩١٧ في روسيا أن تقسم الفكر الغربى إلى قسمين : فكر غربى مادى وفكر ماركسى ومن ثم برزت خلافات كثيرة بين الفكرين بالرغم من امتدادهما من الأصل المادى الصرف .

ويرى أرنولد توينبى أن الماركسية إنما تمثل « أزمة » في الفكر الغربى المسيحى وعندنا أنها وليدة الفكر الغربى وثمرته وتحول طبيعى في مجراه ، فقد كان من الطبيعى أن ينبثق من أعماق الرأسمالية في عنفها وجوحها وضخامة ثرواتها دعوة تحمل لوائها الطبقة التي تعمل في الصناعة وأن تسعى هذه الطبقة إلى السيطرة على مصادر الانتاج ، وإذا كانت الرأسمالية تمثل طرف الخيط فإن الماركسية تمثل طرف الخيط من الناحية الأخرى ، وأن كلا المذهبين الاقتصاديين لابد أن يصدر عنه مع تطور الزمن وفي ظل حركته الدافعة مزيج وسط يتمثل في طور « الاشتراكية » .

غير أن الفكر العربى الاسلامى وقد عرف « العدل الاجتماعى » في فلسفته الأساسية يرى أن الفكر الغربى ما زال يجرى على طريقته في التجربة والخطأ في الدرب الطويل إلى السكمال ، بينما لا يرى الفكر العربى الإسلامى جديداً في مفهوم العدل الاجتماعى والاشتراكية باعتبارها مقوماً أساسياً وجذرياً في أعماق فكره .

وفي ظل مفاهيم « الفكر العربى الاسلامى » الذى يمزج بين المادة والروح في قاعدته

الأساسية تبدو مادية النظرة إلى التاريخ وليست هي العامل الوحيد في حركة التاريخ ، فليست العوامل المادية هي وحدها مصدر تحركات الانسانية وتطورها ، وأن ثمة عوامل مختلفة ومنها الدين لها أثرها بجانب الأثر المادى .

أما الماركسية فهي تطور فلسفى طبيعى على النحو الذى سارت عليه الفلسفة الغربية في قيامها على مراحل وطبقات، وهى مستمدة أساساً من نظرية هييجل التى تمثل تياراً من الفلسفة لغربية التى تحمل أساساً وجهات نظر كثيرة حول تفسير التاريخ تختلف عن نظرة ماركس المادية. وفي مفاهيم فكرنا العربى الاسلامى أن الاقتصاد يمثل جانباً من جوانب تفسير التاريخ وأن هناك جوانب أخرى ذات تأثير لا يمكن إغفالها كالعوامل الفكرية والروحية ، والنسبى كان لها فى الأغلب قوة العامل الحاسم .

ولا شك أن التاريخ من صنع البشر الذين يتأثرون بعوامل كثيرة مختلفة، ولا يمكن إنكار الدور الذى تقوم به الشخصيات التاريخية العظيمة ، بالإضافة إلى دور الجماهير والطبقات الشعبية فى هذه التحولات . ولا يمكن إنكار أثر الشخصية التاريخية التى تتقدم شعبها وتقوم بعملية التنوير فالتغيير النفسى الذى يكون مقدمة للتحول .

هذا فضلاً عن أن حتمية التطور التاريخى للانسان لا يمكن أن تسير فى طريق مسدود بين الرأسمالية والشيوعية . ولا شك أن الفكر الانسانى أرحب من هذه الدائرة المغلقة ، ومن رأى الكثيرين أن النظرية الماركسية بتطورها اللينى والبلىشى ليست هى نهاية الفكر الانسانى ولن تكون .

أما « الدين » الذى تنكر النظرية الماركسية فاعليته فقد لعب أدواراً إيجابية فى تاريخ الانسانية كان لها أثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى البعيد المدى ، ولا يزال الدين قادراً إعطاء الانسانية وإعطائها ما ينقصها من المفاهيم الروحية والفكرية والنفسية ولا تزال رسالة الدين قادرة على رد الانسانية عن هذا القلق والتفكك والضياع الذى تسير إليه بقدوم ثابتة .

وقد ظهرت قبل الماركسية نظم سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة تحدث العقيدة الدينية واتهمتها بتعويق التطور والنهضة ، ثم اندثرت تلك النظم أو تطورت إلى نظم

أخرى ، وبقيت العقيدة كامنة في قرارة السلوك الانساني تحفظ الحياة وقيمها الرقيقة في خضم
القلق والثورات والحروب . وتلهم الناس أسباب الطمأنينة والثقة بالعدالة الالهية
والاستقرار النفساني الاجتماعي .

* * *

وقد قسمت الماركسية الفكر الغربي إلى شطرين يتصارعان اليوم في ميدان السياسة
والاجتماع للاختلاف الجذري بينهما حيث تختلف مفاهيم المادية الغربية والماركسية
في مختلف المجالات .

وبالرغم من تحول التطبيق البلشفي والشيوعي عن مفاهيم ماركس فما تزال نظرية
ماركس تمثل قطاعا من الفكر الغربي المعاصر بمنزلة عنه ومتصلا به ، فهي على خلاف
مع النظرة المادية الغربية ، ثم مع الوجودية أيضا ، ونحن على ضوء فكرنا العربي
الاسلامي ننظر إلى هذه المذاهب كلها نظرة واضحة : أنها تجارب وتطورت من أجل البحث
عن الكمال في المجتمع الغربي الذي يحاول منذ عصر النهضة إلى الآن رسم منهج كامل
للإنسان والمجتمع وما زال يجري تجاربه منتقلا بين الديمقراطية والديكتاتورية والنازية والفاشية
وبين الرأسمالية والشيوعية .

أما نحن فلنا أساس فكرنا عن الله والإنسان والكون . وعلى ضوء هذا الأساس
ننظر بفكر متفتح إلى كل هذه التجارب ونأخذ منها وندع ، نأخذ منها ما يعطى شخصيتنا
قوة وحياة وتطوراً واستمراراً في الحركة موكب الإنسانية .

ومهما يقول الذين ينظرون إلى علاقة ماركس بنظريته في ضوء نفسيته حيث نجد رجلا
يهوديا عاش في جو صراع واضطهاد عنيف لليهود فترك اليهودية إلى المسيحية ، وتأثرت
نفسيته بخصومة شديدة للفكر الغربي ومفاهيمه ، هذه المفاهيم التي غلبت عليها طابع الرأسمالية
وأنه كان يحاول هدم هذا النظام وتدميره .

وإذا كان ماركس شأن بني جنسه يعيش في عزلة تامة عن المجتمع مما يدفع علماء النفس إلى
إتهام ماركس بأنه كان منجسفا أنانيا موسوسا بالغرور والحقـد والغيرة . يحدد على
المشهورين ويتعنى أن يكون ذائع الصيت ومن هنا أخذ وجهة نظر جديدة مثيرة تحمل لواءها
ودعا إليها مهما يكن من قيمة لهذه الآراء ، فإن نظرية ماركس كانت ذا أثر عميق وبعيد المدى
في الفكر الغربي خاصة والفكر الإنساني عامة . وفي بروتوكولات صهيون تصوير آخر
لفلسفة ماركس .

٢- نظرية العدم (الوجودية)

دفعت الحرب الفكر الغربي إلى التطرف في نزعة المادية ، وأعطته روح القلق والضياع . فقد كان لسقوط أكثر من عشرة ملايين في الحرب الأولى وضعفها من الملايين في الحرب الثانية أثره البعيد المدى في النفس الإنسانية وبالتالي في الفلسفات والمذاهب السياسية والاجتماعية . فقد زادت فكرة التحلل من القيم والاندفاع وراء الغرائز وإطلاق اللذات والشهوات والجنس على النحو الذي كشفت عنه هذه الفلسفات : السريالية والوجودية، وقد تناول الباحثون الاجتماعيون هذه الظاهرة بالدرس ، فكشفوا عن أن الحرب قد خلقت في أوروبا مدرسة فكرية يطلق عليها مدرسة ما بعد الحرب وهي مدرسة الهزائم والانهيارات والكوارث ، وقد تحولت مثلها العليا إلى أشباح . وفي هذا يقول فولنجانج بورخرت « إننا جيل بلا أمل ، جيل بلا عمق ، وبلا مستقبل . إن عمقنا هو الهاوية وحبنا هو الوحشية ، وشبابنا بلا شباب ، وحياتنا علب من الورق ، فارغة وقابلة للتمزق » .

ويرى بعض الباحثين « أن الوجودية ليست إلا تعبيراً عن هذا الانحراف، فإن شباب أوروبا لم يجد غير اليأس والفراغ والضياع ، واليأس مريح والأمل فم لا يشبع ، هذا الشباب الذي لم يثق بأحد ولا بأي شيء كبير على حد تعبير سارتر . أو ما عبر عنه مارسيل جبريل حين قال : إن الناس يعيشون في ذلك التفريغ الخاطف القاتل الذي يحدثه انفجار قنبلة كبيرة ، وعنده أن « الحياة حطام : الوحدة والعزلة والسلبية » والواقع أنه في ظل نهاية الحرب الأولى والثانية ظهرت فلسفتي السريالية والوجودية .

ظهرت السريالية على أثر الحرب العالمية الأولى وابتعثت الوجودية على أثر الحرب العالمية الثانية . والسريالية تستمد فلسفتها من مذهب فرويد الذي يرى « أن الإنسان في جوهره حيوان كغيره من الحيوانات وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هي الأساس المادي لسلوكه في الحياة ، غير أن ضروريات الحياة الاجتماعية وما صحبها من ديانات وفلسفات أخلاقية قد حتمت تنظيم هذه الغرائز والميول والحاجات ، وأن خضاعها لا مفر منه

لكي تستقيم الحياة الاجتماعية ، وكثير من هذه القيود يؤدي إلى كبت تلك الغرائز والميول والحاجات التي تنتقل من عقلنا الظاهر إلى عقلنا الباطن لترسب في جب سحيق داخل النفس البشرية ، ومن داخل هذا الجب تبرز من جديد تلك المكبوتات كلما سنحت لها الفرصة « ومن هنا أطلق على «السريرية» مذهب ماخلف الواقع ، فهي بهذا الفهم تعمل على تسجيل ما يرد على الخيلة من صور على أساس أنها منبعثة من العقل الباطل ، بصرف النظر عن جمال هذه الصور أو قيمتها أو مطابقتها للمقاييس الاجتماعية أو منافرتها لها .

وهم يعتقدون أن الفن الصحيح هو رسم الانعكاسات التي تتولد نتيجة التفاعل القائم بين نضالنا الخارجى وذاتنا المجردة بعيدا عن دائرة المنطق أو توجيه الفكر^(١) .

ولا شك أن هذه النزعة الفكرية المنحرفة عن أصول الفن نفسه لا تمثل إلا مرحلة معينة هي مرحلة الاضطراب النفسى الذى عم الغرب بعد الحرب العالمية الأولى والفرع من نهاية الحياة المتمثلة في فناء الجنس البشرى ، ومن هنا فهي دعوة إلى الإسراع بالاندفاع نحو المتعة وإطلاق قيود الغرائز والسخرية بالدين والقيم والأخلاق حيث أنها لا تحول دون فناء البشرية .

أما الوجودية : فقد برزت بعد الحرب العالمية الثانية كرد فعل لأزمة شك في الأخلاق والروحية وقد عجزتا عن أن يحولا بين البشر وبين النتائج الخطيرة التي واجهتهما البشرية من الحرب ومن ثم فهي ترى أن الدين والأخلاق والقيم قد فشلت . ويذهب الوجوديون إلى أبعد مدى في إنكار هذه القيم فينكر سارتر فكرة « الاله » ذاتها .

والوجودية نظر بعض الباحثين ليست إلا بمثابة احتجاج الفرد على طغيان الجماعة وتهوينها من شأن الاستقلال الفردى في الحركات الاجتماعية ، وتقوم الوجودية على النظرة المادية الخالصة ، بل على النظرة الماركسية أيضا ، فيقول سارتر أننا نعيش في المادة فيجب أن نخضع للطبيعة ونتركها تفعل ما تريد .

وترى الفلسفة الوجودية أن العالم هو كل شيء ، وهو الحقيقة الوحيدة ، وعندها أن الإنسان هو أرق الكائنات ، لهذا ينبغي أن يتمتع بوجوده كل الاستمتاع ويطلق لحيته العنان فيحقق ذاته ، باعتباره إله نفسه ، وسيد كيانه .

وقد صورت الوجودية موقفها من فكرة الألوهية في هذا النص من قصة الذباب « لسارتر » :
« سيدى الإله : ما أن خلقتنى حتى انفصلت عنك ، وتخلّيت عن نسبتي إليك ، فأنا لم أعد ملكا لك ، وليس ثمة في السماء من خير أو شر أو إنسان يستطيع أن يصدر إلى الأوامر ، لن أعود لأخضع لشرعك ، ولست محمولا على الخضوع لغير شريعتي أنا لأننى إنسان » .

ويقول سارتر : « نحن يتامى في هذا السكون ليس لنا سند نستند إليه في تعيين الهدف ، نحن في قلق ، في حيرة » .

* * *

وبالجملة فإن الوجودية دعوة الحرية المطلقة فلا جبر ولا إزام على الأشخاص على اعتبار أنه ليس هناك سلطة غير سلطة العلم والعقل .

ويقول « ألبير كامى » وهو أحد أقطاب الوجودية أن الفكرة التى تدور حولها فلسفة الوجودية هى اكتشاف أن الحياة بلا معنى ولا هدف ، وأن العالم وجد لكي يموت فيه الإنسان وليس هناك أى نتيجة لكفاح الإنسان ما دام السكون كل جوفه صامتا .

ويقول هيدج : إن الإنسان أسقط في هذا العالم دون أن يفهم لماذا ، ودون أن يزود بشيء لا عن نفسه ولا عن العالم وعن علاقته بنفسه وبغيره .

ولكى نفهم « الوجودية » علينا أن نفهم سارتر ، وسارتر كما تصفه أقرب الناس إليه : (سيمون دى بوفوار) تقول إنه يكره الحقوق والواجبات وكل شيء رصين فى الحياة ، وهو لا يكاد يهضم أن يكون له مهنة وزملاء ورؤساء ، وقواعد تراعى وتفرض ، ولن يكون أبدا رب أسرة حتى ولا رجلا متزوجا ولم يكن سارتر يرى فى الزواج شيئا عظيما ، كان فوضويا أكثر منه ثوريا ، كان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئا محتمرا .

وبرى نقاد الوجودية من دعاة المذاهب الإنسانية أن الوجودية مذهب فلسفى مثالى له طبيعة تحليلية يعمل على تفكيك الوعى العام، وأن ظهوره فى ظروف تاريخية معينة لا يعطيه قوة الفلسفة الإنسانية الحية وأن سارتر وكامى تحت ستار فلسفة الحرية قد نشرتا تعاليم الفوضوية العقلية والخلقية واحتقار العلم والأخلاق والدين .

وعندهم أن الوجودية تختلف أيضا مع النظرية المادية التى تجمل المادة سابقة على كل شىء، والفكر جاء تاليا للمادة . وقد وضع كجورد الحقيقة الإنسانية قبل المادة لينتهى بالفردية بينما ينتهى ماركس بالمجتمع ، وقد هاجم سارتر فى قصته الأبدى القدرة : « الشيوعية » وقال « أنها آلات مسخرة وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا » .

وقد أطلق كثير من الباحثين على الفلسفة الوجودية : فلسفة العدم والضياع .

٣ - مادية السلوك والتربية : (جيمس وديوى)

تتمثل الثقافة الغربية فى تيارين كبيرين : التيار اللاتينى والتيار السكسونى . وقد تصارع هذان التياران فى الشرق العربى الإسلامى صراعا طويلا ، ثم لم يلبث أنه برز تيار جديد هو التيار الأمريكى المستمد أصلا من الثقافة السكسونية والذى لم يلبث أن استقل بطابعه المستمد من داخل أعماقه على النحو الذى تقوم عليه ثقافة الأمم والشعوب .

ولكن الثقافة الأمريكية فى أساسها « مادية دارونية » تقوم على أساس نفس النظرة المادية الغربية ، غير أنها تميزت بطابع جديد هو الفلسفة البرجماتية (الذرائع) التى ترى أساسها وقاعدتها فى أن البقاء للأصلح والحق للقوة ، وأنه ليس ما يمنع من انتهاك حرمة العدل والانصاف والفضيلة من أجل هذا الهدف ، وهى لذلك لا تؤمن بمساواة الضعيف العاجز فى الحقوق التى للقوى المتمكن .

ويرى شارل بيرنز أحد مؤسسى الفلسفة البرجماتية : أن القضاء على الضعيف وسيلة جوهرية من وسائل التقدم والرق ، وأن احترام الوالدين مثلا نظام لا تقره الثقافة البرجماتية ، والوالد لا يعترف بحق والده عليه فى الولاء أو الطاعة أو الواجبات التى تحتّمها صلة الرحم والشيخوخة^(١) ، هذا فضلا عن أن البرجماتية لا تؤمن بالنظريات الإنسانية والروحانيات . وعندها يقاس المستوى والمكانة الاجتماعية بالدخل المادى . وبنسبة النجاح الذى أصابه المرء بعض النظر عن طبيعة الوسائل التى حققه بها^(٢) . وعند الدكتور عمر حليق أن النظرية البرجماتية هى المسئولة عن رواج أدب اللذة والمجون فى أمريكا وسيطرته على عناصر الغذاء الفسكورى ، فالكاتب والفنان هناك لا يرتفعان عن ذوق السطحيين . ويرى أن الثقافة البرجماتية فى أصرارها على النواحي المادية فى السلوك والحياة الإنسانية لا تختلف كثيرا عن الفلسفة الماركسية وتفسيرها المادى للتاريخ . ومن أصول البرجمية

أن الحياة العملية المادية هي قاموس الكاتب الأمريكي وأن الفن والثقافة الرفيعة هي من قبيل الهراء .

* * *

ويجمع الدارسون لفلسفة البراجماتزم (التي هي أساس الفكر الأمريكي) على إخضاع كل شيء للعمل ، فالتفكير خاضع للعمل ، والحقيقة خاضعة للعمل ، ومقياس الحقيقة عندها هو صلاحيتها للعمل ، والمعرفة نوع من العمل . وهي تنكر وجود القيم النهائية المطلقة والذاتية وكل حقيقة عند أصحاب البرجماتزم لا تقبل على أنها مطلقة .

والبراجماتزم تعارض الدين وعقيدته في الثبات والخلود واللانهاية وتعارض القانون الأخلاقي وترى أن السلوك الخلقى شيء آخر غير الآداب الاجتماعية القائمة على العرف . وسيكولوجية البرجماتزم تعتمد على التفسير البيولوجى « الإنسان حيوان » .

* * *

أما أساس نظرية « ديوى » في التربية فيقوم على فصل الدين عن التربية فهو تلميذ للدارونية والبراجماتزم معا .

وقد أقام ديوى نظريته على أساس مادية داورن وذرائع جيمس وعنده أنه ليس في الكون شيء ثابت لا يتغير ، وهو يأخذ بالتجربة في التربية على أساس قوله « أن مجتمعنا ليس نهائيا » وهو يفصل بين الماديات والمعنويات ، ولا قيمة للأخلاق عنده ، يقول « ليست الأخلاق شيئا مطلقا وليست هناك أخلاق مثل دأمة » .

وغاية التربية عنده ليست الأخلاق وإنما الملائمة بين الفرد والمجتمع . وهنا يبدو عمق الخلاف بين جذور منهج التربية في الفكر الغربى والفكر العربى الإسلامى .

* * *

ويقوم وليم جيمس فلسفته على الإيمان بالواقع الحسى للمعوس ، والعمل عنه مقدم عن المعرفة ومن رأيه أن الشاعر تنبع من الجسد وليست النفس مصدر الشاعر .

٤ - نظرية الجنس (فرويد)

أساس رأى فرويد ونظريته : إن عقل الإنسان الذى هو مصدر سلوكه الخلقى ليس فى رأسه وإنما فى الفريرة الجنسية . ويقول : أنه إنسان تعس ، لأن أسفله أعلاه ولأن غريزته هى المتحركة فيه وإن كل القيم الخلقية والدينية التى أقرتها الإنسانية عبر القرون إنما هى عقد نفسية أو أمراض ، باعثها الأول الكبت الجنسى . ويجب التخلص منها لكي نعيش البشرية بدون قيم ولا مثل ، من رآه أن الإنسان فى جوهره حيوان كغيره من الحيوانات ، وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته المضوية هى الأساس المادى الصلب لسلوكه فى الحياة ، غير أن ضرورات الحياة الاجتماعية وما صحبها من ديانات وفلسفات اخلاقية قد حتمت تنظيم هذه الغرائز والميول وإخضاعها لقيود لا مفر منها ، وأن كثيراً من هذه القيود تؤدي إلى كبت الغرائز والميول والحاجات .

* * *

وقد وجه الكثير من الباحثين النقد إلى نظرية فرويد وأشار بعضهم إلى إن نقطة الضعف فى فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسيته وطفولته أساساً وقاعدة استهدف بها التعميم للوصول إلى قوانين أساسية .

والمعروف أن « فرويد » يهودى عاش فى النمسا حياة مضطربة مضطهدة فقد عرفت النمسا بالتعصب الشديد ضد اليهود ، ومن هنا لم تكن حياته سوىة على النحو الذى يجعلها نموذجاً صالحاً لاستخلاص نظرية سليمة فى علم النفس .

وقد حاول فرويد أن ينتقص إنسانية الإنسان بهذه النظرية حيث ركز على « غرائز الإنسان » وجعلها مقاداة ، وبذلك غلب حيوانيته أو جانبه المادى على روحه وعقله . وقد كان تأثره بدارون مصدراً لهذه النظرية بالإضافة إلى أحقاده الذاتية والجنسية على الإنسانية .

وقد أشار فرويد إلى هذا المعنى حين قال : إن الإنسان قد طعن في غروره ثلاث طعنات (الأولى) يوم عرف أن الأرض التي يسكنها ليست مركز الكون والوجود وانها لا تزيد عن أن تكون جرماً تابعا للشمس يدور حولها (والثانية) يوم أن أدرك دارون أن الانسان لا يفترق عن الحيوان في طبيعته وأن كل ما يعززه عنه هو درجه من التطور (والثالثة) يوم أن تبين بالتحليل النفسى أن وراء عقل الانسان عقلا آخر يدفعه حيث يشاء دون أن يعرف عنه شيئا .

تقوم فلسفة فرويد على (١) حيوانية الانسان (٢) الحياة النفسية للانسان تنبع من الجنس (٣) غرائز الانسان هي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه ، (٤) الروح لا وجود لها على الاطلاق (٥) القيم خرافة وهي تفاق العقل والنفس والمجتمع (٦) تفسير النفس كلها من خلال الجنس (٧) الأخلاق والدين انبثاق جنسى (٨) من عنده الجنس ينشأ الضمير والدين والأخلاق والقيم العليا في حياة البشرية .

* * *

وقد واجهت نظرية فرويد معارضة من المفكرين والباحثين ، ولم يكن ممكناً أن يكون لها هذه المكانة التي وصلت إليها لولا أن هناك قوة أخرى كانت تؤازرها وتستهدف من التركيز عليها أهدافا بعيدة المدى ترمى إلى مقاومة المفاهيم الانسانية والأديان وإذاعة الاحاد والاباحة .

فقد أثبت « يونغ » وهو زميل فرويد وضريه ، كما أثبت مكدوجل أن العقل الباطن ما هو إلا خرافة ، ونوقش فرويد في مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب فأنكرهما في آخر أيام حياته ، وقد عارضه « ادلر » في أخطر ما ذهب إليه من أن الجنس هو الدافع ، وقال أن المحرك الأول للانسان هو حب السيادة والسيطرة والنزوع إلى تأكيد كبريائه وتركيز شخصيته .

وما تزال نظرية فرويد تلقى معارضة من كثير من الباحثين كلما تقدم البحث العلمى وقد نبذ كثير من العلماء نظرية فرويد في العلاج العقل والنفسى ، وقال الدكتور ناتان كلاين أنه ثبت فساد النظرية الفرويدية التي ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية

بمحة . ومن رأى أكثر الباحثين أن هذه النظرية ليست إلا معولا هداما لعقول الشباب ونحدر مميت لنفوس الشعوب . وقد حلت نظرية (إيفان بافلوف) في الاتحاد السوفيتي محل نظرية فرويد، هذه التي تقول أن البيئة هي المسئول الأول عما يصيب الانسان من انحراف نفسي وعقلي .

وقد أعلن بعض الباحثين أن فرويد كان يتخذ نفسه نموذجا للتجربة التي يدعو إليها ولم تكن هذه النظرية قائمة على أسس تجارب متعددة أو إحصائيات دقيقة ، وقيل إن فرويد نفسه كان يمر بأزمات نفسية عنيفة . وقد أصابه الاضطراب وهو يعالج مريضة بالهوس الجنسي مصابة بمقيدة أوديب وقد تكشف له خلال ذلك أنه هو نفسه مصاب بمقيدة أوديب وأنه كان يتجه إلى أمه ويفار من أبيه وأنه اتهم أباه ظلما بجريمة أخلاقية رهيبة . ولا شك كان لتيارات « اللانسانية » في الفكر الغربي أثرها في دفع موجة التفسير الفرويدي في مجال الأدب والفن ، ثم لم يلبث أن حل علم النفس محل فلسفة الأخلاق .

مفاهيم الفكر الغربي

تمثل نظرة الفكر الغربي إلى الله والحياة والانسان في فلسفات مختلفة تصدر كلها عن مادية الفكر وتتميز بالتناقض والتعارض . وترتبط بالازمنة والأحداث والحروب . ولا تصل إلى الشمول والارتفاع فوق الأحداث والظروف .

فالماركسية ظهرت بعد أن استفحلت الرأسمالية ، والوجودية ابتعثت في ظروف نتائج الحروب الخطرة .

هذا فضلا عما وسم به كثير من هؤلاء الفلاسفة باضطراب القوى النفسية فقد حملت دراسات تراجم نيتشه وفرويد والبير كامى وسارتر كثيرا من عوامل الاضطراب النفسى الذى كانت فى الأغلب مصدر نظرتهم إلى الحياة .

ومن هنا تبدو أن أغلب هذه النظريات أو الفلسفات ليست إلا وجهات نظر فردية وشخصية لمفكرين ممتازين فى ظروف وهيئات ومجتمعات وأحوال معينة أو نتائج لخبرات ومطالعات أو أحداث عالمية أو خاصة . ومن هنا تبدو نظرتها المحدودة ، بمحدود الزمان والمكان الذى ظهرت فيه وهذا ما يجعلها تختلف عن النظريات الإنسانية الشاملة التى تبدو صلاحيتها للأزمنة والبيئات المختلفة .

وما زال الفكر الغربى يجرى عشرات التجارب فى مجال الفلسفات ونظرات الحياة فى سبيل الوصول إلى « منهج » أو « أيتوبيا » صالحة ، غير أن استمداد أسس هذه الفلسفات من النظرة المادية الحالصة قد حال دون وصولها إلى نزع إنسانية شاملة صالحة لأزمنة وأمكنة متعددة .

ويختلف الفكر العربى الإسلامى مع الفكر الغربى فى هذا المجال فى أنه يتمثل فى نظرة

قدرة امتزاج الكل وإلتقاء الأجنحة المختلفة والأجزاء المتقابلة . وبينما يتسم الفكر الغربى بروح الجزئية والجناح الواحد ، فى أقصى اليمين أو أقصى اليسار ، يحمل الفكر العربى الإسلامى طابع : الوسط ، الكل ، الإلتقاء ، الامتزاج ، ومن خلال عشرات المذاهب الفلسفية الغربية تبدو النظرة إلى الحياة معارضة لطابع الفكر العربى الإسلامى أساساً .

نخلصه مذهب «دور كايم» أن الفرد لاقيمة له ولا معنى بالنسبة للحرية الفردية وأن القيم كلها للمجتمع الذى يخلق الأديان والعقائد والآداب والقيم . وعنده أن الدين والزواج والأسرة ليست نزعات فطرية فى الإنسان ، وأن انقواعد الخلقية لا وجود لها فى ذاتها ، وقد اعتمد « دور كايم » فى مذهبه على الماركسية والدارونية معا ونقل أرائهما من مباحث الإقتصاد والعلم إلى مباحث الاجتماع والأخلاق ، وخلاصة رأى « نيتشه » هو نقض الديانات التى تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشرى وحماية الضعيف . فقد حمل على المسيحية ووصفها بالسلبية ، وقال أن أخلاق المسيحية تعارض بقاء الأقوياء (الصقور) وتصدهم عن حقهم الذى تنطق به الطبيعة ، وهو أن الصقر يجب أن يأكل المصفور .

وقد دعا نيشه إلى إعفاء الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية ووصفها بأنها أخلاق الأذلاء . وتمثل هذه النزعة المادية فى دعوة برتراندرسل إلى مهاجمة المعتقدات الدينية فهو يعلن بصراحة مريرة أنه ليس مسيحياً ويهاجم التعاليم الدينية الخاصة بالجنس ، ويرى أن تعاليم المسيحية لا تتفق مع منطق العلم ، ويقول أنه لا يؤمن بوجود حقيقة مطلقة ، ويدعو إلى التحرر الجنىسى ، أما « لورنس » فيرى أن الحضارة المدنية قد قضت على عناصر السعادة الفطرية فى الإنسان وأنه لى نسترد السعادة علينا أن نعود إلى الحياة المطلقة للفرأ ، حياة الغابة .

ومن خلال نظريات فروبند فى (النفس) ووليم جمس فى (الأخلاق) وماركس فى (المادية التاريخية) ولورنس فى (إطلاق الجنس) وديوى فى (لادينية التربية) تبدو صورة الفكر الغربى المعاصر فى أبرز مسائله وقضاياها .

* * *

ومن أبرز ظواهر الفكر الغربى موالاة التجربة فى سبيل وضع فلسفة اجتماعية صالحة

لبناء المجتمع . وقد استعرض عشرات الفلسفات في خلال أزمته الطاحنة بين الفردية والجماعية ، مما لم يحقق له بعد السعادة أو العدالة المرجاه .

ونحن في العالم العربي والإسلامي أصحاب فكر له طابعه واستقلاله ، لا نرى بأساً من دراسة هذه المذاهب والفلسفات بروح حرة قوامها فهم الفكر الإنساني والانتفاع بما فيه من جوانب القوة دون أن نكون مقلدين أو تابعين ومع تقدير كامل بأن هذه المذاهب قد قامت في ظل مناخ فكري مختلف عن نظرنا للأمر وطريقة معالجتها وأنها تستمد أساسها من واقع مقومات فكر تلك الأمم .

بل لعله ليس من العجيب أن يكون لدينا حلول لمشاكل الغرب نفسه ، تستمد أسسها من تجربة فكرنا ، الذي لم يمتنع نزعات بالقلق والحيرة ، والضياع .

بل إن مشكلة الغرب الكبرى وهي : « الفردية والجماعية » التي ما يزال يضطرب لها الغرب منذ ابتكر البخار حتى الآن ، يجد الفكر العربي الإسلامي حلها التجريبي المستمد من سلوك الإنسان وأخلاقه ومقومات فكره وروحه .

وقد عاش الفكر الغربي عمراً طويلاً وهو يجري تجربته الضخمة المتعددة المراحل في سبيل الوصول إلى ارساء قيم أساسية جديدة ، عاش منذ أفلاطون إلى سارتر يحلم ببناء المثل الأعلى في مجتمع عادل سعيد ومع ذلك فإنه لم يصل بعد .

ولو أنه نظر نظرة بعيدة عن الحقد أو التعصب إلى الفكر العربي الإسلامي لوجد فيه حاجته وحاجة الإنسانية كلها ، غير أن هناك عوامل ذات نفوذ كبير تحول بينه وبين هذه التجربة ، فإذا ما اتجه إلى الشرق باحثاً عن سناد روحي للحضارة حولت هذه العوامل وجهته إلى فلسفة الهند والصين الروحية الصرفة وتغلب ما في طريقه من جوهر الفكر العربي الإسلامي الذي تبرز فيه الروح بالمادة .

* * *

والواقع أنه لا يمكن النظر إلى النظريات والمذاهب الأفكار مجردة من بواعثها وعوامل
(م - الفكر العربي المعاصر)

دفعها إلى الحركة والتأثير في الفكر بالقوى ذى الفاعلية . ولاشك أن أكبر النظريات التى وجدت قوة في دفعها إلى التفاعل والحركة والحياة هى نظرية دارون ومذهب فرويد وفكرة ماركس عن التفسير المادى للتاريخ .

وبالرغم من أن الدارونية الجديدة التى قال بها « هكسلى » قد دحضت نظرية دارون إلى الإنسان وعارضت رأية في تطبيق تجربة الحيوان عليه فقد مضت هذه النظرية تشق طريقها في قوة .

وكا أن نظرية فرويد التى تقول بأن الغريزة والجنس هى أساس تصرفات الإنسان ودوافعه قد عورضت بنظرتي زميليه أرل ويونخ ، فإنها تسلت بقوة إلى الآداب والفنون وأصبحت بعد زمن غير قليل أساس ضخيم من أسس الأعمال المختلفة في مجال القصة والرواية المسرحية ، وعندى أن هذا يرجع إلى الدوافع ذات الفاعلية التى كانت قادرة على مظاهر هذه النظريات وتأكيدها واستهداف غرض سياسى أو بشرى بعيد المدى في هذا الاتجاه ولعل نصوص بروتو كولات صهيون تفسر ذلك وتكشف عنه .

ويمكن القول أن أسس الفكر الغربى قد قامت على هذا النحو :

× تنحية القيم الروحية والأخلاقية تماماً - لأنها بحكم العالم التجريبي - من الأمور غير الملموسة .

× المشكلات الفكرية العامة التى تعنى الإنسان يمكن أن تحل بواسطة العقل الإنسانى ومن غير معونة من شىء خارج عن العقل كالضمير أو الروح مثلاً .

× لم تتخل الثقافة الغربية قط عن فرديتها ووثنياتها وتعصبها على غير الجنس الأبيض والآرى والأوروبى والغربى من أجناس وأمم .

× الثقافة الغربية ترى إلى خدمة الإنسان من حيث هو بشر ، وترى إلى خدمة الإنسان الغربى قبل غيره وعلى حساب غيره .

× الخصومة الواضحة العميقة للألوهية والروحية والأديان .

× طبق دارون وفرويد وماركس ودوركايم نظريات علم الحيوان على الإنسان ، وكانت

قاعدهم هي أن الأخلاق ليست قيمة ولا ذاتية ولا ثابتة ، وإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد فيه وأن المجتمع هو الأصل في كل الظواهر الاجتماعية وليس الإنسان .

X تحمل حضارة الغرب عدلها لأهلها وثقافتها لأهلها تنظر إلى غير أهلها من الأجناس البشرية نظرة العبيد والأتباع .

X لم تهذب النفس البشرية ولم تخفف ما للانسانية من أثره وشهوة بل زادت هذا قوة ، وجلت الترف والرفاهية هدفاً .

...

ومن خلال هذه النظرة الموجزة الشاملة للفكر الغربي في شطرية المادى والماركسى تجمع النظريات التي يقوم عليها أساس هذا الفكر (دارون ولورنس ، ماركس ، فرويد ، دوركايم ، سارتر) على أن الإنسان حيوان ، ابن للمصادفة ، وأنه لا غاية لوجوده ، ولا هدف ، ولذلك فلا معنى للحياة الإنسانية ولا المثل العليا الإنسانية ، وإن الحياة تخبط خبط عشواء في تطورها بما في ذلك الإنسان ، وإن الحياة باطل ، ليس فيها إلا التنازع والجنس ، وقد زاد من تعميق هذا الرأي ، حربان عالميتان كبيرتان أكلت الملايين ، مما دفع الفكر الغربي إلى الدعوة إلى حرية العمل وإطلاق الحركة والتصرف ، دون قيد من دين أو إيمان بالله ، ومن هنا بين والخلاف الجذري الضخم في القيم والمفاهيم والأسس ، بينه وبين الفكر العربي الإسلامى الذى يرى الإنسان إنساناً وليس حيواناً وقد رفعت الأديان إلى مكان لم يصل إليه مخلوق غيره ، وحفلت بتأكيد إنسانيته وحمايتها .

ولعل وحوه الخلاف هو مادة الفكر العربى أساساً بينما يتمثل فى الفكر العربى الإسلامى قدرته على المزاجية المتفاعلة بين العناصر والقيم المعنوية والمادية .

وعنده أن القيم المعنوية ثابتة الجوهر ، متطورة المظهر والشكل ، تتحرك مع حركة الحياة دون أن تتخلى عن جوهرها . أما القيم المادية فهى تنير ولكنها تظل مرتبطة بجذورها الأصلية لا تنفصل عنها .

فهو مهما تطور لا يحطم الأسرة ، ولا يجعل البحث عن الطعام هدف الحياة

ولا يستبيح الوسائل في سبيل الغايات ، وتظل قيم الدين وإنسانية الإنسان قائمة أصلاً .

* * *

ولا شك أن هناك خلافاً جذرياً بين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي في أمور كثيرة وجوهرية :

١ - «المقائد» وتتمثل في إنكار الألوهية والأديان وجعل المادية أساساً لكل القيم - بينما يؤمن الفكر العربي الإسلامي أساساً بالله والأديان .

٢ - « الإنسان » ويتمثل في فهم الإنسان على أنه سيد الكون وسيد نفسه - ويرى الفكر الإسلامي أن الإنسان سيد الكون ولكن تحت حكم الله

٣ - حرية الغرائز ويرى الفكر العربي الإسلامي وضع نظم وقيود لهذه الغرائز من أجل حماية الإنسان والمحافظة على قواه وقيمه وهدفه الأكبر في هذا : ترقية النفس الإنسانية والسمو بها -

ومن هنا تقوم أسس الفكر الغربي على قواعد ثلاث :

× إقامة الحياة كلها على أساس لا ديني (Sorular) .

× التصور المادي في الفكر والحياة .

× التحلل من كل القيم والأخلاق .

وقد امتد أثر هذه النظرة وتغلغل في مختلف المفاهيم : في مجال السياسة والاقتصاد وعلم النفس والأخلاق والتربية والفن .

* * *

أما الفكر العربي الإسلامي فقد أقام مفاهيمه على أساس امتزاج الروح والمادة والاعتراف بالألوهية ، وقامت أسسه على أساس الترابط والامتزاج بين العلم والدين ، والدنيا والآخرة وبين الجسم والروح ، بين الواقع والمثالي .

ومن شأن هذا الفهم أن يحول دون الانقسام بين جوانب الجبهة الفكرية في الاقتصاد

والسياسة والاجتماع والدين ، هذه الجوانب التي تلتقي في اتجاه واحد هو النفس البشرية ووظيفتها، ومن هنا تبدو المشا كل أو القضايا وهي تعالج مجزئة منفصلة بين علماء النفس أو الاجتماع أو التربية ولكنها تدرس موحدة . ومن هنا تبدو حياة العمل والفكر والمجتمع هي تقوم جميعها على أساس الامتزاج والتناسق والسلامة . وبالجملة فإن الفكر العربي الاسلامي لا يرى أن هناك ما يسمونه النظرة الدينية منفصلة عن كافة القيم مجتمعة .

وكان الفكر الغربي قد حاول بعد أن فصل الدين عن الفكر والحضارة أقامه دين جديد يقوم على المفاهيم المادية ، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى ما أطلق عليه : « ديانة الإنسانية الجديدة » ومقوماتها انكار العيب والخلود ووجود الله ، والدعوة إلى اتباع الفضائل لترقية حياة الإنسان بقطع النظر عن العقيدة التي تقول بوجود إله . وعندهم أن وجود الله أو عدم وجوده ليست من المسائل الجوهرية لأنه إذا علل الإنسان ما هو صالح في هذا العالم فقد فعل ما هو مطلوب منه سواء أكانت له روح خالده أم لم يكن ، ولا شك أن هذه الديانة الجديدة ليست إلا محاولة من المحاولات التجريبية التي أجراها الفكر الغربي لتغطية الفراغ الروحي التي فقدته النفس الإنسانية من تبعية للنظرة المادية الخالصة .

وقد أثبت فشل هذه الديانة مدى اضطراب قواعدها وقيامها على أساس إنكار الألوهية التي هي الفارق الأول والأساسي بين الدين والإلحاد .

نقص هذه النظرة :

وإذا كان الفكر الغربي قد قاوم الدين ونمناه ، فإنه قد أحس بحاجة إلى بديل له يستغنى به عنه وقد تمثل هذا البديل في أكثر من محاولة في (١) العلم . (٢) المذاهب الشاملة كالقومية والاشتراكية والديمقراطية . (٣) علم النفس .

وقد فشلت هذه المحاولات جميعها في أن تعطي الحضارة الغربية بلسمًا لجراحها أو علاجها لأزمتهما ، هذه الأزمة الروحية أساساً ، والتي كانت مصدراً لمذاهب القلق والفراغ والضياع .

يقول « لاسكي » : من قرن مضى كان في مقدور الدين أن يقدم للكثيرين الأمل في تعويض ما فاتهم من الحياة وذلك في الحياة الأخرى ، أما اليوم فقد أطفأ العلم أنوار السماء

ولا طريق للخلاص إلا في ظل الحاضر العاجل . ومنذ قرن مضى رأى الناس بآقة أمل في الطاقة الصناعية الجديدة والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التي تستلزم أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا دون أن يساندها مبدأ ما ، لن يصبح لها أى معنى إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف .

وقال : أن الإنسانية حاولت أن تلتصق في بعض المذاهب الشاملة الكاملة (totalisme) شيئاً يكون دنيا أو كالدين ، غير أن القومية والديمقراطية والفاشية والماركسية لم نستطع أن تسد في قرن أو قرنين مسد الدين الذى أشبع العقول والقلوب عن قرون وقرون .

ثم عاجلت الحضارة الغربية بعض أزمتها في ميدان (علم النفس) في محاولة لسد الثغرة الروحية في بناء الحضارة المادية بعلم يسير في مناهيم العلوم التجريبية المادية يسير على مناهيم العلوم التجريبية المادية ، ونجح علم النفس حين تواضع . وأخفق حين جح ينشد فلسفة نفسية كاملة أو ديناً جليداً . وأشار في نجاحه وإخفاقه إلى القرن النائب ، إلى الدين .

* * *

وفي ظل موقف الفكر الغربى من الوثنية الاعريقة والنظرة المسيحية التي كوتها الكنيسة ، كون رأيه في (الدين) ورآه أضيق من أن يستجيب لحركته العلمية ولتطوره . بل رآه يقف أمام حرية فكره ، فنجاه وحمل عليه . ذلك أن صورة الدين التي واجهته أوروباً لم تكن إلا مفرقة في الرهبانية والسلبية وإنكار الحياة . ولم تكن أيضاً سوى مفاهيم غيبية لا تقوم على أساس العقل ولا ترضى الذهن ولا تعطى الروح حاجتها ومن هنا أخذ الفكر الغربى يقيم دينه الخاص ، « دين البشرية » كبديل للمسيحية ومضى يعلى من شأن الطبيعة فالعقل فالعلم التجريبي ، حتى بلغت النظرة العلمية حد « المادية الخاصة » المزجة بالإلحاد واللا دينية ، أو ما يطلقون عليه اسم العلمانية ، وهو تحرير الحكم والفلسفة والشريعة والاجتماع من نظرة الدين كما تمثلت لهم .

وهذا هو أفكار الفكر الغربى النظرة الصوفية الزاهدة المطلقة التي وجدها في المسيحية المتحولة إلى المادية الخاصة .

وكما تحولت علوم الفن والفلسفة والإجماع والتربية في ظل المادية عن الدين فقد تحول الفن فإذا كانت آثار ذلك على الفن نفسه . يحاول تولستوى أن يصور هذا الأثر حين يقول : أن الأديان تقدم اسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في فهمه للحياة في أى عصر من العصور ، وفي أى مجتمع من المجتمعات ، لذلك كانت الأديان على الدوام أساس تقدير المواطن الإنسانية ، فإذا كانت المشاعر التى يثيرها الفن تقترب من النثل الأعلى الذى يشير إليه الدين وتجاريه ولا تناقضه فهي مشاعر صالحة ، وإذا كانت تنأى عنه وتعارضه فهي مشاعر رديئة . لقد أبحه الفن إلى طلب المتعة في أوروبا لضعف العقيدة الدينية الذى غلب على الأوربيين وبدأ منذ عهد احياء العلوم ، وهذا الاتجاه قد حزم الفن الموضوعات الدينية العميقة وجعله ينزع إلى العمل على إرضاء فئة قليلة من الناس ، وهى الطبقة الأرستقراطية ، وقد فقد الفن من جراء ذلك جمال الصور ، وغلب عليه الغموض والتكلف وسار فنا متكلفاً غير طبيعى ، وأن أعراض الفن عن تصوير المواطن المثبتة من الإدراك الحسى الدينى جعله يتجه إلى طلب المتعة ، والمتع الإنسانية لها حدودها التى أقامتها الطبيعة في حين أن تقدم الإنسانية الذى يصحبه ويردده الإدراك الحسى الدينى ليس له حدود ، والإدراك الدينى يتجدد كلما تجددت علاقاتنا بالعالم من حولنا » ومن هنا يبدو الخلاف واضحاً وجذرياً بين الفكر العربى وبين الفكر العربى الاسلامى . فالفكر العربى الاسلامى يقف موقفاً وسطاً فيجمع بين المادية والروحية والعقل والقلب والدين في مزيج متفاعل . وفي نفس الوقت يرفض النظرة المادية الخالصة والصوفية الخالصة ، وليس للإسلام كايروس ولا كنيسة ولا رهبانية ولا رجل دين ، وإنما عالم دين متخصص في أمور الشريعة والفقه .

ولم يقف الفكر العربى الاسلامى أمام العلم أو التطور أو حركة الحياة موقف الجود ، بل كان دائماً قادراً — في تاريخه كله — على التفاعل والاستجابة والحركة ، ومصدر قوته هى في هذا المزيج المتفاعل . والدين عنده مرتبط بالحياة ، فيه الايجابية والقوة والدافع إلى العمل والبناء والقدرة على المقاومة العبدان ، وفيه المزيج بين الجد والفكاهة .

اليهودية والفكر الإنسانى

يمكن القول بأن الفكر اليهودى قد أخذ طابعا جديدا بدعوة « هرتزل » وكتابه « الدولة اليهودية » هذا الفكر المتمد منذ ظهور اليهودية قبل المسيحية بأكثر من ستة قرون والذي كونه التوراة ، والتلمود ، ثم أضيف إليهما بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ « بروتوكولات صهيون » ولا شك أن أبرز ما يؤثر فى طابع الفكر اليهودى هو الإحساس بالاضطهاد الذى واجهته اليهودية على العصور وخاصة اضطهاد المسيحية لها . ومن هنا كان صراعها الأول مع المسيحية والحضارة الغربية والفكر الغربى .

ولقد طبع هذا الإحساس بالاضطهاد كل آثار الفكر اليهودى الذى امتزج منذ عصر النهضة بالفكر الغربى ولم ينقصل عنه ، بطابع الحقد على المدنية والإنسانية ، يتمثل ذلك فى مختلف الآراء التى أوردها فى كتبه أمثال رومان رولان وماكس نوردو ، ونظريات ماركس وإنجلز وفرويد و دور كايم وهى النظريات التى وجهت علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وتركزت فيها آثارا لا حد لها ، والتى كانت فى مجموعها تهدف إلى زرع إنسانية الإنسان ورده إلى غرائزه وفتح الطريق أمام دوافعه الجنسية ودفعه إلى الحرية المطلقة وتدمير كل القيم والنظم فى مجال الدين والأخلاق والمجتمع ، والقضاء على نزعات الخير والعدل والحق .

فقد صدرت هذه الدعوات وهذه الأفكار من نفوس مضطهده تحمل طابع رد الفعل متمثلا فى الخصومة للحضارة والجنس والدين ومفعمة بشعور الاضطهاد ، بل إن هذه الشخصيات التى تصدرت مجال الفكر وأوجدت لها اليهودية العالمية مجالا ضخما لنشر آرائها وتوسيع دائرتها فى مجال الأدب والفنون والموسوعات العالمية ، هذه الشخصيات عندما تدرس يوجد لها من انحرافات النفسية والعقلية ما يدفع إلى الشك فى استواء فكرها وعجزه على فهم الإنسانية والإيمان بها والعمل من أجل إسعادها .

ومن النظرة إلى التلمود ، وعصاراته فى « بروتوكولات صهيون » تنكشف النظرة اليهودية إلى الفكر الإنسانى وإلى الحضارة وإلى الإنسانية فى طورها الحديث المسمى « بالصهيونية » ، هذه النظرة التى تدفعها أهداف عميقة بعيدة المدى فى السيطرة على العالم والإنسانية على أساس

مفاهيم اليهودية بأنها شعب الله المختار ، وملح الأرض ، والأمة الفضلى ، وبأن كل ما سوى اليهود عبيد وأن العالم كله مسخر لخدمتهم .

ويتصل بالتلمود وبروتوكولات صهيون ، تلك الجماعة الضخمة البعيدة المدى : « الماسونية » التي نفذت منذ مئات السنين إلى كل المجتمعات وأقامت محافلها الضخمة في الشرق والغرب وفي العالم الإسلامي وضمت إليها عظماء هذه الأقطار وحكامها واستطاعت أن تسيطر وأن تفرض سلطانها سراً وتنفذ رغباتها .

ويتصل بهذا فريق « الدوغة » الذي أسلموا في عهد السلطان محمود في تركيا لينجوا من اضطهاد رؤسائهم والذين أقاموا في « سلايك » منغولين عن المسلمين مؤثرين فيهم بالنفوذ الفكري والمالي وقد نسب إلى هذه الطائفة عدد كبير من أبرز حكام تركيا ودعاة الحرية والدستور والتغريب والنفوذ الأجنبي بها . ومن هؤلاء جاويد بك وزير المالية الذي استطاع أن يقذف بأكثر عدد من الدوغة إلى كبريات المناصب ودواوين الحكومة .

ولا سبيل إلى معرفة أثر اليهودية في الفكر الإنساني إلا بالنظر إلى دورها الضخم الخطير في مجال السيطرة المالية والاقتصادية في العالم كله ونفوذهم الواسع في الولايات المتحدة ومن قبل في بريطانيا وأعمالها ذات الأهمية في مجال العلم التجريبي والذرة والصواريخ والقنابل الهدروجينية فإن أساطين هذا العلم في أمريكا وروسيا على السواء من اليهود .

وقد عرف اليهود بذلك المجتمع المحدود بهم ، وهذه العزلة عن البشر ، باعتبار أن دينهم ليس ديناً عاماً وإنما هو دين خاص ، وقد كان لهم أثر ضخم متصل في تطور الحضارة الغربية منذ عصر النهضة إلى اليوم ، هذا الأثر الجذري المتمرج بالحضارة الغربية في مختلف فروعها الفكرية والتجريبية حتى يمكن أن توصف هذه الحضارة بأنها حضارة متمرجة : (مسيحية يهودية) .

غير أن دورهم في الحضارة وهم أهل المال والربا كان بعيد الأثر في دعم الجانب التدميري للأخلاق والقيم ، ويجمع الباحثون على أن التجارب الاقتصادية والاجتماعية قد كشفت عن أن البلاد التي ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والتراحم وحلت القسوة فيها محل الحنان والمدل .

ولاشك أن طابع اليهودية في الحضارة الأوربية واضح ، وهو الصراع على المطامع المادية ودفع مريجة حيوانية الإنسان والقضاء على الدين والأخلاق كوسيلة للعمل على تدمير المسيحية والقضاء على الإسلام وتغليب اليهودية (دينا وجنسا) وأداة ذلك فتح الطريق أمام الحرية المطلقة وتدمير القيود الأخلاقية والاجتماعية والدينية وليست وسيلته عن طريق أشرطة الصور المتحركة ، واختراع الرقص الخليع بأنواعه ، ومسابقات الجمال واختيار ملكات الجمال ، ونوادى العراة .

ولكن بتعميق هذا الاتجاه تعميقه وتحويله إلى عقائد عن طريق دراسات الفكر وعن طريق النظريات العلمية الموضوعة بدقة وفق مناهج البحث العلمي وفي مقدمة هذه نظريات لورنس ونيتشه وهافلوك أليس ، ووليم جيمس وماركس وديوى وفرويد ودور كايم ، ثم في مجال الأدب العالمي : ما كس نوردو ، وهوتيان وتومسان مان ، ومورد .

وقد دعت كتابات هؤلاء مع كتابات جوزيف كيسيل وموريس ديكور وغيرهم إلى عبادة اللذة والشهوة والمجون ونشر صحف المجون وقصص الدعارة والصور المارية واعتبارها من أروع أعمال الفن ، ونشر أخطر الكتب المحظورة على أذهان الشعب ، وأفلام الجرائم وقصصها ، ونشرها تحت ستار التحقيق الجفائي ، وذلك كله للتجريض على اقترافها وتوجيه الجماعات إلى التحلل من كل القيم والخلق والفضائل والأدنان

* * *

× هدم الحضارة : ويؤكد كثير من الباحثين الغربيين أن اليهودية تقامر على الحضارة ، يقول ييلمان في كتابه « اليهود المعاصرون » لقد حاول اليهود أن يهدموا حضارتنا فقضية دريفوس علمتنا كثيرا من دأب اليهود على إقناذ رجالهم مهما كلفهم الإقناذ من مال وجهد . دفع روتشيلد أكثر من مليوني جنيه في قضايا دريفوس ودفع بيت روتشيلد عشرة ملايين روبل ذهباً لإقناذ بوضروف اليهودي الروسي ويرى ييلمان : أن فرويد خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية ومجد الغريزة وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفلا يجسدهما ما شاء الشبق الكامن في حنايا ضلوعهما ، فالتهمتك الجنسي لا حدة له في رأيه ، والولد ينفار على أمه من أبيه ويود لو يموت الوالد ليحل محله ، أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس .

أما توماس مان فقد برر عشق الذكور (الموت في البندقية) ووصف مرضى الصدر كحيوانات متماشقة تتخذ من يأس الشفاء عذراً للتساند ، فصحات الجبال مواخير المرضى تحت مراقبة الأطباء الذين لا يملكون منهم (قصته الجبل المسحور) .

ويصف الباحثون الغرييون اليهودية العالمية (مثلة في الصهيونية) بالحقّد على الانسانية والتخريب ، وأن اليهودية لا تخلق حركة اجتماعية على إطلاقها ولكنها لا تنكاد ترى حركة تنبع حتى تسارع إلى استغلالها وتوجيهها إلى ما يخدم مصالحها ، ويحاول بمض الفكرين أن يستشهد بنصوص التوراة والتلمود وبروتوكولات صهيون التي تصور في صراحة وجراحة منطق « اليهودية » في تدمير الانسانية فالتوراة تقول « لبيت جميع الناس ويحييا إسرائيل وحده ، يرفعك الله فوق جميع الشعوب في الأرض ويعملك الشعب المختار المقدس » وفي التلمود « يباح لإسرائيل اغتصاب مال أي كان ، وأن أملاك غير اليهود كالنّال المتروك يحق لليهودي أن يملكه . وكما أن بني الانسان يسمون على الحيوانات فإن اليهود يسمون على شعوب الأرض جميعا »

X صراع اليهود مع المسيحية : وقد وجهت اليهودية إلى المسيحية حملة ضارية تبدو واضحة المعالم في التلمود وبروتوكولات صهيون فقد أشار التلمود إلى ما أسماه ولادة المسيح غير الشرعية ، واستعماله للسحر ، كما هاجم الكنيسة والقديسين والأسرار ، هذا فضلا عن عشرات من المؤلفات التي تطعن المسيحية والمسيح والكنيسة ، ولا شك أن هذه الخطوات الواسعة التي خطتها اليهودية في سبيل السيطرة على الحضارة الغربية والفكر الغربي قد حققت نتائج خطيرة ، فاليهود هم الذين صنعوا الماركسية أساساً ودفعوها إلى الأمام ، وفي بروتوكولات صهيون إشارة إلى ذلك « البولشفة بنت اليهودية ، ترعرت وشبت في أحضان اليهود حتى اختطفها ستالين من أيديهم »

وقد كشف إميل الخوري في كتابه « مؤامرة اليهود على المسيحية » عن النصوص الخطيرة في بروتوكولات صهيون للقضاء المسيحية والسيطرة على الحضارة الغربية وإشارة اليهودية إلى تأييدها لنظريات دارون ماركس ونيتشة : « لاحظوا أن نجاح دارون وماركس

هونيتشة قد رتبناه من قبل ، وأن الأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأسمى (غير اليهودى) سيكون واضحاً لنا على التأكيد .

كما أشارت البروتوكولات إلى الثورة الفرنسية « اذكروا الثورة الفرنسية التى تسميها الكبرى ، إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا » .

أما المسيحية فقد وجهت إليها البروتوكولات نبوءات خطيرة « لن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بدءاً انهياراً تاماً . وسيقبى ما هو أيسر علينا للتصرف مع الديانات الأخرى » وقالت البروتوكولات « حينما يحين لنا الوقت كى نحطم البلاط البابوى تحطياً تاماً فإن يداً مجهولة مشيرة إلى الفاتيكان ستعطى إشارة الهجوم وحينما يقذف الناس ، أثناء هياجهم ، بأنفسهم على الفاتيكان سنظهر نحن كحماة له لوقف المذابح . بهذا العمل سننفذ إلى أعماق قلب هذا البلاط وحينئذ لن يكون لقوة على وجه الأرض أن تخرجنا منه حتى نكون قد دمرنا السلطة البابوية .

ولن نهاجم الكنائس القائمة الآن حتى يتم إعادة تعليم الشباب عن طريق عقائد مؤقتة جديدة ، ثم عن طريق عقيدتنا الخاصة بل سنحاربها عن طريق النقد الذى كان وسيظل ينشر الخلافات بينها » .

وفى ظل هذه الآراء ظهرت الحركة المضادة (الاسامية Anti — scmitism) التى يقوم بها الفكر الغربى باعتبار اليهودية قوة مخيفة تحاول تدمير الحضارة والسيطرة على الفكر البشرى . ويحاول الفكر الغربى بأن يتهم الفكر اليهودى بالسطحية ، ويقول مستشرق المانى أن السامى لا لذة عقلية عنده ، ولا تستهويه الطبيعة ، ولذا لم يبرز فى العلوم الطبيعية ولم يكتشف شيئاً من أسرار الكون الطبيعية . وأن الخلق السامى أنانى فردى لا يخضع لزعامه ولا ينتظم فى نظام .

والمعروف أن الأقليات الكثيرة من الأمم قد ذابت فى المجتمع الغربى الكبير ما عدا اليهودية التى حافظت على لغتها ودينها .

ولقد عملت الكنيسة على اضطهاد اليهودية وتابع ذلك اضطهاد سياسى وعرف دائماً ما يسمى بحى « ألجئو » وهو الحى اليهودى الرهيب فى المدن الأوربية الكبرى الذى يجبر اليهود إلى الإقامة فيه .

واستطاعت اليهودية كرد فعل لذلك إلى التغلغل والتسلل إلى جهات الثقافة والفكر والتمثيل والموسيقى والصحافة والحماماه والطب والنشر حتى أصبح نفوذها كبيراً وبعيد المدى ، هذا النفوذ قد ارتبط فعلاً بالحركة الصهيونية التى حمل لواءها « هرزل » والتى استطاعت أن توجه أبحاث التاريخ والموسوعات العالمية على النحو الذى تريده اليهودية فأجريت تحريفات لأحد لها للإسلام وتاريخه ومفاهيمه وإلى العالم الإسلامى واللغة العربية .

وقد اتسع هذا النفوذ حتى أصبح يمثل شبه سيطرة كاملة على جوانب الفكر الغربى كله ، وقد انغمس فلاسفة يهود يحملون فى أعماقهم مطامهم وأحقادهم فكان لهم أثرهم أمثال سينيوزا وهينى ومندلسون واستطاعوا أن ينتفخوا بالمقائد الجديدة : كالديمقراطية والاشتراكية التى حققت خلاصهم من العزلة .

وبالرغم من حملات المفكرين على اليهود كقول تشمرلن إن اليهودى غريب عن الحضارة الغربية لأن روحه لا توأمتها ، فإن اليهودية استطاعت أن تسيطر عن الفكر العالمى والحضارة الغربية وأن توجهها وجهة خطيرة ، فقد كان لها دورها فى فرض عوامل الإلحاد والإباحة والكشف وهدم القيم والأخلاق والأديان .

وقد ظلت ترمى المسيحية بالضعف والجبن والسلبية ، حتى نقض الفكر الغربى يديه منها نقضا . وكان لها دورها فى إذاعة هذه الآراء وتأكيدها ، كقول نيتشة فى كتابه المسيح الدجال : (Anni — chriet) إن الرجل الأوروبى بدأ بالتقهقر خلقيا وعقليا عند ما اعتنق الدين المسيحى . وكتاب لدوفيج عن المسيح الموسوم بـ (ابن الإنسان) وكتاب شفيتر عن المسيح ، هذا الكتاب الذى يقول عنه سلامه موسى : « أن شفيتر ألف كتابا عن المسيح وعالج حياته بمشربط (فرويد) بما لا يرضى المسيحية » ، وقد قرأت الكتاب وأحسست وأنا فى الفصول الأخيرة أن الحلوى التى كنت الوكها بلسانى قد استحالت إلى علقم مر لا أسيغه ولا أطيعه . »

هلسنطين ليست غير العنصرية التي ستولد منه المدنية اليهودية المستقبلية » .

* * *

وقد أشار أكثر من كاتب ممن كشفوا محاولات اليهودية للسيطرة على الفكر البشرى والحضارة العالمية أن الكتاب الذين يجرى في عروقهم دم يهودى كانوا طليعة الدعاة إلى المذاهب المنافية للدين والآداب والمجتمع .

ويعتقد دستويافسكى أن اليهود قد احتضنوا الماركسية معتقدين أنها ستقتلع أصول المسيحية وتلاشى تمدنها ، وأن هدفهم من بث الدعاية الخبيثة للمبادئ المائلة للانحراف باسم المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية إنما يهدف أن تسود روح هذه المبادئ على روح الإنجيل .

وقد أشارت برنوكولات صهيون إلى ذلك في أكثر من موضع ومن ذلك قولها : « أن دارون ليس يهوديا ولكننا عرفنا كيف تنشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين » وفى قولها « لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشة بالترويج لآرائهم ، إن الأثر الهدام للأخلاق التي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » .

وحملة آراء هولاء بالإضافة إلى دور كايم ولورنس وسارتر تتمثل في احتقار الدين وتحطيم الأخلاق واعتبار الإنسان حيوان . فماركس يرى الدين افئوس الشعوب ، ومجموعة من الأساطير لتخدير الجماهير السكادحة ، وفرويد يرى أن الدين ناشئ عن الكبت ومن عقدة اوديب ، ودور كايم يرى أن الزواج ليس من الفطرة وأن الأخلاق والمجتمع والزواج من صنع العقل الجمعى الذى لا يثبت على حال .

ويذهب الباحثون إلى أن اليهودية عملت على تحطيم المسيحية عن طريق قيام النهضة على أساس لاديني : مسدرة (١) فصل الدين عن كل عناصر الفكر والحياة (٢) حيوانية الإنسان .

وعلى ضوء هذه النظرات يمكن القول بأن سياسة اليهودية التي رسمها مؤتمر حكماء صهيون عام ١٨٩٧ قد خطت خطواتها العملية في ظل الحقد على العالم واستغلال كل الدعوات

والمعجب أن اليهود قد استطاعوا أن يحماوا كثيراً من المسيحيين على أن يكتبوا مثل هذه الكتب وأن يذيعوها، كما تحول كثير من اليهود عن دينهم فأعلنوا أنهم مسيحيون من أجل حرية الحركة في مهاجمة المسيحية .

ومما يتصل بهذا ما تأثرت به موسوعات دوائر المعارف الغربية بل ودائرة المعارف الإسلامية التي كان يشرف عليها كتاب يهود . ومن هنا ظهرت عديد من نظريات تزيف تاريخ الإسلام والعرب، بل إن كثير من الكتاب العرب والمسلمين كانوا بقصد أو بغير قصد خداما لليهودية والفكر اليهودي ، وقد حفات الصحف في مطلع هذا القرن وإلى الأربعينات يبحث ضافية عن اضطهاد اليهود وحقوقهم وعبريتهم في الأهرام والمقطم والهلل والمقتطف والمجلة الجديدة والعصور .

ومن هذه الأبحاث ما كتبه عمر عنایت عن ما أسماه ^(١) (المدينة اليهودية) يقول « أعتقد أن عهد ما تسمونه المدينة المسيحية — مدينة أوربا الحالية — على وشك الزوال وبالطبع ستقوم مقامها مدينة أخرى اعتقد أنها ستكون أكثر اهتماما بالمدانيات من المدينة الحالية واسكن على نسق آخر . من السهل ملاحظة التسيطر المالى اليهودى الآخذ بخناق العالم ، كذلك يشعر المفكرون أن اليهود قد أثروا في توجيه رأى العام إلى جهة غير الجهة التي كان يتطلع إليها ، وأنهم قد استفادوا من القلق الاقتصادى الذى نتج عن الحرب وأنتك إذا بحثت كل حركة هدامة أو مبددة في الوقت الحاضر تجد أن محورها الدعاية اليهودية . الأمر الذى يمكننا مشاهدته متجليا في موقعتين : أولا في (روسيا) ثانيا في (فلسطين) .

وهذين الموقعين هما بحق مريض المدينة المستقبلية . ففي روسيا تجد الثورة تركيها الدعوة اليهودية التي تجد المجال فسيحا لمهاجمة المسيحية — حاملة علم المدينة الحالية — أما في فلسطين فسياسة اليهود تختلف . حيث يريدون أن يشيدوا في فلسطين نقطة ارتكاز يوجهون منها جهودهم .

وأن روسيا هي معمل البارود البلشفي الذى يعمل على نصف المدينة المسيحية فإن

والمذاهب الحديثة لتحقيق سيطرتهم الكاملة على العالم . وانهم الموجهون لدعوات الإلحاد والإباحة والسيطرة على أنظمة الاقتصاد العالمي على أساس سيطرتهم على الذهب الذي يحتكره اليهود ، وانهم كانوا دائماً وراء الرأسمالية والشيوعية جميعاً ، يثيرون مخاوف كل جناح على الآخر حتى لا يلتقي العالم في مهادنة تقيية شر الصراع .

وقد أشار إلى ذلك الحاخام عمانوئيل ايفانوفيش حين قال : « ان إثارة روح الحرب بين أمريكا وروسيا إنما تهدف إلى ان يضعف الخصمان وتتضعف قواهما ثم تتم السيطرة اليهودية على العالم » ا. ه .

ولاشك أن أغلب الشبهات والشكوك التي حملت لوائها دعوة التغريب والشعوبية والفرز الثقافي كانت من صنع الفكر اليهودي الصهيوني ، الذي كان يسيطر قبل عام ١٩٥٢ على الصحافي العربية في مصر ، وكانت دعوات تمجيد دارون فرويد ونييتشه وسارتر وغيرها إنما تنبعث من مخطط مدروس ، يجري في ظل الفكر الغربي أصلاً ، ولكنه يستهدف شيئاً أبعد مدى هو تمزيق الفكر العربي الاسلامي وإثارة الشبهات والادّعاءات ونزعات التشكيك فيه حتى يسقط .

وبالجملة فإن الفكر اليهودي يسعى الى السيطرة على الفكر الانساني وذلك بالقضاء على الفكر الغربي والفكر العربي الاسلامي جميعاً .

الكتاب الثالث

التغريب والشعوعية

تغريب الشرق

ليس شك أن حركة «تغريب الشرق» *wastrutism* هي دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائها ولها قادتها الذين يقومون بالإشراف عليها ، وهي حلقة من مخطط واسع في تأكيد الاستثمار ودعمه ، قوامها عمل استعماري فكري بعيد المدى قصد بها القضاء على معالم شخصية هذه الأمة وتحويلها إلى صورة غربية الملامح لتخليصها من القيم والمثل والتراث الذي يتصل بها والذي كان عاملا على تكوينها خلال الأجيال الطويلة .

كان الاستثمار يفهم أنه بعد أن سيطر على «العالم الإسلامي» بحيوشه وقواه العسكرية وتقوذه السياسي لا بد يوما أن ينسحب ، فكان لا بد من وضع مخطط دقيق لبقاء تقوذه في المناطق التي احتلها ، وكان لا بد له أن يبقى حتى تتكون له طلائع تخلفه من أهل الاقطار نفسها ، تؤمن بفكره ، وتسير في اتجاهه ، وتخدم مصالحه ، تتكون عن طريق التعليم في مدارسه ، ووفق أهدافه ، وتكون أمانتهم له أكثر من أمانتهم لأوطانهم .

وليس كل من تنقف بالغرب ، أو اتصل بالمستشرقين ودوائر الفكر الغربي كذلك . وليس كل من اتصل بالغرب وآمن به استمر على إيمانه ، فإن الحقائق لا تلبث أن تنكشف عن زيف الاستثمار ومغالطته ، فلا يلبث الأمر أن يظهر أن هناك خداعا قوامه كلمات براقة ، وشعارات تقول بتنوير الشعوب وتعدنها وتدعو إلى الحرية أو الأخاء أو المساواة ، أو ما شابه ذلك ، ثم لا تلبث الأحداث أن تثبت تعصب الغرب وتناقضه ، واثباته بهذه الأمة وفرض سلطانه بالحديد والنار ، هنالك تتحول الأفكار عنه ويكفر به من كان قد خدع يوما .

ولسنا في هذا نذهب إلى النض من شأن الفكر الغربي أو نصرف وجوهنا عنه ، بل على العكس من ذلك ، نحن لا نراه فكرا غريبا وإنما نراه فكرا إنسانيا في الأساس وأن انحرف في بعض مفاهيمه ، ونحن لا نقفل أبوابنا أمام الثقافات العالمية شرقية وغربية فقد شاركنا فيها ، وكان لنا دورنا الكبير في بناء هذه الحضارة ، دورنا غير المفكور عند المنتصفين من كتاب الغرب ومفكرية .

ولكننا قبل أن نفتح الأبواب لكل الثقافات لا بد أن نكون من مثانة الاستعداد النفسى والذهنى والروحى بحيث لا تقتلعنا ثقافات الأمم ، ولا تحولنا وجهة غير طريقنا ، ولا تفسد معالم شخصيتنا الأساسية الواضحة . فلقد نقلت أوروبا ثقافتنا العربية الإسلامية وأقامت عليها أسس حضارتها ومع ذلك لم تتحول وجهها عربيا أو إسلاميا أو شرقيا .

كذلك نحن أمة ، لها مقوماتها وكيانها ووجهها ذى الملامح الواضحة ، فلا بد أن يبقى هذا « الأساس » ثم لنأخذ ما نشاء من حضارات الأمم وثقافتها ، ما يزيد شخصيتنا قوة وحياة ويدفعنا إلى الأمام فى ركب الحضارة .

ولعل « حركة التغريب » لم تكن قاسية إلا بالنسبة لهذا الأمر ، فقد كانت صيحتها على لسان دعايتها وانباعها من كتابنا ، أن الحضارة الغربية كل لا يتجزأ وأنه لا بد من أخذها جميعا ، أو تركها جميعا ، وهذا رأى مدخول ، فيه من الخطأ والاستهانة بالفكر نفسه ما فيه ، فما من أمة تستطيع أن تأخذ كل ما عند الأمة الأخرى ، ولقد عاشت الأمم تتقارض الحضارات وتقتبس الثقافات دون أن تتحول عن طوابعها أو مقوماتها الأساسية .

ولقد كان الاستعمار والنفوذ الأجنبى يعرفان أن السيطرة الكاملة على هذه الأمة أمر مستحيل ، فإن لها من مقومات شخصيتها القوية الصامدة العنيدة ، ومن أسس فكرها العربى الإسلامى القرآنى ما يحول دون الاستسلام أو الركوع أو الخضوع لأى قوة خارجية أجنبية ، فكان لا بد من الحملة على هذه المقومات للقضاء عليها وتحويل وجه الأمة إلى قيم أخرى تدمر كيانها وتقرض عليها التسليم للقوى الخارجية فى أن تسود وتمتد وتتوسع ، وبذلك يبقى الاستعمار حيا فى صورة أخرى من صور النفوذ الفكرى .

إذن فالتغريب أساسا محاولة لـ « تغيير المفاهيم » فى العالم العربى والإسلامى والفصل بين هذه الأمة وبين ماضيها وقيمها ، والعمل على تحطيم هذه القيم بالتشكيك فيها وإثارة الشبهات حول الدين واللغة والتاريخ ومعالج الفكر ومفاهيم الآراء والمعتقدات جميعا .

ولقد صور لورد كرومر منهج هذا العمل الذى اصطنعته فرنسا وإنجلترا وهولنده

في العالم الإسلامي حين قال : « أن الشبان الذين يتلقون علومهم في إنجلترا وأوربا يفقدون الثقافة والروحية لوطنهم ، ولا يستطيعون الانتماء في نفس الوقت إلى البلد الذي منحهم ثقافته فيتأرجحون في الوسط ويتحولون إلى مخلوقات شاذة ممزقة » .

وكان هذا بالطبع هو الهدف من الرسائل المختلفة التي غزت بلادنا في صورة مدارس وجامعات وفي البعثات الموجهة إلى أوروبا وإلى عواصم الدول المحتلة بالذات .

وفي هذا ، قال «جيران» أن الشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي ، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم يسوعيه صار سفيرا لفرنسا ، والشاب الذي ليس قيصا من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا ، وكان هذا هو الحق إلى حد كبير ، فقد غزا الغرب الشرق . بجحافل من العلماء والمبشرين والمستشرقين والاثريين والصحفيين ، وشيدت مؤسسات ضخمة في مختلف عواصم العالم الإسلامي تفتح أبوابها لثقافات بلادها . وبدأ هذا النفوذ الفكري يعمل ويسيطر في مجالات المدرسة والجامعة ، والصحافة ، والثقافة والتربية والطب والسينما والاذاعة .

وهكذا كان « التغريب » عملا خطرا دقيقا قوامه الحرب المنظمة للقيم التي عاشت عليها أمتنا ، في أسلوب مغلف بالضباب ، يحاول أن يثير غمامه كثيفة من التشكيك والتحقيق والاستهانة بكل ما لدينا من قيم باسم « القديم » البالي الموروث ، ولم تمض سنوات قليلة حتى كان أبرز المسيطرين على « الصحافة » في العالم العربي والإسلامي من هؤلاء المتنكرين لقيمنا الذهبيين مع التغريب في طريقه ، وللصحف الوطنية ذات المبادئ كانت تسقط واحدة بعد أخرى ، بينما ظلت الصحف التي تخدم التغريب تقوى وتتسع . وفي مجال « الترجمة » كان الهدف هو بث فكر جديد قوامه القصص المكشوفة ، والآراء السمومة ، وفي مجال المدرسة كانت تقدم الكتب التي تنقص من قدرنا وتضم تاريخنا بالضعف وماضيها بالذلة وسيطر على الجو الفكري كله تيار جديد هدام قوامه الاستهانة بكل القيم وفي مقدمتها الدين والروحية ، كما فرضت الحضارة على بلادنا أسوأ ثمراتها ، لم ترسل لنا إلا تجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو بغية تحطيم كيان المجتمع ، وبدأت في جو مجتمعنا ربح تدعو إلى الرخاوة والمتعة واللذة والتخلص من كل القيود .

ولم تكن هذه الدعوة تهدف إلا إلى تدمير القيم الأساسية لهذه الأمة ، قيم المقاومة والعبادة والتصميم وتحويل نظر الأمة عن الجهاد والتضحية والفداء في سبيل الحرية .

كان هدف التغريب واضحاً هو محاولة قتل شخصيتنا ، ونحو مقوماتها وتدمير فكرها ، وتسميم يتابع الثقافة فيها . وفي هذا المجال برزت الدعوة إلى التحرر من طابع العروبة وطابع الدين وجرت الشعارات الجديدة في الارتباط بحضارات البحر الأبيض ، وبأن مصر جزء من أوربا ، وبرزت دعوات الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والآشورية في العراق ، وبرزت النعرات القديمة باسم مسيحي ومسلم ، وعربي وبربري ، وعربي وكردى ، وكان الاستمرار هو الذى يحمل لواء هذه الدعوات ويثيرها ويقلب جرمها ، ويخرجها من كهوف الماضى لينضحها الحياة ويجمع حولها بعض أعوانه عن طريق الفكر والكتابة بغية تقسيم الأمة .

ولم يمض طویل حتى اعترف كتاب الغرب بحركة التغريب وجاءوا يبحثون مدى ما وصلت إليه وما حققته من هدف . وقال جب في كتاب « وجهة الإسلام » : أن حركة التغريب كانت بعيدة المدى في إزاله الإسلام من عرشه في الحياة الاجتماعية .

* * *

وقد عملت « حركة التغريب » في عدة ميادين ، بدأ العمل فيها غربيون نزلوا إلى المعركة ثم ، ثم أسلموا مقاليد الأمور من بعد إلى كتاب من العرب والمسلمين ، حتى يبعثوا الثقة في نفوس المواطنين إلى الصوت الأليف الذى يجد الصدى ، وفي كل ميدان من ميادين العمل كان النفوذ الأجنبي يجد من يعاونه من أبناء الأوطان ، وإذا كان هجومه على الدين كان قاسياً ، فإن من المؤسف أن تجد كثيراً ممن حمل لواء هذا الهجوم من الذين تفقوا أول الأمر ثقافة إسلامية وكانت اللغة والدين في الأغلب هما الميدانان الكبيران للعمل البعيد المدى ، وأن كان التغريب لم يترك ميداناً دون أن يوغل فيه ويسممه ويبعث فيه الشك .

وكانت كلمة « حرية الفكر » والتقدمية ومقاومة الرجعية ، والتطور من الكلمات البراقة التي لعبت دوراً كبيراً في خداع الجماهير .

واستطاع التغريب أن يجمد النافذ المرنة الماكورة إلى ما يريد دون أن يصطدم بالعقائد ، أو يواجه المواقف الحرجة ، وأن كان المبشرون قد هاجموا المقومات صراحة ، وقاموا بعملهم في عنف أول الأمر ، فإنهم لم يلبثوا أن تحولوا عن هذه الخطة ، واختفوا من المسرح ، واستبطنوا أهدافهم ، وحولوها إلى صورة أخرى أكثر دقة ومكرا . فبرزت أحداث صورية فيها تجسيد للدين واللغة ومقومات الأمة فإذا تخدعت أفكار القراء . ووثقوا بالكاتب وكتاباته ، بدأت عملية التشكيك الخفي ، المدخول الدقيق ، بل أن بعض الكتاب الذين عملوا مع التغريب وهاجموا المقومات الأساسية في أول الأمر ، لم يلبثوا بعد قليل أن تحولوا مظهريا ، وخاضوا الحديث في أقدم مقدسات الأمة ؛ عاملين على كسب الثقة الشعبية العامة في هذا المجال ، حتى يتأتى لهم من بعد أن يحققوا في الخفاء ما يهدف إليه دعاة التغريب ، لقد اختفت المعركة من المسرح ، ودخلت إلى الكواليس ؛ فكان مجال العمل ، هو مناهج التعليم نفسها ، أو مقالات الصحف أو فرض المذاهب الفكرية الغربية ، وتأكيدها والاختفاء ورأيها . وخاصة ما يتصل منها بمقاومة القيم العربية الإسلامية ، كالمذاهب المادية والنظريات الفلسفية والنفسية التي تدمر قيم الإنسان وتعريه وتكشفه على نحو يقلل من كرامته ، وفي هذا المجال ظهرت عشرات من النظريات والمذاهب والفلسفات المضطربة الذاهبة في كل مجال ، وكان من شأن إذاعة هذه المذاهب والنظريات أحداث بلبلة فكرية من شأنها أن تقضي على الإيمان بالمقومات الأصلية . وتدفع الفكر العربي الإسلامي في متاهات وتخبطات .

بل أن الخطط التي قدرها الغربيون إزاء موقف المسيحية الغربية والكنيسة حين حاولت أن تقف أمام النهضة والحضارة ، جرى نقلها إلينا مع الفارق البعيد بين موقف الإسلام من الحضارات والنهضات وموقف المسيحية ، فلقد كان الإسلام قادرا دائما على مواجهة كل تطور ، وفيه من السماحة والتفتح والاستجابة ما جعله صالحا لكل زمان ومكان ، فكان هذا الاتجاه في نقل موقف الغرب من جمود الكنيسة ليس إلّا لونا من هذه البلبلة الفكرية التي هي قوام دعوة التغريب .

* * *

ولم تكن حملات التغريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة والدين في الشرق

قائمة على أساس علمي على نحو ما يذهب إليه أسلوب البحث العلمي الأصيل ، وإنما كانت حملات يغلب عليها الهوى والتعصب ، وتسيطر عليها ريح الحقد والاستعلاء وخلق الفوارق البعيدة بين الجنس الأبيض وغيره من الأجناس مع سيطرة فكرة التفرقة بين أصحاب الحضارة وبين الشعوب التي كان لها دورها من قبل في حمل أمانة الحضارة ، حين كانت أوربا تعيش في الوحل والظلام ، فإذا أضيف إلى هذا ذلك الإصرار العجيب على إنكار فضل العرب والمسلمين على الحضارة على نحو فيه مغالطة وإنكار لوقائع التاريخ نفسه ، تبين إلى أى مدى يذهب دعاة التغريب ، فأسيا هي المتبررة ، وأوربا هي المتحضرة ، وليس أكذب ولا أبعد عن الحقيقة ما يحاول الغربيون أن يقولوه في هذا الحال من أن التاريخ والحضارة قد بدأت من أثينا ومرت على روما . . ثم اختفت ألف سنة لتظهر من جديد في حركة النهضة . أما قبل أثينا فليس شيء ، وأما ما قبل النهضة فلا شيء ، وفي هذا الرأي ما فيه من الخطأ ومجافاة الحقيقة .

والواقع أنه كانت قبل أثينا حضارات النيل والفرات ، وقبل النهضة كان المسلمون والعرب في دورهم الضخم البعيد المدى حين حملوا لواء الحضارة والفكر ، وترجموا آثار اليونان وزادوا فيها وأضافوا إليها وحققوا الأسس الكبرى التي قامت عليها الحضارة فيما بعد .

* * *

والحق أن حركة تغريب الشرق قامت على المغالطة والتضليل ، ومحاولة مسخ القيم والمقومات العربية والإسلامية وإدخال قيم ومقومات جديدة تهدم شخصيتنا وتصيرنا مسخا لا هو من الشرق ولا هو من الغرب ، ثم هي بعد ذلك تنكر دورنا وتحاول أن تقض من شأن لغتنا وتاريخنا وتراثنا على نحو لا يصمد أمام البحث العلمي الصحيح ، وهو ما سنكشف عنه بتوسع في مختلف مجالاته وجوانبه .

حركة التغريب

إن أبرز ما تهدف إليه « حركة التغريب » هي تغيير المفاهيم الأساسية والقيم الأصلية للأمة ، هذه المفاهيم والقيم التي كونتها وطبعتها مقومات من الأرض والمكان ، والثقافة والعرق والذوق . فليس شك أن مقامنا في هذه المنطقة ذات الطابع المعتدل من الحصب والبناء ونزول الأديان السماوية الثلاث بها والتقاء الأجناس والشعوب منذ أربعة عشر قرناً على ثقافة لها طابع موحد مشترك ، إنما أعطى صورة مكتملة للفكر العربي الإسلامي .

ومن هنا تبيء دعوة التغريب التي تحاول أن تلقى بذور الشبهات حول عروبتنا أو أسلافنا أو شريقتنا فنقول بأننا جزء من أوربا ، أو من حوض البحر الأبيض ، أو تحاول أن تفسر الصلات بيننا وبين الغرب على النحو الذي يقضى على كياناتنا وطابعنا أو دعواهم بأن الحضارة تراث مشترك للإنسانية وعليها أن نأخذها : خيرها وشرها ما يحمد منها ويعاب .

وفي هذا كله تمويه للحقائق لا بد أن تكون واضحة في أذهاننا حول قضايا ثلاث :

(١) المعرفة والعقيدة .

(٢) الشرق والغرب .

(٣) الحضارة والثقافة .

(٤) الأساس والبناء على الأساس .

ذلك أن هناك مفاهيم واضحة حول الفرق بين المعرفة والعقيدة ، فالمعرفة إنسانية والعقيدة مرتبطة بالأمة وثقافتها في الأغلب .

فالشرق له مفاهيمه وعقائده والغرب كذلك ، وقد اتسمت ثقافة الشرق بالروحانية وعرفت ثقافة الغرب بالمادية ، أما المنطقة العربية الإسلامية فقد عرفت فكرها بمزاج الروح والمادة والدين والعلم ، والعقل والقلب .

ومن هنا يكون وجه الخلاف في المفاهيم والقيم ، ومن هنا يكون التحفظ من خطة التغريب التي تهدف إلى القضاء على المفاهيم والقيم الإسلامية العربية وإحلال مفاهيم غربية مكانها .

كذلك هناك فارق بين الحضارة والثقافة . فالحضارة علم تجريبي وصناعة وما كيناته وذرة وأسلحة وهكذا ، والثقافة فكر وقيم ودين ولغة وتاريخ . ومن هنا يبدو خطأ القول بأن ثقافة الغرب جزء من حضارته ، وإن على الشرق أن يأخذها مع الحضارة ، ذلك أن الحضارة ملك مشاع للإنسانية شاركت فيه ولها أن تأخذ منه ، أما الثقافة فهي في الأساس مرتبطة بالنفوس والأذواق والأمزجة ؛ هذا إن هما الملحظان الأساسيان في النظرة إلى حركة التغريب ودعوته .

ومن هنا كانت نظرتنا إلى أننا نقيم «أساساً» من فكرنا العربي الإسلامي الأصيل نبني عليه ثقافتنا الحديثة وفكرنا الجديد ، ونحن نفتح الأبواب والنوافذ للفكر الوافد في حرية كاملة فتأخذ منه وبدع ، وفق قاعدتنا الأساسية ، ومن هنا لا نخشى أن يجرفنا الوافد ويقضى على مقوماتنا أو شخصياتنا الأساسية بل يكون الامتصاص والاقتباس مستمداً على النحو الذي يزيد شخصيتنا قوة وفكرنا انطلاقا واتساعا وحركة إيجابية .

...

والواقع أننا لسنا في حاجة كبرى إلى هذه المحاولة المضطربة الظالمة التي تريد أن تكشف عن أن فكرنا العربي الإسلامي يلتقي في كثير من القيم والمفاهيم مع الفكر الغربي . فلا شك أن هناك خلافا واضحا ، وكبيرا وجذريا بين مفاهيم الشرق والغرب ، وبين الفكر العربي الإسلامي بالذات — بين الفكر الغربي (بشقيه) .

هذا الخلاف يبدو في أساس واحد هام من عدة أسس هو : مادية الفكر الغربي وامتراج المادة والروح في الفكر العربي الإسلامي . ولا شك أن الخلاف في هذا الأساس بالإضافة إلى الخلافات الأخرى من شأنه أن يعطى « طابعا » مميزا لفكرنا ويجعل لنا وجهة

نظر مختلفة مع الغرب في مسائل التربية والثقافة والمجتمع والأخلاق . ومن هذه الخلافات يتبين أن لكل فكر قيمه ، ولكل أمه أسسها وقاعدتها الأصلية الممتدة مع الزمن ذات الجذور الصلبة ، ومن هنا يتبين مدى فشل حركة التغريب في القضاء على هذه الأسس ، وقطعها .

ولا شك أن حركة التغريب لم تبلغ فيما بلغته حتى الآن في مؤامرتها الضخمة أكبر من إثارة الشبهات وإلقاءها في فكر مجموعات من الشباب نشأت مع الأسف دون أن تفهم المقومات الأساسية للفكر العربي الإسلامي ولم تؤمن بها . ومن هنا اضطربت وجرت مع البريق وانحرفت عن الطريق ، ونحن في حاجة إلى أن تفهم أن هناك فارقا بين استيراد الحضارة واستيراد الثقافة ، وأنه ليس حتماً مقضيا على من يستورد الحضارة أن يستورد فكرها .

وأدنى ما تواجه به حركة التغريب هو اتخاذ إجراء المثل بالنسبة لمقومات الفكر الغربي الذي تصادف أنه مليء بالثغرات ، وأكثر اضطراباً وبعداً عن المفاهيم العقلية نفسها .

وحتى في مجال قضايا : القومية والديمقراطية والاشتراكية فإن الفكر العربي الإسلامي ليس مطالباً أبداً أن يأخذ بمفاهيم الغرب لها ، ومن حقه أن يضع لها مفاهيمها على ضوء مقوماته الأساسية التي هي بمثابة الأساس الذي تبنى عليه النهضة وهذا وقع فعلاً فإنا قد حددنا مفاهيمنا بالنسبة لهذه القيم بما يختلف مع مفاهيم الغرب لها وقد جاء ذلك مستمداً من جذورنا ومقوماتنا وتراثنا .

وإذا كان الغرب قد اعتبر الدين دخيلاً عليه لأن المسيحية التي اعتنقها كانت مناهياً في الشرق ، وقد اضطربت علاقته بها ورآها - باعتبارها دنياً - تقف أمام حركة النهضة والكشف فنحاهما . فليس معنى هذا أن تقبل رأى الغرب في الدين جملة ، أو أن نطبق رأيه فيه على الإسلام بالذات ، وقد كان الإسلام ولا يزال : ديناً وثقافة ونظام مجتمع . وهو في هذا يختلف عن الأديان الأخرى ، وأبرز أوجه الخلاف أنه لم يقاوم التطور ولا النهضات ولا الحضارات ، واستطاع أن يظل مفتوح الآفاق إزاءها على مدى العصور وفي كل البيئات . ومن هنا فنحن لا نقبل النظرية الغربية في القومية أو الديمقراطية أو الاشتراكية ولا نستورد المفاهيم ولا تجري وراء التبعية الفكرية أو نمتنق المفاهيم التي يضمنها الغرب .

ومن هنا يبدو مفهومنا للقومية العربية مرتبطاً بالفكر العربي الإسلامي مخالفاً لآى الغرب ذلك أن « الفكر العربي الإسلامى » هو أساس وحدة المفاهيم ونحن ننظر إلى الفكر العربى الإسلامى كسكل وليس إلى جزئية منه كاللغة والتاريخ منقولة عن النظرية الغربية .

وليس أدل على مفهوم الإسلام هنا من عبارات المنصفين من كتاب الغرب المسحيين الذين اقتنعوا بأن الإسلام ليس عقيدة أخروية فحسب ولا أخلاقاً محررة بل هو « أجلى مفصح عن شعور العرب الكونى ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج منها اللفظ بالشعور والفكر والتأمل بالعمل والنفس بالقدر ، وهو أروع صورة للغتهم وأدابهم ، وأضخم قطعة فى تاريخهم القومى ، وأن علاقة الإسلام بالعروبة ليست علاقة أى دين بأى قومية ، فالإسلام للمسيحيين ثقافة قوية والفكر الإسلامى أعن مافى العروبة » .

* * *

والواقع إن أبرز ما يدعو إليه التغريب هو خلق روح « العلمانية » فى الشرق . والعلمانية ترجمة محرفة للكلمة الغربية (Secutar) وهذه الترجمة العربية تحمل طابع التمويه لأنها لا تريد أن تكشف حقيقة مفهومها الغربى الذى يعنى أساساً كلمة « لادينى » .

وكان هدف التغريب فى حملته العنيفة هو الوصول إلى قيام حكومات لادينية فى الوطن العربى بعد أن قامت « التجربة » فعلاً ماثلة أمام الشرق كله تعطى العبرة فى « تركيا » .

ولكن دعوة « القومية » فى العالم العربى لم تقبل المفهوم الغربى كاملاً ، وخلقت لها مفهوماً نابعا من المقومات الأساسية للفكر العربى الإسلامى ، التى يمثل وحدة فكر الأمة ، وهى لم تتخل عن جوهر « الدين » كجزء متصل من مقومات الفكر الإسلامى بجوار اللغة والتاريخ والتراث .

حدث هذا بالرغم من نجاح دعوة التغريب فى مجالين هامين :

التعليم والصحافة فقد نجح التغريب فى إنشاء مدارس غربية الطابع ، تحمل طابعاً تقريبياً مخالفاً لروح الفكر فى العالم الإسلامى والوطن العربى .

كما نجح في إدخال مناهج التعليم الغربى التى فصلت الدين عن التربية فى جميع المستويات إلى المدارس فى العالم الإسلامى والوطن العربى . واستطاع أن يوفد مئات من أبناء العالم الإسلامى والوطن العربى إلى فرنسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها ليحملوا ثقافة وقد استطاع بعضهم أن يولى مفاهيم التغريب إيمانه وولائه .

وإذا كان عدد كبير من هؤلاء المبعوثين قد فشل التغريب فى اتخاذهم أولياء له ، فإن المدد القليل قد عمل ظل تقوِذ حكومات الاحتلال وبعمونة النفوذ الغربى الذى مازالت إثارة باقية فى كثير من حكومات العالم الإسلامى والوطن العربى على عزل التربية عن الدين . وعزل جوهر الفكر العربى الإسلامى عن التاريخ واللغة والأدب .

وقد آن الأوان لتحرير مناهج التعليم فى العالم الإسلامى والوطن العربى من هذه الشبهات وتعميق جوهر الفكر العربى الإسلامى فى جميع المناهج على النحو الذى يحقق الإيمان بروح هذه الأمة وقدرتها على النضال والانبعاث مرة أخرى لنقف فى الصفوف القائِدة .

وفى مجال الصحافة استطاع التغريب أن يخلق رأيا عاما للمفاهيم الغربية وتنحية المفاهيم العربية عن كثير من القيم . ومن هنا بدت الدعوات التحريرية والقومية التى ظهرت فى العالم العربى والإسلامى بعد الحرب العالمية الأولى وهى ذات طابع غير مقيد بالقيم الروحية والاجتماعية والأخلاقية . . وإلى ما قبل النصف الثانى من هذا القرن كانت الصورة ترسم أمه تعلّى من قدر فكرة الحرية والوطنية من غير أن تمزجها بمقوم أساسى من الروحية أو الخلق .

وكان لحركة التغريب التى استطاعت بالفعل أن تسيطر على أزمة الصحافة فى العالم العربى - إذ ذاك - دورها الفعال فى هذا المجال .

وقد أشار « جب » إلى هذا المعنى فى كتابه وجهة الإسلام حين قال : أن الصحافة هى أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها تقوِذا فى العالم الإسلامى ، وأن مدبرى الصحف ينقسمون فى معظمهم إلى التقدميين ، وأن معظم هذه الصحف واقع تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية وأن الصحافة المصرية لا دينية فى اتجاهها . (هذا النص يشير إلى عام ١٩٣١)

الفكر العربي

محاولة تغريب مقوماته ومفاهيمه

هدف «التغريب» أساساً هو تحويل الفكر العربي الإسلامي عن مفاهيمه ثم عن مقوماته ومن هنا يحاول «التغريب» إثارة قضايا كثيرة متعددة ، هذه القضايا تنطلق جزئية ، منفصلة وتظهر عندما يراها الرائي كأنها لاصلة لها بالقضايا الأخرى ، هذا في النظرية الظاهرة أما في الواقع فإن كل جزئية هي قطاع من حقيقة أساسية هي «التغريب» ذلك الشبح الضخم المخفي وراء هذه الصور والمعارك ، وهدفه هو نقلنا عن مفاهيمنا الأساسية إلى مفاهيم جديدة . ومن هنا يمتد «التغريب» دائماً على جزئية النظرية لدينا ، وعجزنا عن الإحاطة والشمول .

ولكي تتم المواجهه الحقيقيه لمركتنا مع التغريب يتحتم أن تكون هناك مفاهيم واضحة عن أمور كثيرة تثار من أجل تجميع القضية الأساسية ، ذلك أن حركة التغريب والذين من ورأها وهم على قدر كبير من المرونة - قادرة على تحويل التيار بعيداً عن الهدف الأصلي وصرفه إلى المعارك الجانبية أو القضايا الجزئية .

فالتغريب بحركته ومخططاته قادر : (اولاً) على تحويل الانتفاضات الكبرى عن أهدافها وذلك بوسائل عديدة ، أما بالإسراع بها أو بإجهاضها ، أو بوضع تفسيرات جديدة لمفاهيمها ، أو بتجسيد الأفكار المجردة ، وتقلل القضية من الفكر إلى صاحبه وذلك بقصد نقلها من البحث العقلي إلى العاطفة الشخصية . وكذلك للتغريب قدرته على إيجاد يدبل سريع للأفكار الحية القادرة على النمو ، وذلك بإبراز من يتحدثون في نفس الموضوع ولكن بمفاهيم أخرى . وهناك من الأسماء اللامعة من يمكن تجنيده في الوقت المناسب ليعلو صوته على الأصوات الجادة التي تحمل الراي الأصيل .

ولقد استطاعت حركة التغريب أن تواجه كثيراً من الدعوات التي قام بها رجال الدين للافئنان وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده وعبد الحميد بن بارس .

وسرعان ما كانت تظهر أسماء لامعة من دعاة التغريب تحمل نقس الأفكار من مظهرها دون مضمونها لتحولها عن هدفها الأصلي الخالص إلى هدف يخدم الإستعمار أو الاستبداد .

(ثانياً) النظرة الجزئية وهذه من أخطر ما يهدف إليه التغريب ، ويتمثل في تجزئة الفكرة الواحدة وإثارة أفكار مجزئة ثانوية لضعاف الفكر الأساسي . كما يتمثل في محاولة تناول كل جزء منها على حده منفصلاً عن الجزء الآخر .

وفي هذه التخزئة يتمثل الخطر ، فإن كل جزئية تمضى وكأنها شيء مستقل ، ثم تنسى بعد فترة ، لتظهر جزئية أخرى ، لا تذكر مرتبطه بغيرها ، وهنا تكون قدرة التغريب على تفتيت المسائل وإثارة الشبهات حولها اعتماداً على ضعف الذاكرة التي لا تستطيع أن تربط الأجزاء كلها . والواقع أن كل سموم التغريب والغزو الثقافي جرت في هذا المخطط ، كانت تلقى الجزئية ثم تترك ، وتنسى ، ثم تلقى جزئية أخرى وثالثة ورابعة ، ثم يعاد القول في الجزئية الأولى ، وهنا يبدو مدى الخطر الذي يحتاج إلى الوعي الكامل ، فإن كل هذه الجزئيات تتمثل في كلمة واحدة هي القضاء على مقومات الفكر العربي الإسلامي وتحويله من مفاهيمه الأصيلة إلى مفاهيم تختلف اختلافاً أساسياً .

وفي ظل هذه الخطة ، يفتح التغريب الباب كل يوم لقضايا جديدة ، ويجدد مسائل قديمة بأسلوب آخر ، ويهدم على فترات ، وهدفه من ذلك أن لا يترك الفرصة للباحث أن يفكر أو يستدرك أو يربط الأجزاء ببعضها ببعض .

(ثالثاً) إيمان التغريب بالنظرة القائلة بأن إثارة الشبهات تكون بلسان « رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم » على حد تعبير المبشر المشهور « زوير » بأن الشجرة على حد قوله يجب أن يقطعها أحد أبنائها .

ومن هنا كان ضرورة تكوين جيل من دعاة التغريب الذين توطأ لهم شهرة زائلة وتفسح لهم الكتابة في الصحف والمجلات الكبرى ، وتجري حولهم أبحاث ودراسات وكما خدمت اسمائهم أعيد الحديث عنها ، حتى تظل في مستوى النظر .

وقد ظهر في الثلاثين عاما الأخيرة عدد ضخم من دعاة التغريب والشعوبيين من المسلمين والعرب: وهم أحيانا من المكر والمرونة واللباقة بحيث يستطيعون إخفاء نواياهم واغراضهم ، وكثير منهم انكشف أمره ، ونمت كتاباته عن خصومته وأحقاده .

وموقفنا من هؤلاء الكتاب واضح هو تطبيق مذهب نقد الرجال عليهم ، فماينا أن نجتمع النصوص التي يتمثل فيها التغريب والشعوبية لكل كاتب ونعرضها للبحث ونكشف ما تنطوي عليه من سموم .

(رابعا) في ظل هذا كله علينا أن نفرق بين القيم والمفاهيم . فالقيم إنسانية عامة كالحرية والدين والتربية الخ . وقد اختلف الرأي في مفهومها بين الفكر العربي الإسلامي وبين الفكر الغربي وبين الفكر الماركسي . ومن هنا كان علينا أن نحفظ بمفاهيمنا للقيم فهي التي تمثل وجه نظرنا أساساً . ذلك أن مهمة التغريب هي :

« أولا » محاولة إخضاع الأمم لثقافته ومفاهيمه للقيم وذلك بتحويلها عن مفاهيمها الأساسية وتسويد الحضارة الغربية على حضارات الأمم ولا سيما الفكر العربي الإسلامي .

« ثانيا » انتزاع الطابع المميز للفكر العربي ، ولما كان فكر كل أمة يكسبها طابعا خاصا ، فإن التغريب يهدف إلى انتزاع هذا اللون المميز والقضاء عليه لتذوب في الثقافات الأهمية .

« ثالثا » لما كان التغريب (والتبشير جزء سابق منه) عاجز عن هدم العقائد والقيم في نفس أمه من الأمم فإنه قادر على إثارة الشكوك والشبهات في هذه العقائد حتى تصبح موضع النقد والسخرية . ومن هنا كانت محاولة التغريب في فرض مفاهيم جديدة للقومية والوطنية والدين والحرية تختلف مع مفاهيمنا أساساً .

وقد وجه التغريب عشرات من الشبهات في هذا المجال ، وربما استطاعت هذه الشبهات أن تثير في بعض العقول والنفوس الشكوك والأوهام ومن هذه الشبهات :

أولاً : « الفكر العربي الإسلامي فكر تجريدي » .

اتهم الفكر العربي الإسلامي بأنه فكر تجريدي ، والواقع أن ثمرات الفقه والتشريع الإسلامي تكذب هذا الرأي ، فإن هذه الأصول ترينا واقعية الفكر الإسلامي وكيف أنه كان يتناول كل حادث يقع في حينه ثم يستعرضه ويضع له الحلول .

بل أن الفكر العربي الإسلامي أكثر إغالا في الواقعيات من الفكر الغربي حيث تناول الحياة اليومية ولم يقتصر على مسائل اللاهوت كما في الشرائع الأخرى .

ثانياً : « الاستسلام للماضي » :

الواقع أننا لا نستسلم للماضي ولم يكن تقديرنا لمجدنا الغابر حائلاً دون التطور يوماً أو الاستسلام ، ولم تكن عقائدنا ولا تراثنا ولا قيمنا الأساسية عائقاً لنا عن الحركة والتطور ، بل كانت عاملاً إيجابياً يفتح لنا الطريق الأصيل الواضح ، ولا سبيل إلى أن ندع أساسنا ونبنى في أرض رخوة ، فإن بنائنا إذاً لن يرتفع بل سينهار ، ونحن نؤمن بأن شجرة المعرفة يجب أن تطعم على أسس من ماضينا فتصل اتصالاً طبيعياً بتتابع ثقافتنا . إن كل أوليات المعرفة والحضارة تابعة من فكرنا العربي الإسلامي وبحاول التغريب أن يثير دائماً مسألة الفكر الإغريقي واللغة اللاتينية كمقابل لمنابع فكرنا العربي الإسلامي واللغة العربية ، وإذا كان لنا أن نقول شيئاً على وجه المقارنة في هذا المجال ، فهو أن الإغريق انتهوا ولكن العرب والمسلمين لم ينتهوا ، وأن اللغة اللاتينية ماتت ولكن اللغة العربية ما تزال حية متفاعلة . ولذلك يمكن أن يقال بالنسبة لماضي الإغريق ولغته اللاتينية أنه « ثراث » وليس كذلك بالنسبة للغة العربية وفكرنا العربي الإسلامي .

(ثالثاً) النظرة إلى الإسلام على أنه « دين » .

يبدو خطأ هذه النظرة في التعرف على حقيقة الإسلام وجوهره ، وقد اقتنع كثير من كتاب الغرب بأن الإسلام دين وحصارة وفكر ومجتمع وفي مقدمتهم جوستاف لوبون وجب ، فالحالة التي يجريها التغريب في عشرات من القضايا كحكمة الإسلام على نفس الأسس التي حوكت عليها « المسيحية الغربية » وهي غير المسيحية السمحة الأصلية ، خطأ فادح ومغالطة أكيدة . فليس الإسلام تراثاً ، وليست تركيا العثمانية هي الإسلام ،

وليس الإسلام عبادات وعلاقات بين الإنسان والله فحسب ، وليس في الإسلام طبقة معينة تدعى رجال الدين لهم في علاقاتهم بالإسلام حقوق أو تقوذ ليس لغيرهم ، وإنما يوجد في الإسلام علماء متخصصون والإسلام في صورته الحالية محبوب بالمسلمين ، فليست حياة المسلمين الآن تمثل الإسلام ، وليس هناك انفصال بين الإسلام والعروبة ، وقد اعترف بذلك موروييرجو (أستاذ الشرق الأدنى بجامعة برستون) في كتابه العالم العربي اليوم حين قال « إن العروبة تعني الإسلام ، وأن الابتعاد بالعرب عن الإسلام معناه انفصال البناء عن أساسه . وقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعني قوة الإسلام .

وقد دعا الإسلام أقدس دعوة « الإخوة العالمية والإنسانية » .

والإسلام منذ ظهر إلى اليوم وهو عامل مؤثر في جميع أحداث التاريخ ولم يكن الإسلام خادماً للمجتمعات والدعوات بل كان متميزاً بطابعه الواضح ومقوماته الأساسية ، ولقد كان ولا يزال مصدراً لكل حركات الحرية والتخلص من العبودية وتجربته في الجزائر وفي وسط أفريقيا تؤكد هذا المعنى .

رابعا : القول بأن نقل الحضارة يستدعي نقل الثقافة ، وهذا خطأ وعموه فليس نقل الحضارة يستدعي مطلقاً نقل الثقافة وفي رأى إجماع الباحثين - ماعدا دعاة التفريب والشعوبيين - أن الحضارة بطبيعتها قابلة للانتقال من أمة إلى أخرى ، أما الثقافة فهي خاصة بكل أمة على حده . فالثقافة فكر أمة مرتبط بروحها وضميرها ، أما الحضارة فذات طابع مادي وهي ملك مشاع للأمم . وهناك خلاف واضح بين « قيم » الفكر العربي الإسلامي وقيم الفكر الغربي ، أساس الأولى تزاوج الروح والمادة ، بينما يعتمد الفكر الغربي أساساً على النظرة المادية ، فضلاً عن أن الفكر الغربي يقيم أسس مقوماته وقيمه ومفاهيمه على مادية النظرة إلى الكون والحياة والإنسان ، وهناك خطأ واضح هو القول بأن الفكر العربي الإسلامي فكر رוחي لاهوتي خالص ، وأن قوتنا في إغناء الجانب الروحي وحده ، والحق أن فكرنا العربي الإسلامي يمثل امتزاج الروح بالمادة ، والعقل بالقلب ، بينما تضي ثقافة الشرق روحية خالصة وثقافة الغرب مادية خالصة .

وهناك فرق أيضاً بين العلم والثقافة ، فالثقافة مستقرة في انشور راسخة في الفطرة ،

والفطرة في الفرد كما هي في الأمم لها ميزات خاصة في الذوق ولها استمداد خاص لفهم الحياة والتمتع بها ، أما العلم فشاع لكل الأمم وكل الأفراد .

والواقع أن مقومات فكرنا العربي الإسلامي الأساسية تدفنا إلى أمرين يسيران جنباً إلى جنب .

(١) أن نفتح نوافذنا للفكر الإنساني الوافد فلا تتجاهله ولا نتقف منه موقف الحصومة .

(٢) أن نأخذ منه وندع على قاعدة الرشد الفكري .

وليكن موقفنا الغرب من الفكر العربي الإسلامي عند ما ترجمه ونقله حتى أول النهضة ، فقد أخذ منه ما يتفق مع شخصيته ومقوماته الأساسية ، أخذه مجرداً وحوله إلى كيانه ، ولم يأخذ « طابع » الفكر العربي الإسلامي ولا شخصيته ، ومعروف أن توماس الأكويني عمل على غربلة الثقافة الإسلامية وهو يترجمها وثار ضد نظرية ابن رشد بوضد القديس أوغسطين حتى يستطيع تصفية ثقافة الغرب مما يراه فكراً عربياً إسلامياً .

وقاعدة الفكر الإسلامي العربي أن يواجه المؤثرات الأجنبية على قاعدته فهو لا يقبلها مطلقاً ولا يدعها تسيطر عليه أو تنير ملامحه ، ولكنه يقبلها على قاعدة المعرفة المفتوحة الآفاق ، لا على قاعدة أنها عقائد أو ثقافات ، وعنده أن التوقف عن قبول المؤثرات الأجنبية مظهر للعجز ، وقبولها بدون تحفظ مظهر للنقص ، وفكرنا لا يريد أن يسقط في إحدى رزيلتي : العجز أو النقص .

ونحن ننظر إلى تجارب الآخرين وعيوننا على بلادنا وظروفها الخاصة ، ونستفيد من التجارب الإنسانية مع تفريق بين النظريات وواقع الحياة .

ومن هنا يبدو تفسير واضح لأزمة القلق التي يائنها المثقفون اليوم في العالم العربي والإسلامي ، والتي مصدرها الجنوح عن القاعدة الأصيلية للفكر العربي الإسلامي وهم يواجهون النظريات والمذاهب العالمية ، إنهم يسبحون بعيداً عن الشاطئ دون أن يكون معهم طوق النجاة ومن هنا يصابون بالدوار . إن الخطأ هنا في إقامة فكرنا على أساس « النظرية الجزئية أو المفهوم الغربي » .

أن سر القلق هو انفصال العقل عن الروح وهو لب لباب فكرنا العربي الإسلامي .
(خامساً) لا بد من إعادة النظر في بصمات التغريب في الفكر العربي قبل أن تتحول
إلى جذور ، يكون من شأنها أن تدمر القيم الأساسية أو تحل مفاهيم جديدة بدلا من
المفاهيم الأصلية ، فقد تصادف أن سيطر النفوذ الغربي على العالم الإسلامي والعربي في فترة
ضعف ثقافي وسياسي وعسكري ، وفي ظل هذا الضعف استطاع الغرب أن يفرض بعض
مفاهيمه أو يترك بعض بصماته .

ولا شك أن هذه البصمات ستحول دون كمال الشخصية الأساسية وامتدادها وقدرتها
على الإصالة وتكون بمثابة ثغرة يستطيع النفوذ الغربي التأثير والتمدد .
فن ذلك أننا نسمى عصارات فكرنا ومناخية **Legace** وما زلنا نسمى الإسلام
Religion مع خطأ هذه التسميات المستوردة ، أما عصارات فكرنا ومناخية من أدب
وتشريع وفلسفة فأنها مستمرة التأثير في فكرنا المتطور الحى ، فلا يمكن أن يوصف
بكلمة تراث إلا من توقف عن الحياة والحركة ، وهذا التعبير مأخوذ من الفكر الغربي
في نظره إلى الفكر اليوناني والروماني القديم المكتوب باللغة اللاتينية التي دخلت التحف
وفصل بينها وبين الفكر الغربي الحديث ألف عام ، أما في فكرنا العربي الإسلامي فليس ثمة فاصل
بين مراحله فضلا عن أن لغة هذا الفكر ما زالت حية متصلة نامية .
أما كلمة **Religion** فليست تعني في الفكر العربي كلمة دين التي تعنيها الكلمة العربية
وإنما تعنى مفهوما قريبا من أعمال الخير والبر .

(سادسا) خطأ عا كتنا إلى فترة الضعف في دورة التاريخ للأمة العربية والعالم
الإسلامي ، فالفكر العربي الإسلامي محجوب بأهله ، بعد أن انفصلت القيم عن الواقع ،
وكل ما يرى من وجوه الضعف في شخصية الإنسان العربي الإسلامي ليس مصدره
مقومات فكره الذي يمزج القيم بالواقع والذي استطاع أن يبنى حضارة ضخمة
حيه خملت لواء الحرية والمساواة والعدل والأخاء إلى العالم كله سبعة قرون كاملة كانت
أوروبا خلالها تعيش في الظلمات ، وكانت حضارة تطبيقية عملية للفكر العربي الإسلامي
الحى النامي ، وإنما تتمثل الصورة التي قامت للمجتمع في العالم العربي والإسلامي في فترة
الضعف على أسس الانفصال بين هذه المقومات وسقوط بعضها والمبالغة في بعضها الآخر ،

ومن هنا يمكن القول بأن مرحلة الضعف في العالم الإسلامي لا تمثل جوهر الفكر العربي الإسلامي كما هو في الحقيقة .

ففي خلال القرون الثلاثة الأخيرة انفصل العالم العربي الإسلامي عن مقومات فكرة وواقعنا اليوم ، فلم يعد يعطى حقيقة هذا الفكر أو جوهره ، فقد كانت حقيقته مضيتة وكانت تجربته متطورة ولولم تقف في وجهة الحوائل لحقق نتائج إيجابية عدلت من اتجاه الفكر الانساني .

ومع أن الدولة انهارت فقد ظل هذا الفكر حياً قوياً قادراً على الحياة والبقاء . ولقد كشف عن قدرة كاملة على الحركة والتطور ، وعلى البناء والتوليد ، وعلى الأخذ والعطاء ، وعلى امتصاص ثقافات الشرق والغرب وتحويل عصارته إلى كيانه الحي المستمر النمو .

وما تزال الثقافة العربية الإسلامية عنصراً أساسياً من أهم عناصر الثقافة الإنسانية لها طابعها الواضح المميز بين ثقافات اليونان والرومان والهند والفرس والغرب .

وليس في فكرنا طابع الانهزامية واليأس والضعف والاستسلام ، أو التجرد عن الدنيا والترهيد فيها والخلاص منها أو الدعوة إلى الرهبانية وليس في فكرنا طابع الجنس واللذة وعبادة الشهوة ، وكلاهما عليه دخيل ، أما طابع فكرنا الأصيل فهو الإيجابية والمقاومة واليقظة مما يتمثل في قول أقبال : « انهض فقد آن لآدم أن ينهض » .

(سابعاً) خطأ محاكاة فكرنا إلى مفاهيم الغرب في كلمات تجري كالمصطلحات منها كلمة « الهلال » التي تطلق على العالم الإسلامي أو الإسلام . والواقع أن هذا الاصطلاح مردود ، فقد كان الهلال أساساً شعار من الخشب أو المعدن اتخذته الرومان البيزنطيون شعاراً لدولتهم وأخذته عنهم الأتراك فهو شعار دولة وليس شعار أمة أو دين .

وخطأ الهجوم على « آسيا » واتهامها بالتأخر ، وهو قول لا يثبت للنظرة العلمية فقد قدمت آسيا للعالم سلسلة من الحضارات العريقة في المجد ، كالحضارة الأكادية والشميرية والبابلية والآشورية والمنية والهندية والصينية ، كما قدمت للإنسانية الدعوات البوذية والبرهمية والأديان : اليهودية والنصرانية والإسلام وخطأ الاصطلاح الذي يقول : شرق أدنى أو شرق الأوسط ، فإنما ذلك اصطلاح قائم على أن مركز السكون هو الغرب وذلك موقعنا بالنسبة إليهم ، لذلك نحن نرفض هذا الاصطلاح ونفضل عليه « الشرق العربي الإسلامي » .

بين الثقافة والمعرفة

ومازالت أعتقد اننا في حاجة إلى كشف الفرق بين المعرفة والثقافة ، فإن التغريب يحرص على أن تحل أحداها محل الأخرى ، وكل الذين تعلموا في مدارسه وبعثاته أحسوا بمحاولة إحلال مفاهيم غربية بدلا من مفاهيمهم بالنسبة لكل القيم .

وأما منا عديد من هذه التجارب ، فأحمد سكو توري في قلب افريقيا يقول : لقد تعلمنا نحن المثقفين الإفريقيين في مدارس الإستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك ونابليون وقرأنا أشعار لامرتين ومسرح مولير ، ودرسنا التنظيم الإداري لفرنسا كما لو كانت بلادنا إفريقيا دون تاريخ ودون واقع جغرافي ، ودون ثقافة ودون قيم ودون أخلاق .

وقد قدم الإستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذي يرى إنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعلم الإستعمار ، لقد أراد المستعمرون للمعلم الإفريقي أن يظل في سوية ثقافية منخفضة حتى يخرج تلاميذه على يديه أشد انحطاطا ، ولقد أراد المستعمرون للمثقفين الأفريقيين أن يفكروا بديكارت برغسون ، ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الأفريقي ، لهذا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الأفريقيين ، وإذا استمر الأمر بنا على هذا النحو فلن نستطيع أن نسمى شخصيتنا الافريقية التي هي الطريق الوحيد للنهضة في افريقيا »

٢ - وفي الهند يقول « هايون كبير » : كثيرا ما يقال إن اللغة الإنجليزية والآداب الإنجليزية هما خير هبة وهبتها إنجلترا للهند ، ولا شك إن ذلك صحيح إلى حد بعيد ، فالتأثير الإنجليزي في أزيائنا وعاداتنا وتقاليدينا الاجتماعية ، كان تأثيراً كبيراً ، ولكن التنير الذي حدث في تكويننا الفكري والروحي كان تغيراً بعيد الأثر ، اننا ننظر إلى الغرب بمنظار إنجليزي ، ولا نتصل الحياة الفكرية في أوروبا إلا عن طريق أنكلترا ، ولا تتدوق الأدب الأجنبية الا كما يتدوقها الإنجليز . بل اننا ننظر إلى الآداب الشرقية بمنظار إنجليزي »

٣ - وفي لبنان يقول امين الريحاني « إن في أكثر المدارس السورية اليوم روحا

اجنبيا من شأنه أن يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان ، لو استطاع لأبعدهم كذلك عن اللسان لقتل فيهم حب اللغة العربية ، وفي البلاد اليوم سياسة تعضد المدارس في خطتها فتوسع الثلمة بيننا وبين العرب وبلادهم ، والمدارس تنشر في لبنان : ان فرنسا أعظم ام الأرض ، هي أشرفها واغناها وأرقاها ، بل هي قطب المدينة وعاصمة النور ، كذلك كانت مدارسنا مثل امهاتنا تسقينا العلم في كأس التوبة ، هي كأس الجهل . ونسيت فرنسا إلا في آدابها . تلك الآداب التي زادتني ضعفا وترددا في مضار الحياة ، صرفتني عن حقائق الوجود المادية .

٤ - وفي الجزائر يقول بلقاسم النعيمي : لقد تخلصنا من الاستعمار الأوربي ولكننا لم نتخلص من القيود المادية ، فتأثير الحضارة الأوربية من الناحية الروحية والثقافية ما زال موجودا ، فنحن لا نزال تستعمل لغة مستعمرينا الأقدمين وعاداتهم وأخلاقهم وطرائقهم في التفكير والعيش ، وهذه العناصر قد تغلغت في تكويننا الروحي إلى حد بعيد بحكم التقليد وطول المعاشة . ولا يبدو أن هناك اتجاها جديا لتصحيح هذا الوضع ووضع الخطط للتحرر الروحي والعقائدي بعد التحرر الاقتصادي والسياسي . والسبب الرئيسي في أزمتنا يكمن في التصادم الحاصل بين قوتين متمتا كستين تجذبنا كل منهما إلى جهة مغايرة ، وإن شدة التناقض بين هاتين القوتين هي من الفاعلية والتأثير بدرجة تكاد تفشل معها محاولات التوفيق والتلاؤم التي وقعت منذ عشرات السنين بين الحضارة العربية الاسلامية وبين الحضارة الأوربية ، ويؤدي هذا التصادم إلى الرجوع إلى الماضي لتعرف كيف جرى الالتقاء ولماذا لم يفلح التعايش بينهما .

فالحضارة الأوربية منذ نشأتها عند اليونان والرومان يلاحظ أن الطابع الأساسي لانسان هذه الحضارة أنه ملتصق بالأرض وتكاثر تكون صلاته بالسما واهية ، ذلك لأن البيئة الطبيعية الأولى التي نشأ فيها وكونت قسما كبيرا من مقوماته النفسية والعقلية وطبعت حضارته بطابعها الخاص كان بيئة قاسية المناخ والتربة يسودها البرد والضباب معظم أيام السنة ، وتكتنفها الغابات القائمة والثلوج المتراكمة . كان هم الانسان في هذه البيئة التغلب على الطبيعة القاسية ، وحين احتاج إلى عون روحي مساعدة في كفاحه المرير ، خلق ألهة تمثل القوى الطبيعية التي تخيفه وترهبه وقدم لها القرابين والضحايا ليمثلها

ويستدر عطفها ، ولم يخط الأوروبيون خطوة واحدة إلى الأمام عن طريق التوحيد كما فعل الشرق ، ولكنهم لم يرو مانعا من اعتناق الديانة المسيحية التي وفدت إليهم من الشرق بعد أن حولها من عقيدة تراقب ضمير الإنسان وسلوكه إلى مجرد طقوس تعبدية يلجأ إليها الإنسان ليكفر عن خطاياها أو يستدر عطف الآلهة ولم يجعلوا للدين تلك الفعالية اليقظة التي تسير عمل الإنسان كما هو الشأن في الإسلام » .

٥ - ومن المغرب يبدو جانب آخر من الصورة يقول : ادريس الككتاني « أن التفكك الخطير الذي يجتازه التفكير الوطني في بلادنا اليوم هو بداية ثمار التعليم الفرنسي اللاديني المطعم بالسموم المدسوسة الذي حضر بعناية للقضاء على طاقاتنا الروحية والخلقية والفكرية التي هي عناصر استقلالنا وقوتنا ووحدتنا .

لقد مرت ثلاثة أعوام على استقلالنا لم يتغير فيها وضع اللغة العربية الدليل الأقليل بينما تحصنت اللغة الفرنسية في مراكزها أشد من تحصن الجيوش الفرنسية في ثكناتها . فلم تتخل عن شبر واحد من امتيازاتها وتقوذا ، لا في المدرسة الابتدائية والثانوية الإسلامية ولا في إدارات الدولة ومصالحها ولا في الشركات والمؤسسات العمومية ولا في أسماء الشوارع والأحياء المغربية ، فالمارشال ليوطي لا يزال قائما على فرسة وسط المدينة ، وتمثال الهزيمة المغربية مازال منتصبا أمام تمثال ليوطي فضلا عن احتلال ألف وثلاثمائة من الأعلام الفرنسيين لشوارع عاصمة المغرب يقضى بالموت على ألف وثلاثمائة علم مغربي عربي .

وشارع هكتور هيجو في الدار البيضاء يسكن فيه مائة منزل (٧٠٠ من المغاربة) يذكرون هذا الاسم كل يوم ، في خطاباتهم ، والطلبة في مدارسهم ، في أوراق وملفات الحكومة وسماة البريدو ويجد تلاميذنا أنفسهم مدفوعين للاهتمام بدراسة شخصية فكتور هيجو باعتباره أحد معارفهم في الحى .

أن الشاعر الفرنسي فكتور هيجو لم يمت في فرنسا ولم يمت في تونس ، ولم يمت في الجزائر ، ولم يمت في المغرب ، إنه حي في أوروبا وأفريقيا وفي كل مكان توجد فيه

فرنسا ، مسكين أبو العلا المعري لا يعرفه أحد من سكان حيننا ولا المتنبى ، ألف وثلاثمائة من مواطنين أفرنسيين على واجهات شوارعنا وتغصب لهم التماثيل ، أدباء وعسكريون ورواد الاستعمار الأوائل .

وفي المغرب ١٨٠ ألف من اليهود المغاربة عمل الاستعمار على عزلهم عن الشعب المغربي وفرنسهم لغة وعاطفة ، وإخضع تعليمهم لإشراف مدارس الاتحاد الإسرائيلي ، وهي مدارس تابعة للاتحاد العالمي للجميات OR الذي يوجد له فروع في ٣١ دولة ليس بينها أى دولة عربية باستثناء تونس والجزائر والمغرب .

ونظم التعليم في بلادنا (١٩١٢ — ١٩٥٣) جعلتنا نعيش داخل قنينة بلعومها لا يمكن لمجرد إلقاء نظرة واحدة على ما يجري في العالم والتبعية اللغوية تستلزم تلقائيا التبعية الفكرية طالما أن الإنسان يفكر بواسطة اللغة » .

* * *

ولا شك أن هذه الصور المختلفة للتغريب الثقافي تعطى صورة الخطر التي يهدد الفكر العربى الإسلامى من ناحية قصور التفرقة بين المعرفة والثقافة وفى مدى الأثر الذى تحقته سيطرة التغريب بعد سيطرة النفوذ الاستعماري باعتبارها امتداد له .

وليس معنى التنصيص على هذا أثر التغريب يعنى الانفصال عن الفكر الإنسانى أو إغلاق الفكر العربى الإسلامى . ولكننا ندعو إلى أمر واحد هو بقاء شخصيتنا مستقلة أساساً ومقومات فكرنا قابعة أصلاً ومفاهيمنا سليمة ، دون انغزالية فى التفكير ودون ذوبان فى الفكر الأسمى . وصدق ساطع الحصرى فى قوله « أن الذين حاربوا بشدة السيطرات الثقافية التى فرضتها القوى الأجنبية على البلاد ، كانوا بعيدين جداً عن الانعزال ، ورغبتهم فى الاستفادة من ثقافات العالم لم تكن أقل من طموحهم إلى رؤية العالم العربى متمتعاً باستقلال يضمن ثقافة قومية عصرية موحدة » .

وغاية الأمر في هذا كله : (أولاً) هو أن تفكر بلغتنا أساساً ولا تفكر بلغة غيرنا ، والاستعمار الفكري يتسرب عن الاستعمار اللغوي ، باعتبار اللغة هي نافذة الفكر .

(ثانياً) أن ترتبط بمقومات فكرنا أساساً وفي ظل هذه المقومات نواجه الفكر الإنساني ونأخذ منه ونترك .

(ثالثاً) أن نحفظ بالحدود والتراث قاعدة لنا ، أن التطور لا يتم إلا على شريط ممتد من الماضي إلى المستقبل ، أن بناء الحاضر والمستقبل يقوم على قاعدة من الماضي وأن الذين ينكرون الماضي هؤلاء الذين ليس لهم تاريخ ، أن بعض الأمم الكبرى بدأت من القرن السادس عشر أما العالم العربي والإسلامي فله تراث ثلاثة عشر قرناً ولا يمكن أن يبدأ من القرن العشرين .

بين التسامح والتعصب

إن للقيم الإنسانية في كل ثقافة مفهومها أساسياً تختلف عن مفهومها في الثقافة الأخرى . ففي مجال الحرية مثلاً نجد المفهوم الغربي يختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم الفكر العربي الإسلامي . فالغربي يؤمن أساساً في جذور فكره بنظرية قديمة منذ أيام الحضارة الرومانية تقول « إن العالم هو روما وكل ما عداه عبيد » وقد تطورت هذه النظرية في ظل الحضارة الغربية على نحو تمثل في نظريات متعددة .

(١) الرجل الأبيض : فالإنسان الأبيض لا الإنسان عامة هو وحدة تاج الخليقة وأن النصر له في كل صراع بينه وبين عدة من الأجناس الملونة ، وعبارة الكاتب الأمريكي الأشهر شتاينيك في هذا هي « الرجل الأبيض لا يفلب » وهم حين يكتبون تاريخ الحضارة ينقلونها بين الشعوب البيضاء ابتداءً من شعب اليونان إلى الرومان والطلليان والجرمان ثم ينكرون فضل الفراعنة والبابليين والعرب والمسلمين ، وعندهم أن أي شعب ملون يسيطر على قيادة العالم لا بد أن ينهار ، لأن أصحابه ليسوا من الجنس الأبيض . وقد كان ذلك موقفهم من العرب والمسلمين والصين .

(٢) السامية والإدارية : وقد استخدم الاستعمار الغربي هذه النظرية على نحو مفتعل . وقد كانت أساساً نظرية لغوية ولكنه نماها وأعطاهها القوة ونشرها بوسائله ليثبت أن الجنس الأري الذي منه الغرب أرقى من الجنس السامي الذي يستعمره الغرب .

أما الحرية في الفكر العربي الإسلامي فتتمثل في تساوى النظرة إلى الأبيض والأسود والعربي والأعجمي . وكون المفاضلة إنما تكون بالعمل .

وأبرز مظاهر الحضارة الغربية أنها تجعل نموها لأهلها وثقافتها لأهلها وقد أكد كثير من الباحثين على أن الثقافة الغربية في محتواها العلمي والأدبي والفني والصناعي لا ترمى إلى خدمة « الإنسان » من حيث هو بشر بل إلى خدمة الإنسان الغربي قبل غيره وعلى حساب غيره .

ومن غرور الإيمان بسيطرة الفكر الغربي على الفكر الإنساني كله والفكر العربي الإسلامي بوجه خاص أن يعتقد الغربيون بأن نظرياتهم ومذاهبهم حقائق زاهية يجب على العالم أن يتقبلها ، بينما هم أنفسهم مضطربون بين قبولها ورفضها وبين التحول من نظرية إلى نظرية دون إقرار شيء .

ومن نظرة الغربيين إلى العالم وتقسيمه إلى رومان وبرابرة ظهرت فكرة التعصب الغربي والعداء للفكر العربي الإسلامي والدعوة إلى التغريب والتبشير والغزو الثقافي في محاولة لإخراج العالم الإسلامي والعربي من مفاهيمه الأساسية لكل القيم الإنسانية .

ولقد يتحدث الفكر الغربي كثيرا عن التسامح والتعصب . فالتسامح دعوة جميلة يدعوننا إليها دائما ، والتعصب اتجاه ذميم ولكن متى كان الفكر الغربي متسامحا غير متعصب .

إن تعصب الغرب يبدو في عشرات من المسائل . يبدو في إخراج العرب والمسلمين من أوروبا ، ومعارك تصفية الأندلس ومعارك تصفية أوروبا من الأتراك معروفة لكل باحث ، وإيمان الغرب تعصبا منه بأن لا يكون في أوروبا فكر عربي ولا عرب ولا مسلمين أمر لم يعرفه العرب والمسلمون في بلادهم وكان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك بالنسبة لغير العرب والمسلمين .

وتعصب الغرب في إنكار دور العرب في الحضارة وأثرهم فيها ومحو أثر العرب من العلم العربي عند نقله إلى الغرب بدل دلالة واضحة على ما يتميز به الفكر العربي من تسامح .

وليس الحديث عن المساواة والاخاء والحرية والتسامح في الفكر الغربي إلا باعتبار واحد ، هو أن هذه القيم خاصة بالجنس الأبيض وجده ، هؤلاء الصفوة الذين وكلت إليهم قيادة العالم .

وصورة التعصب والتسامح تبدو واضحة في النظرة إلى الخلاف بين المذاهب ، فقد اختلفت المذاهب في العالم العربي الاسلامي دون أن يكون ذلك مدعاة لأي صراع ، أما في الغرب فقد كان الصراع بين المذاهب يصل إلى ذروة التعصب ، وقتال الكاثوليك والبروتستانت الذي امتد سنوات في هولندا لاتحاد الحركة البروتستانية معروف ، وقد قتل ٢٥ ألف بروتستانتي في فرنسا ، وكذلك حرب الامبراطور فردينان لمحو البروتستانية من ألمانيا ، وما أدى إليه من تدمير خمسة أسداس القرى والمدن الألمانية وقتل ١٢ مليون نسمة . هذا بالإضافة إلى الصورة البشعة التي سجلها التاريخ لحاكم التفتيش ، كل هذا من شأنه أن يعطى صورة التسامح والتعصب بين الفكر الغربي والفكر العربي الاسلامي .

وتبدو صورة التعصب الغربي واضحة في قول مونتسكيو :

« إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدا فأني أقول أن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تبدأ من أن تستعبد شعوب أفريقيا لكي نستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة ، وهذه الشعوب ما هي الا جماعات سوداء البشرة لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله وهو ذو الحكمة السامية قد خلق روحا طيبة في جسم حالك السواد » .

وقد صور هذا التعصب « جوستاف لوبون » حين عرض لدور العرب والمسلمين في الحضارة الانسانية وقال : أن حرية الفكر في الغرب تحتمل لدى الأوربي عندما يمتد فكرة إلى بحث فكر العالم الاسلامي ، فالفهم الصليبي العميق الأثر في النفس الغربية يحول دون حرية الرأي في الاسلام ويحول دون قيام أي محاولة حرة لاعطاء الاسلام والفكر العربي الاسلامي ما يستحق من التاريخ والحياة .

وقال : أن الدراسات الإسلامية التي تناولها الأوروبيون منحرفة ومشوبة بما ينافي منهج العلم من الذاتية والتعصب .

ويبدو مفهوم التعصب والتسامح في موقف الفكر العربي الإسلامي من الفكر الغربي وبالعكس . ففي الوقت الذي يواجه الإسلام والعروبة واللغة العربية بالازدراء والنقد والتشكيك على ما فيهما من صلابة وتغاسك وقوة لا يوجه الفكر العربي الإسلامي مثل هذا الازدراء والاحتقار إلى الفكر الغربي ولا إلى أوروبا ولا إلى المسيحية الغربية . وفي الوقت الذي يعمل الغرب على تمزيق القيم العربية الإسلامية وإثارة الشبهات حولها لا يجرى فكرنا في نفس التيار ألا يقدر ما يحاول الرد على ما يهاجم به .

نعم ؛ لم يقف الفكر العربي الإسلامي موقف التعصب والبحث عن الثغرات بل أبدى التكريم للمسيحة والتقدير لروائع الفكر الغربي واختلف مع جوانب معينة وهذه آية التسامح الحق .

وتبدو صورة التعصب والتسامح واضحة في موقف الغرب من العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية إلى اليوم ، يبدو ذلك في إقصاء روح الفكر العربي الإسلامي عن الفكر الغربي مع الانتفاع بكل ما أضافه الفكر العربي وإنكار فضل العرب والمسلمين ، وتحويل منهج الفكر العربي الإسلامي في البحث العلمي إلى منهج غربي مع عدم الاعتراف بفضل الحضارة والثقافة العربية الإسلامية . ويطلقون كلمة القرون الوسطى المظلمة على فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، مع إنكار مرحلة الحضارة العربية الإسلامية الوسطى بين الحضارة الرومانية والحضارة الغربية ، هذا إلى تتبع القضايا الفكرية العربية الإسلامية بالتشكيك والاتهام والاستنقاص . وإثارة حملة من الشبهات حول الإسلام ، واللغة العربية ، والتشريع الإسلامي والوحدة الفكرية بين العالم العربي ، والدعوة إلى هدم الأخلاق والقيم ، إثارة دعوة الاقليمية والأمية والاحاد والعلمانية والاباحة .

ثم محاولة الحكم على الاسلام بأنه دين لاهوتي ، وإنكار كونه حضارة وثقافة ومجتمع ،
ثم محاولة فصل الفكر العربى الاسلامى فى جوهره عن الحياة فى مجال القانون والاجتماع
والاقتصاد واتهام الفكر العربى الاسلامى بالتجريد والغيبية ، وتحريف تاريخنا وتحطيم
أعلامنا وتحويل تيار الترجمة . من الإيجابية إلى الإنحراف .

ومن أساليب التعصب والتسامح فى الفكر العربى قولهم أن الفلسفة العربية ليست
إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية وعشرات أخرى من الاتهامات الجديدة
بالكشف عن وجه الحق فيها . . .

محاولات التغريب

لماذا حرص الغرب على غزو الفكر العربى الإسلامى وإخضاعه لسيطرته بوسائله
الثلاث : التيسير والتغريب والشعوبية ؟

للإجابة على هذا لابد من العودة إلى عام ١٩١٨م عندما وقف اللورد اللبى في « القدس »
بعد أن دخلتها جيوش الحلفاء وأعلن كلكته العربية اننى أثارى الدهشة : قال : « الآن
انتهت الحروب الصليبية ».

وكانت الحروب الصليبية قد انتهت عام ١٢٩١م ومضى عليها أكثر من سبعة قرون
غير أن الغرب لم ينس أنه مطالب فى يوم من الأيام بإعادة السيطرة على العالم الإسلامى
مرة أخرى ، فإذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت فى ذلك من قبل ، فإنها استطاعت أن
تحقق ذلك عام ١٩١٨ حينما آتت قوى الإستعمار الغربى : الفرنسى والانجليزى والايطالى
والهولندى سيطرتها على العالم الاسلامى .

والواقع أن هذه السيطرة العسكرية كانت الخطوة النهائية لحماة ضخمة قام بها الغرب
فى سبيل تأكيد تفوقه منذ أوائل القرن التاسع عشر بغزو بريطانيا للهند وهولاندا
لا أندونيسيا ، وفى العالم العربى عام ١٨٣٠ حين دخلت فرنسا والجزائر . ثم كيف أحيطت
الدولة العثمانية بنفوذ خنى وسلطان دخيل فى مختلف أقطارها وحول مقر الخلافة نفسه .

ولقد كان الغرب منذ بدأت نهضته الصناعية قد ربط بين الحضارة والاستعمار
وولى وجهه نحو العالم الإسلامى كرجال حيوى للسيطرة على موارد الخامات وسوقا لبيع
منتجاته . ومن هنا كان من الضرورى عليه أن يسيطر سيطرة كاملة على هذه المنطقة
التي تقوم فيها الثقافة العربية الاسلامية بجذورها المتصلة بالاسلام واللغة العربية
والقرآن ، وحيث كانت هذه المنطقة مهبط الأديان السماوية الثلاث وكان الإسلام بطابعه الواضح

فى المزج بين المادية والروحىة على نحو لم يعرفه الغرب الذى تقوم ثقافته وحضارته على المفهوم المادى الخالص ، وحيث تبدو صورة الشرق (وهو ما يسمى الأقصى) وثقافته تقوم على أساس المفهوم الروحى الخالص .

ولقد كانت ثقافة العالم الاسلامى المستمدة من مفاهيم الاساسية تقوم أساساً على روح الحرية والعزة والقوة والجهاد ومقاومة كل من يحاول السيطرة عليها أو اغتصاب مقدراتها . ولذلك فقد كان النفوذ الغربى حفياً بأن يقضى على هذه القومات الاساسية بافسادها وإدخال الشبهات والشكوك والزيوف إليها على نحو علمى دقيق منظم .

ومن هنا بدأت حركة « التغريب » تنمو فى ظل التبشير والاستشراق ، وتجربى محاولتها الاساسية فى إفساد مفاهيم الاسلام واللغة العربية والقرآن وتزييف التاريخ . وإدخال مفاهيم ومفاهيم مضطربة مختلفة متناقضة ودعوات متعارضة تحمل ألوية الأخاد والإباحة والتحلل والشعوبية ، وتدعو إلى الاقليمية والقومية الضيقة والجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية وتخلق دعوات الفرعونية والبابلية والأشورية والفينيقية والبربرية على نحو مثير غريب لاحد لاندفاعه وتحوله .

ومن خلال حركة « التغريب » برزت دعوة « الشعوبية » التى تقوم أساساً على احتقار التراث العربى الاسلامى ، وبث الشكوك فى التاريخ والأدب واتهام الاسلام بالقصور ، والعروبة بالنقص .

ومن هنا تداخلت حركة التغريب والشعوبية تداخلا خطيرا . وفيها يحمل اللواء كتاب غربيون ومستشرقون ويتبعهم كتاب من العالم العربى والاسلامى ، وتقوم عليها صحف واسعة الانتشار ودور نشر ضخمة فى بعض العواصم العربية تُصدر مؤلفات أنيقة ومجلات راقية ، وتظاهرها هيئات ثقافية ودور تعليم ومعاهد وجامعات .

وأبرز ما تهدف إليه حركتى التغريب والشعوبية تغيير المفاهيم الاساسية والقيم الأصلية للأمة ، وإلقاء بذور الشبهات حول كل قيمة ومفهوم ، فى مجال الفكر والدين والاجتماع والتاريخ .

وهي تحاول أمرين خطيرين :

الأول : إدخال مفاهيم الغرب للقيم الأساسية .

الثاني : إحلال قيم الفكر الغربى محل قيم الفكر العربى الإسلامى فى مجال المجتمع والمرأة والدين والنظم السياسية والاقتصادية .

وليس شك أن محاوله فرض مفهوم واحد من مفاهيم الغرب لقيمة واحدة من قيمنا كالدين مثلاً ، من شأنه أن يخلق أثراً بعيداً المدى فى كل مجال الفكر والمجتمع والحياة . فالدين فى المفهوم الغربى يختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم الفكر الإسلامى ، فضلاً عن أن الإسلام ليس ديناً فحسب ولكنه دين وفكر وحضارة .

وليس شك أن كل قضايا الانسان والحياة والمجتمع فى نظر الفكر العربى الإسلامى الذى يقوم على أساس المزج بين الروح والمادة يختلف عن وجهة نظر الفكر الغربى الذى يقوم أساساً على المادية ، هذا الاختلاف الجذرى من شأنه أن يجعل لنا وجهة نظر مختلفة عن الغرب فى كل مسائل الثقافة والتربية والمجتمع والأخلاق .

ومن هنا يبدو مدى خطأ قبول مفاهيم الفكر الغربى للقيم الأساسية .

• • •

وقد امتدت حركة التغريب فى ظل حركات التبشير والاستشراق ، واستطاعت أن تسكن لها مراكز وقوى ودعاة وأعوانا فى ظل قيام النفوذ الاستعمارى ، فلما بدأ ينحسر هذا النفوذ باستقلال أغلب دول العالم الإسلامى اليوم بدأ نفوذ التغريب أشد قوة فى ظل الدعوة إلى التجديد والتطور والعلمانية والحضارة ، وقد وجد فيها منافذ إلى فرض وجهة نظره وتأكيد هدفه فى مقاومة بقاء القيم الأساسية للفكر العربى الإسلامى بما يمكنه التشكيك فيها وتدميرها . وإفساح الطريق لفرض قيم جديدة . وهذا ما أطلق عليه الغزو الثقافى أو الاستعمار الفكرى ولا شك أن محاولات التغريب وجدت طريقها فى ظل بعض الأفلام السينمائية الأجنبية المتحللة والكتب الغربية المترجمة

والروايات والصحف والمجلات وأن تجد من كثير من ذوى النفوذ في بعض أقطار العالم العربى من أدباء ومشرعين واقتصاديين وأساتذة فى الجامعات ورؤساء تحرير الصحف ركائز لها وأدوات للانطلاق والبث .

وقد استطاعت حركة « التغريب » فى مرحلة السيطرة العسكرية والسياسية على العالم العربى الاسلامى أن تحقق كثيرا من النتائج . وإذا كانت قد بدأت أول أمرها بالتبشير الذى أثار كثيرا من الاضطراب ، وواجهه العالم الاسلامى والأمة العربية بالمقاومة والتحدى ، فإن التغريب لم يلبث أن غير خطته وأخفى هدفه وراء مظاهر البحث العلمى وأضمر محاولته فى ظل مخطط ضخيم قوامه الفكر والأدب ، وفى هذه المرحلة حرص على أن يتفادى الاصطدام بالمواجهة أو المعارضة . وإنما اتخذ أسلوبا من الخداع دقيق المدخل ، ومن هنا تحولت كتابات المستشرقين والمبشرين إلى إبراز مظاهر الاعجاب والتقدير للغة العربية والاسلام والشرق والغرب ، فى مقدمات تستطيع أن تخدع البسطاء ، ثم لا تلبث هذه الدراسات أن تتسلل إلى الهدف بالتشكيك فى المقومات الأساسية وإثارة الشبهات والريب فى العقائد والقيم .

وقد استعانت حركة التغريب فى هدفها هذا بمئات من المخطوطات والمؤلفات والكتب القديمة التى اغتصبت وسرقت من بلادنا على فترات طويلة فى ظل النفوذ الغربى وأرسلت إلى مكتبات لندن وباريس وغيرها ووضعت تحت تصرف الباحثين الذين كانوا يعملون وفق خطة مرسومة فى وزارات الاستعمار الغربية . فقد استغلت كثير من الأبحاث والمؤلفات التى كتبها الشعوبيون القدامى فى حملتهم على الفكر العربى الاسلامى ، وهى مؤلفات بادت فى الأغلب ، ورد عليها الباحثون العرب كالجاحظ وأبو حيان التوحيدي وغيرهم وفندوا ما فيها من اتهامات وأخطاء وزيف ، ومن هنا يبدو مدى تأمر بعض المستشرقين وكتاب الغرب فى استغلال هذه الاتهامات وإعادة توجيهها إلى الفكر العربى الاسلامى وإثارتها فى أسلوب جديد على أنها قضايا أساسية . وإتخاذها سلاحا للتشكيك وإثارة الريبة بين المعاصرين عن ماضيهم وتاريخهم وقيمهم .

هذا فضلا عن ما قصد إليه دعاة التغريب من إبراز جوانب معينة من الثقافة العربية الإسلامية والدعوة لها . وآية ذلك الاهتمام بكتاب الأغاني (للأصفهاني) ومحاولة اعتباره مرجعا أساسيا للأدب العربي القديم بل وللتاريخ الإسلامي، مع أنه واحد من كتب الترف والترفيه ، ولم يقصد كاتبه قط إلى أن يجعله مرجعا للبحث العلمي ، ولكن الترفيه استطاع أن يجد باحثا كالذكثور طه حاول أن يرسم من خلاله صورة للعصرين الثاني والثالث الهجري فيقرر على ضوء دراساته لبعض الشعراء الماجنين كأبي نواس والضحاك . . . أن هذا العصر كان كله عصر شك ومجون .

ومن هذا يبدو الاهتمام بالأساطير المتصلة بالسيرة النبوية وإعادة بعثها وأحيائها لخلق الاضطراب والشبهات حول حياة النبي ومنابع الاسلام . وكذلك ما أولى التغريب من اهتمام بربايعات الخيام وكتاب ألف ليلة وليلة وخريات أبي نواس الذي كتب عنه أكثر من عشر دراسات تحليله وصدر عنه أكثر من عدد خاص من مجلات كبرى وكان فنه هو أبرز موضوعات مؤتمر المستشرقين بروما عام ١٩٦٤ وكذلك الشاعر بشار ، وفي مجال « التصوف » أولى التغريب اهتمامه بالشخصيات المضطربة المثيرة ، البعيدة عن حقيقة التصوف ومفهوم الاسلام كالجلال وابن عربي والسهروردي . ثم ما اتصل بذلك من هدم شخصيات ضخمة في الفكر العربي الاسلامي كمهاجرة المعري وابن خلدون والمتنبي ، فقد وضعت دراسات « علمية » حاولت التشكيك في عظمة هذه الشخصيات الثلاث وإتهام بعضها بالاضطراب . وقد عني الذكثور طه حسين بأن يهدم المتنبي من ناحية الشك في أبوته واعتباره لقيطا ، كما حاول من التهوين من قدر ابن خلدون ومكانه في التحليل التاريخي وريادته في علم الاجتماع .

* * *

ثم جرت المحاولات إلى التفريق بين العرب والمسلمين في مجال الحضارة الإسلامية وإثارة نزعات العصبية الجنسية التي لم يعرفها الاسلام . ثم محاولة رد التراث العلمي الاسلامي العربي إلى أصول بعيدة كالفرس والهنود واليونان والبيزنطيين وإثارة نظرية السامية والآرية والتركيز عليها وتوجيهها إلى العرب وعقليتهم وفكرهم . ثم إثارة عمليات الكشف الأثرى واستغلالها في تمزيق وحدة العالم

الإسلامى والأمة العربى فى محاولة لتصوير تاريخ كل قطر وكأنه مستقل عن القطر الآخر أصلا ، له مميزاته وتاريخه ومظاهره وحقائقه . مع أن هذه الأمة كلها ذات تاريخ واحد له طابع واحد أساسه فكرها العربى الإسلامى الموحد ، وأن ما يبدو من خلافات إقليمية ليس إلا مظاهر طبيعية فى تباين البيئات لا ترقى إلى درجة الفوارق العميقة الجذرية . ثم اتجهت دعوة التغريب إلى الماضى القديم السابق للتاريخ الإسلامى فى كل قطر ، فأولت المغاربة الاهتمام بالماضى الفينيقي والرومانى ومصر بالماضى الفرعونى ولبنان بالماضى الفينيقي ، والعراق بالماضى الآشورى .

ثم كانت محاولة ربط عبقرية أعلام كل وطن بالأرض لا بالثقافة الإسلامية العربية الموحدة قال فردوسى والغزالي فارسيان الفارابى تركى ، وهكذا .

ثم جرى التغريب على خطة الاهتمام الواسع بدراسات عن العالم الإسلامى قبل الإسلام وإبراز مخلفاته التاريخية ومذاهبه وأديانه وفرقه ونحله والاهتمام بالحركات الهدامة فى تاريخ الإسلام كالباطنية والقرامطة والخزمية والبابكية والتوسع فى دراستها . ثم الاهتمام بالنزعات التى لا تتصل بجوهر الإسلام لإثارة الشكوك والاضطرابات ، ومن هذا التركيز على نزعات التصوف المتطرفة والفلسفة المفرقة ودعاة الإلحاد والحلول والفرق المنحرفة المنسوبة إلى التشيع اهتماما بالغا .

ثم نجد من المحاولات التغريبية ما يذهب إلى أبعد مدى ، فهناك من يسقط المدنية العربية الإسلامية إسقاطا كاملا ، ويرى أن العالم لم يشهد بعد حضارة الرومان غير حضارة أوربا . وأن الفترة بين الحضارتين ما هى إلا (القرون الوسطى المظلمة) ثم هناك أنكار وتجاهل لأوليات الفكر العربى الإسلامى فى مجال الجغرافيا والطب والفلك ، ثم إنكار فضل الفكر العربى الإسلامى فى الفلسفة والعلم . وكل ما يتصل بالفكر ، وإبراز النظرية التى تقول أن اليونان هم أصحاب الفضل على الفكر العربى ، ثم إثارة نزعات الفلكلور ، وإقليمية الأدب واللهجات العامية والكتابة بالحروف اللاتينية . والدعوة إلى الأمية والعالمية وإفساد خطة الترجمة بتحويلها عن الجانب العلمى إلى جانب القصص المكشوف .

وأثاره دعوات جديدة كالبهائية والروحية الحديثة ، وتمزيق وحدة الفكر العربى

الإسلامى بعزل الأخلاق عن التربية ، والدين عن الأدب ، وإثارة عשרات من الدعاوى،
الإلحادية والإباحية ، ومحاولة ترتيب نهضة العالم الإسلامى والعربى على الغزو الغربى .

* * *

وهكذا جرت حركة التغريب وفق مخطط منظم لتدمير القيم الأساسية للفكر العربى
الإسلامى بمحاولات متعددة مستهدفة أن يكون التغريب هو حمل العالم الإسلامى
على قبول ذهنية الغرب ومذاهبه وقيمه ، بدلا من ذهنيته ومذاهبه الأساسية.
وذلك بتزييف التاريخ وتشويه مبادئ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية وانتقاص الدور
الذى قام به فى تاريخ الحضارة الانسانية وخلق الشعور بالنقص والشك فى النفس العربية الإسلامية.
ومحاولة حملهم من هذا الطريق على الخضوع لوجهة النظر الغربية ، وذلك بالعمل على
إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية فى ماضى هذه الأمة مع الاستخفاف بها
ومحاولة ذمها ، وكذلك توهين القيم الإسلامية والغض من اللغة العربية الفصحى وتمزيق
الروابط بين أجزاء العالم العربى الإسلامى . ومحاولة غرس مبادئ التربية الغربية حتى
تشب الأجيال الجديدة مستغربة فى حياتها وتفكيرها وحتى تخف من نفوسها موازين
القيم العربية الإسلامية .

* * *

وقد عنيت حركة التغريب بأن تصور مرحلة بعد مرحلة مدى ما وصلت إليه من نتائج، ومنذ ثلاثين.
عاما صدر كتاب «وجهة الاسلام» الذى كتبه الاستشرق هاملتون جب ومجموعة من زملائه فتحدث
عما وصلت إليه حركة التغريب من إبدال النظم والقوانين وطرائق العيش ، وأشار الدكتور
هيكل — إذ ذاك — إلى « أن تغريب الشرق إنما يقصد به إلى قطع صلة الشرق بماضيه.
جهد المستطاع فى كل ناحية من النواحي ، تمزق صلة التفكير والعقيدة بين الماضى
والحاضر ، وصبغ ماضى الشرق بلون قائم مظلم يرغب عنه أهله ويرون فيه عاراً لهم ومن
هنا يرون أنهم عيال على الغرب يتطلعون إليه فى إعجاب وتقديس وعبادة وبروز فى خضوعهم
له شرفاً كبيراً » .

وقال الدكتور هيكل « أحسب أن كتاب الغرب قد نجحوا إلى حد كبير فى تصوير
تاريخ أمم الشرق بلون قائم ، وجعل أبناء الشرق أنفسهم يحسون أن بينهم وبين أيام مجددهم

الوفا من السنين تقضت كانوا أنمائها خاضعين لألوان من الذلة لا يستطيعون اليوم معها أن يشعروا شعوراً صحيحاً بمعنى الحرية أو بمعنى العزة القومية وأن هذا التصوير زائف في نظر التاريخ النصف .

وأشار الدكتور هيكل إلى محاوله حركة التغريب في تزييف تاريخ الشرق وإحلال النظم الغربية والتفكير الغربى في الشرق وإفناء شخصيته ، وقطع صلة حاضره بماضيه في التاريخ والعلم والتفكير ، وكذلك تزييف العقيدة حيث وكل إلى المبشرين أن يقوموا بهذه المهمة الخطيرة . وأن يحملوا المسلمين على الاعتقاد بأن هذه العقيدة هى سبب تأخرهم وعدم بلوغهم مبلغ الغرب في حضارته .

وأشار إلى ما ذكره «شيخ المبشرين» زويمر في مؤتمر المبشرين الذى عقد في فلسطين عام ١٩٢٧ عندما أشار إلى أن التبشير قد وصل إلى اسمى غاياته في مهاجمة الاسلام ، وأنه أدى المهمة على أكملها ، وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية . وقال زويمر : أنه ليس غرض التبشير المسيحى هو إخراج المسلمين من دينهم ليكنوا مسيحيين ، فالمسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ، والتجارب دلت على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التى ترمى إليها هى إخراج المسلم من الاسلام فقط ليسكون ملحداً أو مضطرباً في دينه ، وعندها لا يكون مسلماً أى لا تكون له عقيدة يدين بها فلا يكون للمسلم من الاسلام إلا اسمه ، والملحد هو أول من يحتمر الاسلام والمسلمين ، وقال أن هذه هى اسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية .

وقال زويمر : لقد قضينا على برامج التعليم في الأقطار الاسلامية منذ خمسين عاماً فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الاسلام ، ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التى تخلق فيهم العقيدة الوطنية والاخلاص والرجولة والدفاع عن الحق .

وقال : الواقع أن القضاء على الاسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا منه أعظم الثمرات المرجوة « ا . ه .

وهكذا تتمثل دعوة التغريب في مرحلتها الأولى بعد أن انفصلت عن «التبشير» وهى تخطط

عن طريق (١) تزيف التاريخ وتزيف العقيدة وتزيف الفكر العربى الاسلامى بإثارة الشكوك فى المقومات الأساسية كاللغة والدين والتاريخ .

(٢) القضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى والقضاء على الدين بالذات كمقوم أساسى منها ، وانتزاع الإسلام من مكانه كقوة ذات فعالية فى الثقافة والمجتمع .

(٣) إفساد وتحويل أنظمة التربية والتعليم والقضاء على اللغة العربية والفصحى وعامود الشعر ، والتركيز على الاقليميات الضيقة والهيئات المحلية ومحاولة تصويرها بأنها ذات طابع خاص فى كل وطن وقطر وإقليم (٤) الفصل بين القيم الأساسية للفكر وتمزيق وحدة الإجتماع والأخلاق والأدب والدين والتربية .

وقد استطاعت حركة التغريب أن تركز على إقصاء كلمات «الإسلام» والدين والروحية ، كما استطاعت أن تزرع عشرات من الدعوات والمذاهب كالوجودية ، والشيوعية والقومية الضيقة والعلمانية ، والبهائية ، والفرعونية والفينيقية والشرقية والطورانية وظهر من مفكرى العرب والمسلمين من يدعو إلى وضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والحياة الآخرة موضع البحث وإخضاعها لقواعد علم النفس الحديث (آصف على فيضى) أو الدعوة إلى أن المدنية الأوربية كل لا يتجزأ ومن المحتم قبول الحضارة والفكر الغربى معاً « أحمد غايف (تركيا) وطه حسين (مصر) » .

ويبدو هدف التغريب أساساً متمثلاً فى القضاء على كيان وشخصية الإنسان فى العالم العربى والاسلامى بالقضاء على مقومات فكرة العربى الاسلامى الأساسية . ذلك أن دعوة التغريب كانت تقوم على أساس (١) التشكيك فى القيم (٢) تحويل المفاهيم (٣) الدعوة إلى الاندماج الكامل فى الحضارة الغربية (٤) القضاء على التاريخ والدين والتراث واللغة .

والواقع أن الفكر العربى الاسلامى فى جوهره ومنابعة الأولى فكر طليق متحرك قابل للتطور، متفتح للحضارات البشرية والثقافات الإنسانية، يأخذ منها ويعطى . ولو أنه واجه الحضارة والثقافة الغربيتين بحرية لأخذ منها وأعطى دون أن يحدث الانحراف الذى كان نتيجة النفوذ الأجنبى الذى فرض عليه بتقديم وجهات نظر تتعارض مع مناهجه وعقائده عن طريق التعليم الأجنبى والصحافة الخاضعة للاستعمار وهو ما تحررت منه مصر وبعض الأقطار العربية وما تزال بعضها الأخرى خاضعة له .

وأساس الخلاف بيننا وبين فكر الغرب أننا لا نرى الاسلام ديناً وحسب كما يرى الغرب المسيحية ، وإنما الاسلام دين وفكر ومجتمع . وأننا لا نرى خلافاً بين العروبة والاسلام فهما وجهين لحقيقة واحدة . ونحن لا نرى الحضارة كالثقافة ، فالحضارة ملك للإنسانية كلها ولكن الثقافة ثمرة روح الأمة ، والثقافة هنا تختلف عن المعرفة ، فالمعرفة عامة إنسانية والثقافة خاصة ونحن لا نؤمن بأن نقل الحضارة يعنى نقل الثقافة ، ولسنا نؤمن بأن ننقل أو نقبس ، إلا على قاعدة فكرنا الأساسية وعلى ضوء مقومات شخصيتنا وفكرنا فنأخذ ما يزيدنا قوة وحياة ونرفض ما سواه .

وينكر الفكر العربى الإسلامى «الأممية» ، والجرى مع التيار مما يمسح بشخصيتنا ، كما ينكر الجود ، وعنده دائماً من المرونة والحيوية ما يمكنه من التطور والتجدد دون تبعية أو اندماج ، ودون أن نكون ظلاً أو عملاء لثقافة ما من الثقافات ، فلنا ثقافتنا بمقوماتها وقيمها الانسانية العالية . وليس فكرنا تراث قديم ولكنه ثقافة حية متطورة مستمرة التأثير والفعالية . وليست لغتنا راكدة ولكنها حية قادة على الاستجابة ، وقد قام فكرنا أساساً على وحده شاملة لكل مقوماته ، فهو مرتبط بالتوحيد مؤمن بالإنسان سيداً للكون فى ظل الله ، وقد اتسق فكرنا على أساس مزيج رائع من العقل والقلب والعلم والدين والروح والمادة فليس هو روحية صرفه ولا مادية خالصة .

ومن هنا كان موضع الخلاف بينه وبين الفكر الغربى القائم فى كل مناهجه ومفاهيمه على المادية وبالرغم من أن معركة التغريب واجهت الفكر العربى الإسلامى فى مرحلة الغزو السياسى والعسكرى وفرضت عليه الغارة فرضاً ، وأعطت المعركة وسائلها الضخمة فى مجال التعليم والصحافة والكتابة وغيرها ، فإن فكرنا لم يستسلم وقاوم بكل قوة واستطاع أن يثبت وجوده ويؤكد شخصيته وقد اعترف دعاة « التغريب » بأن المخطط الذى توقعوه لم يحقق هدفه كاملاً ، وقال الفرد كاتول سميث فى كتاب (الاسلام) فى التاريخ الحديث :

« لقد فشلت تجربة الغرب في الاحتفاظ بتقدير الشرق ، فشله في أن ينشر مثله العليا وقيمته الفكرية وطريقة حياته فشله في تغريب الشرق . وقد كانت الطرق ممهدة فحين ابتدأ المسلمون في إصلاح أحوالهم فكروا أولاً مثل كل أمة لها تاريخ وليس لها حاضر في العودة إلى التاريخ ، فبرزت الاتجاهات السلفية إلى العصر الذهبي في الاسلام فظهرت دعوتان سلفيتان هما محمد بن عبد الوهاب والشاه ولي الله في الهند ثم ظهرت الدعوة الثالثة التي هزت أرجاء العالم وهي دعوة جمال الدين (الأفغانى) في منتصف القرن التاسع عشر فخلق جيلاً ضحماً آمن المفكرين المسلمين كانوا يعيشون بقلوبهم مع الإسلام وعقولهم مع الغرب . غير أن الغرب قضى على نفسه بنفسه ، وبحول الشعور بالاعجاب بالغرب إلى تقيضه حين تسمم جرح الكبرياء بالأحداث » .

الشعبوية الفكرية الحديثة

تتمثل الشعبوية الحديثة في الفكر العربي الإسلامي في صورة تختلف عن الشعبوية التاريخية . فهي تحمل معارضة صريحة للقيم الأساسية لفكرنا ممثلة في الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث ، وهي من أكبر ركائز التغريب والنفوذ الأجنبي ودعامتها ومن هنا تتشابه الشعبوية الحديثة مع القديمة في الهدف فقد كانت تلك تقذف آداب العرب وفكرهم بالاتهامات والشكوك وتنثر حوله الأحقاد ، وهي اليوم تتمثل في بعض الهيئات والمؤسسات والمنظمات المبتوثة في العالم الإسلامي والتي تحاول هدم الدين أو اللغة عن عقيدة أو تعمل في خدمة النفوذ الأجنبي والاستعمار .

وقد ظلت آثار كتاب الشعبوية القديمة مصدراً للحملة التي توقد على الفكر العربي الإسلامي إذ تثار اليوم نفس القضايا وتلقى نفس الشبهات والشكوك وتعلن نفس الجوانب والاتهامات والإسرائيليات المدخولة إلى التاريخ أو السيرة .

وقد واجه الجاحظ وابن قتيبة وابن دريد وابن عبد ربه وغيرهم هذه الاتهامات وردوا عليها بما يكشف الحقيقة ، ولكن الشعبوية الحديثة تتجاهل الحقائق وتحجبها وتعيد إثارة الشبهات وحدها . فالشعبوية اليوم هي « ثمرة » التغريب وأداته ، وهي ليست صراعا بين ثقافتين وسلطانين كما كانت الشعبوية القديمة بين العرب والفرس .

وإذا قيل أنها تمثل صراعا بين ثقافتين وسلطانين فإنما تمثل الشعبوية حملة ألوية التغريب ومحاولة فرض المفاهيم الغربية على القيم العربية الإسلامية ، وفي كل ماتعرض الشعبوية من.

أبحاث إنما تقصد به إلى التشكيك وإثارة البلبلة والغض من قدر التاريخ واللغة العربية والإسلام والإغضاء عن فضل العرب والمسلمين على الحضارة ، والانتقاص من بطولة الأبطال وعظمة الأعلام في مجال الفكر أو الحكم أو الحرب والإعلاء من شأن القيم الغربية والمفاهيم الغربية ، وفرض النظريات والمذاهب والدعوات الغربية التي تقضها الغرب عن نفسه ، والعمل على تجزئة الفكر العربي الإسلامي والقضاء على روح وحدته والفصل بين الدين والتاريخ والأدب والتربية ، والفصل بين الماضي والحاضر ، وفرض المفاهيم الغربية في مجال الدين والقومية والديمقراطية والاشتراكية وإذاعة قدر كبير من الفلسفات والنظريات والمذاهب الغربية المتعددة المتضاربة ، وخاصة ما يتصل منها بالتشكيك في القيم الروحية والمثل الإنسانية ، والتي تحاول أن تفرض : المادية ، والجنس ، والغريزة ، وتعرية الإنسان وتأكيد حيوانيته .

وعندنا أن حملة لواء هذه الدعوات هم شعوبيون ، وأن هذا العمل الذي يقوم به مستشرقون وكتاب من العرب أو غيرهم منبثون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي إنما هي الشعوبية وليدة التغريب التي تمثل المرحلة الثالثة للغزو الثقافي وكان التبشير حلقتها الأولى . فالحملة على تراثنا ، والتشكيك في تاريخنا ، والدعوة إلى العامية ، كلها حلقات من مخطط الشعوبية ما دامت تحمل طابع (١) الانتقاص (٢) الحقد (٣) التشكيك ، وكل كلمة لا تتوافر فيها صدق النظرة وإخلاص الرأي ووضوح الهدف ، تصدر عن قلم مجرح له ماضيه أو اتصالاته المشبوهة فهي دعوة شعوبية واضحة الهدف .

وفي هذا المجال يكشف علم « الجرح والتعديل » عن الكتاب والفكرين ومن تاريخهم وماضيهم يحكم عليهم ، فن كان تاريخه مرتبطاً بالتغريب — على أن يكون ذلك مؤيداً بالدليل والسند — فهو من دعاة التغريب .

وقد جرت محاولات الشعوبية وهي ممتدة في مجال الدراسات المختلفة في المعاهد والكتليات والجامعات في الوطن العربي والإسلامي إلى ما أسماه طه حسين « انتزاع الدراسات العربية من حضارة الدين والقرآن » وإلى الترويج للهجات المحلية وفرضها ودراستها في الجامعات والمجامع اللغوية ، ومن شأن الشعوبية إثارة الخصومات كما فترت ، وإحياء الخلافات والشبهات كما أسقطت بالرد عليها . وهي عاملة على التفريق بين أصحاب الأديان في الوطن الواحد ، وبين أصحاب المذاهب في الدين الواحد ، وبين الأقطار والأوطان والأقاليم ، بإثارة المارك والخلافات ، كما تعمل على إبراز دعوات الإلحاد والإبادة والتفرقة بالرأى ، وخلق وسائل الخلاف وإثارة الخلافات المذهبية والعنصرية والدينية وهدفها من ذلك كله تمزيق وحدة الأمة ، والتضاء على وحدة الفكر .

وتتفق الشعوبية الحديثة مع الشعوبية القديمة في أنها تريد أن تحول الفكر العربي الإسلامي عن طابعه وشخصيته وبساطته وأصالته ووضوحه ووحدة مقوماته .

وقد عمات الشعوبية على التشكيك في الدين عامة والإسلام خاصة وذلك بالتحريف ونشر الآراء الأجممية وإثارة الشبهات وتغليب الدعوات المنحرفة والمذاهب المضللة . والتشكيك في الحضارة العربية الإسلامية وإنكار فضلها على حضارة الغرب الحديثة ، والتشكيك في قيمة كل نتاج فكري عربي إسلامي وتفضيل النتاج الأجنبي ، ومحاولة التماس الوسائل لنسبة كل قول عظيم أو رأى حكيم أو نظرية إيجابية في مجال الفكر أو التاريخ أو العلم لغير العرب والمسلمين ، وكذلك التشكيك في الأخلاق والقيم ، وفي اللغة العربية وقدرتها على التعبير ، وفي قدرة العرب والمسلمين على القيادة والتوجيه ومحاولة تشويه التاريخ العربي الإسلامي .

* * *

وقد تناول كتباً بنا معركة الشعوبية الحديثة في عديد من الدراسات^(١) ويرى محمد المبارك

(١) هـد العزيز الدروى : جذور الشعوبية الحديثة . محمد جميل بيهم : العرب والشعوبيات الحديثة ، محمد المبارك : الأمة العربية في معركة تحقيق التراث . الدكتور عبدالقادر حاتم : الشعوبية العربية الحديثة .

أن الشعوبية في مرحلتها الحاضرة تتمثل في ثلاث تيارات (١) تجزئة البلاد العربية (٢) إذابة العرب في بوتقة كبيرة كحوض البحر الأبيض أو الشيوعية (٣) تجزئة الشخصية العربية بدلا من تجزئة الأرض .

ونحن هنا في مجال دراسة الشعوبية الفكرية يهمننا هذا الجانب فتجزئة الشخصية العربية تهدف إلى « فصل العرب عن تاريخهم وحضارتهم وتجريدهم من مثلهم ومبادئهم بصياغة فلسفة خاصة لقوميتهم تجافي روحهم وتقطع الصلة بماضيهم وتقيم بين حاضرهم وماضيهم حواجز لا تخترق ، فتفصل شخصيتهم الحاضرة فصلا تاما عن شخصيتهم التاريخية حتى في أشكالها الصافية وصورها الزاهرة . وتقيم من فلسفة فيخته ونيتشة ومازيني أو فلسفة الوجوديين فلسفة يقدمونها للأمة العربية لتستبدلها بفلسفتها الأصلية واتجاهاتها الفكرية ومفاهيمها الاعتقادية وعقائدها الدينية » (١) .

* * *

وفي خلال مرحلة نهاية الاحتلال للعالم العربي وقيام دعوة القومية العربية ومحاولات الوحدة بين أجزاء معالم العربي ، أخذ مخطط الشعوبية الفكرية يبرز على صورة أشد وضوحا وقوة ومضى يركز عمله على قضايا سبعة من أبرز قضايا فكرنا العربي الإسلامي .

(١) اللغة العربية : وذلك بالدعوة إلى تحريرها من الإعراب ، ومحاولة إحلال عامية الجماهير محل العربية ، وفي هذا ظهرت دعوة سعيد عقل إلى الكتابة بالحروف اللاتينية . ودعوة غيره إلى أن تأخذ اللهجات العربية طريقها لتصبح لغات وإلى إلغاء الإعراب في اللغة العربية وصيغتهم هي « هشموا الجملة العربية واستعملوا الأساليب الضعيفة عربيا » .

(٢) القرآن : وقد ترددت أقوال الشعوبية في وصفه بأنه « خلاصة تركييبة لمختلف الثقافات التي نشأت قبله .

(٣) الإسلام : وقالوا عنه أنه أصاب المنطقة العربية بالعمى لأنه دين صحراوي أقليمي .

(٤) العرب : وهم موضع اتهام الشعوبية بالأنحطاط واعتبار حضارتهم حضارة رمال .
والرمز للعرب بالرمل والتراب .

(٥) التراث : وقد جرت في شأنه نظرتان : محاربة التراث الاسلامي والاعتراف بالتراث العربي الجاهلي وكل تراث قبل الاسلام وإلقاء الشكوك والشبهات حول التراث العربي الاسلامي القديم وتحطيم القمم العالية فيه كأبي العلاء وابن خلدون .

(٦) الدين : وقد دعت الشعوبية إلى رفض الدين ومشتقاته من الآلهة والقيم والأخلاق .

(٧) الشعر : الدعوة إلى هدم عامود الشعر ونبد القصيدة العمودية لاتصالها بالتراث العربي .

(٨) التاريخ : محاولة تزييف التاريخ وإضافة صفحة بطولات إلى بعض الخونة وتزييف بطولات بعض المجاهدين .

(٩) بروز ظاهرة « الرموز الغريبة » .

وللشعوبية شق آخر ، هذا الشق هو رفض الحضارة الانسانية ومحاولة فرض مفاهيم قائمة على التعصب في المجال الاجتماعي والسياسي بينما يقوم الفكر العربي الاسلامي في جوهره على التسامح والاقناع المنطقي ، وهو كما يشجب التحلل والاحاد ، فهو يشجب أيضاً التعصب وفرض أى نظرة أو مفهوم بالقوة والعنف .

فالفكر العربي الاسلامي المفتوح لتقبل كل النظريات والمذاهب لا يحتقر الفكر الانساني ولا يخاصمة ، ولكنه يأخذ منه ويعطيه على قاعدة الرشد الفكري ، ويقدر له الثروة الضخمة التي أغنى بها البشرية ، كما لا يرفض الحضارة بل يعتبرها حضارة عالمية ويزاها ملكا لكل الأمم والشعوب ، وليست الديمقراطية والاشتراكية والقومية نظرات جديدة عليه بل إن لها جذوراً عميقة في فكره وله فيها مفهوم تقدمي مستمد من جوهر فكره ومرتبطة ببيئته وروح العصر .

وقد ظهرت هذه الدعوة مؤيدة بمجلات وصحف وكتب أنيقة ضخمة تصدر في بعض العواصم العربية استكتبت بعض الكتاب من العالم العربي كله . وتقوم عليها منظمات

ترتبط بالنفوذ الغربى والصهيونية. وقد اتخذت هذه الدعوة من كلمة ليفى أشكول قاعدة لعملها»
هذه الكلمة تقول :

« إننا لن نسمح بوجود لغة واحدة وشعب واحد ودين واحد فى الشرق الأوسط »
وفى ظل هذه الدعوة ظهرت عديد من المؤلفات والدواوين الشعرية تحمل على الإسلام
والعروبة واللغة العربية .

وقد واجهت القاهرة هذه الحملة بمقاومة علمية منهجية تمثل فيها الإيمان الصادق
بمقومات الفكر العربى الإسلامى والأمة العربية الواحدة ، وكان لها الدور الأكبر فى رد كل
دعوة شعوبية أو تغريبية وإعلاء قيم القومية العربية ومقاومة الشعوبية والتغريب المتمثلان
فى التعصب والجمود من ناحية أو التحلل والاعراق فى مهاجمة التراث والقيم من ناحية
أخرى ، هذه المقاومة تجرى وفق مفهوم واضح لا يميل ولا ينحرف مستمد من ميزان يؤكد
أننا نعيش بفكر مفتوح ولكننا لا نستورد ولا ننحرف .

وقد ركزت كتابات الشعوبية المهجوم على الجوانب الأخلاقية والفكرية والروحية ،
على نحو يحمل طابع السخرية والتشكيك فى مجال الشعر والقصة والنقد والدراسة الأدبية .

ومن كثير من النماذج والكتايب بدا طابع المهجوم على فكرة « الله » والسخرية
من الأديان ، وإبراز الرموز الوثنية والكنسية من أجل تشويه القيم الأساسية للفكر العربى
الإسلامى والأدب العربى .

ويقول الشاعر أنسى الحاج فى ديوانه « لن » : « أنا منذ ألف عام ونحن عبيد وجهلاء
وسطيحون ، والخلاص فى العمل الثورى هو (قصيدة النثر) التى تقوم فى جوهرها على رفض
كل المقدسات والبناءات المتعارف عليها وفى مقدمتها « الأخلاق » فالأخلاق تحمى من ممارسة
الإنسان لانسانيته وتمنعه من تفتح ذاته ونموها .

وتعتمد هذه الحملة على عبارة إسرائيل « أن القومية الحقيقية فى الشرق الأوسط هى القومية
الأقليمية وليست القومية العربية » وقد أعلن سعيد عقل فى مقدمة قصة « جلنار » التى

كثيها بالعامية اللبنانية ، أن لغة الشعر ليست هي صور الألفاظ وإنما هي موسيقيتها . ومن ثم يسهل استبدال الدراجة بالعربية ، وإستبدال رسم الحرف اللاتيني برسم الحرف الذي ورثنا . ومن خلال كتاباته يبدو اتجاهه الواضح الى الإقليمية الفينيقية ، حتى أنه يقول أن دمشق كانت عاصمة فينقيا اللبنانية . ويجرى في تبار اسماء « ميثولوجية لبنان » وتعطى كل هذه الكتابات التي تمثلها هذه الحملة (سعيد عقل . نزار قباني . علي أحمد سعيد (ادونيس) ، يوسف الخال) طابع « القومية السورية » التي حمل لوائها انسى الحاج وهي بهذه الصورة تتحول من ميدان السياسة إلى ميدان الفكر ، وتقوم على رفض الفكر العربي الإسلامي ومقاوماته الأساسية : العربية والعرب والإسلام ، التشكيك في التراث العربي الإسلامي والتركيز على القول بأنحطاط العرب وتشجيع الرفض لجوهر الدين ، والحملة على الإسلام باسم الفرعونية والوثنية ورموز المسيحية في ظل الامبراطورية الرومانية والفينيقية .

وقد أولى « جاك برك » في مقدمة كتابه مختارات من الأدب المعاصر اهتماما كبيرا لهذا التيار التغريبى الشعبوى وقال أنه توجد في بيروت مدرسة تعمل على التخلص من الفصحى وتطارد أى نوع من العروبة تشتم منه رائحة التراث ، وهي تقبل التراث الجاهلى والمسيحى وترفض التراث العربى الإسلامى .

وتحمل الشعوبية الحديثة الدعوة إلى وصل ما انقطع بين العرب واليونان وقبل اليونان عبر المسيحية ، على اعتبار أن هذا التراث « المتوسطى » هو خيرة الحضارة الإنسانية ومهددها .

ولا شك أن هذه الصورة تكشف هدف « الشعوبية » الفكرية الحديثة التي لا تخرج عن مفاهيم التغريب ودعائوية في كل ما يتعلق بالدين واللغة والتراث . وهي تعطى في مجموعها صورة الخصومة الحاقدة لكل قيم الفكر العربى الإسلامى سواء كانت هذه الخصومة مستمدة من فهم أو من تبعيه ، وهي على كل حال خصومه ليست ذات طابع علمى ولا تقوم على منهج واضح في مواجهة الحقائق أو نقدها . وهذا ما يجعلها غير جديرة بالنظر إليها أو احترامها .



الكتاب الرابع

نحن والحضارة الغربية



نحن والحضارة الغربية

لكي نفهم الحضارة الغربية المعاصرة علينا أن نسأل :

ما هو هدف الحضارات في حياة الإنسانية . والجواب معروف ، هو إتاحة أكبر فرصة للإسعاد الإنسان وترقيته ورفاهيته وتوسيع نطاق أفاق الخير والإنماء والسلام والحرية ونقله من البشرية إلى الإنسانية ، ومن هنا تمثل الحضارة قima عليا في محاولة تكوين الإنسان الكامل أو الإنسان الأعلى «السوبرمان» فإذا كان هذا صحيحاً — وهو صحيح — فإلى أى حد بلغت الحضارة الغربية في تحقيق هذا الهدف .

إن الحضارة الغربية قد بدأت دورتها منذ أوائل القرن الخامس عشر حيث كانت الحضارة العربية الإسلامية قد أوشكت أن تبلغ نهاية الدورة التاريخية لها . ونحن لا ننكر فضل الحضارة الغربية ولا معطياتها الباهرة لإسعاد الإنسان ورفاهية ولم يرفض الحضارة الغربية باحث منصف أو متمدن عصري ، ولكننا ندرس هنا ما طرأ من انحرافها عن خدمة الإنسان إلى تدميره ، ونراجع أوجه الخلاف بين نموها المادي وضمورها الروحي ، وما وقع نتيجة هذا الانقسام من أزمة كبرى يدرسها اليوم أساطين الفكر وهي «أزمة الإنسان أزاء الحضارة» .

ومنذ القرن الخامس عشر إلى اليوم (١٤٠٠ — ١٩٦٥) يمكن أن يسمى ذلك عصر الحضارة الغربية التي لم تلبث أن أصبحت الحضارة العالمية لارتباطها بالاستعمار وفرض سلطانها وتقوؤها على العالم كله . ولنا إلى الحضارة العربية نظر ثان : هل أسعدت أهلها ، وهل أسعدت الإنسانية .

ولكي نستطيع أن نعرف ذلك ، علينا أن نستعرض تاريخ هذه المرحلة وتطوراتها ، فقد بدأت الحضارة الغربية وهي تجمع بين الدين والعلم ، ثم لم تلبث أن انفصلت عن الدين إلى العقل إلى التجربة ومن المادية الداروينية إلى المادية التجريبية ، كادية هيغل وماركس ، وبرزت دعوتها إلى ديانة الإنسانية ، فعبادة الطبيعة فعبادة الإنسان في تحولات مستمرة لم تتوقف .

وقد كان لنجاح العلم التجريبي وظهور كشوفه الضخمة مادفع العقل الغربي الذي يقوم

على أساس وراثيات الوثنية الاغريقية والحضارة الرومانية والروح المسيحية أن يفلح مفاهيمه الاغريقية في عبادة الانسان والرومانية في اعتبار كل ما غير روما عبيد . وهنا غاضت روح المسيحية السمجة تحت تأثير قيود الكنيسة وقصور مفاهيمها عن الانفتاح على العلم وتطوره ووقوفها إزاءه موقف الخصومة .

ولم تكن الحضارة الغربية في جذورها إلا ثمرة للحضارات الانسانية التي مرت بالبشرية منذ فجر التاريخ، وهنا يصدق القول بأن الحضارة كالنهر يحتفظ باسمه على طول مجراه ولكن أمواجه وشواطئه هي التي تتغير وتبدل ، بتغير محطات الطريق التي تتمثل في المصريات الفرعونية والبابلية والفينيقية والهندية والصينية والآشورية والفارسية واليونانية والرومانية والاسلامية العربية .

وقد كان قوام الحضارة الغربية أساساً تلك الأوليات والكشوف التي حققها الحضارة الاسلامية العربية ، ومن هنا كان اتصال الحضارة الغربية بالحضارات التي سبقتها والتي تصادف أنها بدأت في الشرق (مصرية وفينيقية) ثم وصلت إلى الاغريق والرومان (الغربية الاسلامية) ثم عادت إلى الشرق ككرة أخرى متمثلة في الحضارة الغربية : ومن هنا كان هذا الاتصال مؤكداً أن هذه الحضارة قد شاركت فيها الأجناس والأمم المختلفة .

وقد كان من الطبيعي أن تكون الحضارة إنسانية النزعة ، وأن تعمل على نشر لوائها يحقق الارتفاع بالحياة الانسانية ويعطى أكبر قدر من عوامل الرقي في مختلف مجالات الحياة المادية والاجتماعية بما يزيد قدرة الانسان من السيطرة على الطبيعة مع ترقية النفس والفرار ومنح الانسان إنسانيته وروحيته إلى جانب ماديته وبذلك يتحقق عطاء الحضارة للعقل والروح والجسد معاً .

غير أن الحضارة الغربية لم تكن كذلك فقد ارتبطت منذ يومها الأول بالاستعمار فكانت قوتها الجديدة وسيلتها للسيطرة على الأجزاء غير — الغربية — وما سوى أوروبا من العالم واتخاذها مناطق تقودها ، وبذلك آمنت السيطرة على أفريقيا وآسيا وكان العالم الاسلامي والعربي هو مجال التركيز الضخم والأقوى .

وهنا تمثل الحضارة في السيطرة العسكرية والسياسية على هذه المناطق وتجريد هذه الأجزاء — التي تمثل الشعوب الملونة من حريتها ومن مواردها . فأصبح العالم الإسلامي العربية جزء منه والأمة مصدراً للموارد الخيام والتوابل والبتروول والمادن والمطاط وكل الخامات التي تتخذها وسيلة لادارة معانمها .

ثم تصبح هذه المناطق بعد ذلك أسواقاً لتصدير منتجاتها إليها ، وكان الاستعمار حقياً بأن لا ينقل إلى هذه المناطق المحتلة والتي أطلق عليها اسم « المستعمرات » إلا قشور الحضارة ، التي تركزت على الخور والزينة ووسائل إثارة الفرائز المختلفة كجزء من مخطط تغريبي مدروس يرمي إلى تدمير قوى هذه الأمم وقتل معنوياتها والسيطرة على ثرواتها في مجال المجتمع ، وقد حققت هذه المحاولات فعلاً سقوط معظم ثروات الأمم في أيدي المرايين وأصحاب الخانات الذين كانوا في الأغلب من الأجانب .

وبذلك توسع نطاق السيطرة الاقتصادية ، فإذا أضيف إليه الغزو الفكري والسيطرة العقلية عن طريق تحويل برامج التعليم والصحافة وبث قصص الجنس والمذاهب والنظريات الأدبية والاجتماعية والسياسية المضطربة تبين إلى أى حد كان هدف الاستعمار باسم الحضارة خلق قيادات جديدة خاضعة للاستعمار مرتبطة به ؛ وتبين كيف كانت الحضارة ذات أثر بعيد في استغلال الشعوب والأمم باسم الانسانية وحرية تمدن الشعوب .

وقد جرى اتجاه الحضارة على هذا النحو في ظل مفاهيم أساسية هي أن « الجنس الأبيض » هو الذي يحمل أمانة الحضارة وتمدن بين الشعوب وأنه لا بد أن يحتفظ بسلطانه وسيطرته ، وأنه لتفوقه العقلي وسلطانه المفروض بالقوى العسكرية والاختراعات لا بد أن يعيش في ذروة الشرف والرفاهية وأن تكون مختلف الشعوب الملونة في صفوف العبيد ، وأن تظل بلادها مصادر للخامات وأسواقاً للانتاج .

وقد صورت هذا الاتجاه الحكاتية الفرنسية « مدام سنت بوانت » حيث يقول : إني أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة إلى تزعم أنها أُلقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة ، أعنى المهمة التي ترمى إلى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه

الأرض بحيث تؤدي إلى الاتحاد ، ويمكن للإنسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غير ، وهما وسيلة حب الذات ووسيلة حب الغير ، أما الغرب فإنه لم يقع اختياره إلا على الوسيلة الأولى : وسيلة الأنانية وحب الذات ، وكان اختبارها لها جريمة ، وكان ذلك سبب ضياعه واضمحلال تقوده ، لأن الوسيلة التي لجأ إليها ملعونة : إن الأنانية تقضى على الخير وتلتهم كل بر ، ولقد أراد الغرب أن يوحد العالم ، ولكن تحت سلطانه ولمصلحته ، والعالم لا يساس إلا بالعدل والمحبة وبالإخاء وبرد الحقوق إلى أهلها ، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة ، واعتمد على القوة وحدها ، وعبث بالشرائع الدينية ، وخالف تعاليم المسيح عيسى الذي أمر بحبة الناس أجمعين . لقد أضاع « الشرق » دياجير أوربا بنور تعاليمه ، وما هذه العلوم التي يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق وليس الذي يحجب النور عن الأنظار هو مدينة الشرق القديم ، بل الوحشية الغربية ودين القوة وحب الذات والأنانية التي يعمل بها الغرب . لقد اختار الغرب الرذيلة على الفضيلة وأنه بالتجائه إلى الوسائل التي لا تعرفها الإنسانية قد أثبت أن مدينته أفلست .

ولقد ظلت حضارة الغرب تعامل البشرية الإنسانية على نحو يختلف عما تعامل به أهلها . فهي تحتجز الحرية والكرامة والرفاهية لأهلها . وبينما هي تحقق مزيداً من الترف والرقى لأهلها تفرض على الأمم الملونة - وخاصة العالم العربي الإسلامي - أبشع صنوف الاذلال ، فتمتص نتاج أوطانهم وثرواتهم ، وتقاوم بالتدمير أى حركة من حركات الدعوة إلى الحرية . والحضارة الغربية تقول بالحرية ولكن لأوروبا والغرب والرجل الأبيض ، أما في آسيا وأفريقيا فإن أهلها ليسوا إلا عبيداً وليس لغير الرجل الأبيض الحق في حمل أمانة تدين هذه الشعوب المتخلفة .

أما موقف الحضارة من إسماع أهلها وترقيتهم ورفاهيتهم فقد بلغت في ذلك غاية المدى ولكنها عجزت عن المحافظة على القيم الإنسانية للحضارات ، فهي قد قامت أساساً على المادية ومن ثم تطورت مفاهيمها في ظل عوامل ذات فاعلية إلى تغليب مفاهيم إطلاق الغرائز وتعزيز « حيوانية » الإنسان ، ثم اندفعت في تحرير الحرية على النحو الذي لم يبق لها حد تقف عنده .

ولعل « الدوس هكسلى » حين يصور هذه الزاوية يكشف حقيقة بوضوح حين يقول : أن الحضارة قد دفعت الناس إلى الترد من حياة الروح والاندفاع وراء المادة وقصر جهودهم على المتع والرغبات وإعراضهم عن المثل العليا ، وأن اندفاع العالم إلى الاستمتاع قد شاع فى أقوال المؤلفين والشعراء والخطباء والمثليين المتأدى فى سبيل الدعاية للحياة المستهتره والأباحة ، وقد بالغوا فى مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مزرولة مبعوضة كالسهم الذى ينقلب داء بعد أن كان دواء . وإن المثل العليا حقيقة زاهية لاشك فيها لأنها ضرورية للعالم وهى الوسيلة الوحيدة للقضاء على الفلسفة المادية التى أعجب بها هواة الملذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها ، وأن النفوس البشرية لتضيق فى سبيل هذه الملذات وتقعد الثقة بالفضائل ، وقد أجمعت أرقى العقول فى سائر الأزمنة والأمكنة على أن غاية الانسانية هى السلام والمحبة والعدل ، ومن المحبة الاخوية نشأت فكرة الوطنية وهى فكرة إذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الأوطان » ويقول لاسكى : « لقد فقدت الحضارة ثقافتها فى نفسها وإيمانها العميق بحيوية القيم الثقافية السائدة وعجزت عن تحقيق الوفاق بين عالم المثل الأعلى المتمثل فى كتابات الانسانيين وبين حقائق هذا الواقع الحافل ياهوائه وأطماعه وخصوماته ، إن الحضارة تمر بمحنة من عن الشك والخوف والاحاد وتميع المعايير الثقافية والقيم الأخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير فى حياة الفرد وحياة الجماعة » .

وقد عرض لهذا المعنى كثير من الباحثين ، يقول ألبرت شفايتسر فى كتابه : « فلسفة الحضارة » : بعد تجربة طويلة تبين أن الحضارة فى جوهرها قضية أخلاق وإننا لن ننجح فى بناء حضارتنا على أسس سلمية إذا لم نرجع إلى المفاهيم الأخلاقية .

ويرى ألبرت شفايتسر أن غلبة الجانب المادى فى الحضارة على الجانب الروحى هو مصدر أزمة الحضارة والانسان فى هذا العصر ؛ يقول : أن تقدم الحضارة المادى أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحى ، لقد اختل توازنها ، فالأكتشافات التى جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفها على نحو لم يسبق له مثيل قد أحدث ثورة فى العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض وبين الجماعات والدول ، والواقع أن معارفنا قد أثرت ، وأن قوتنا قد ازدادت إلى حد لم يكن فى وسع أحد أن يتخيله ، نحن نغالى فى تقدير إنجازاتها المادية

ولا تقدر أهمية المنصر الروحي في الحياة حق قدره . إن الحضارة التي لا تنمو إلا في النواحي المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح ، هي أشبه ما تكون بسفينة إختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضى عليها ، ذلك أن الطابع الجوهرى للحضارة لا يتجدد بإيجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لسكّال الإنسان وتحسين الأحوال المادية والسياسية للشعوب وللإنسانية في مجموعها ، وليس المنصر الحاسم في تقويم الحضارة ما أنجزته من أعمال مادية بل يتوقف مصيرها على كون الفكر يسيطر على الأحداث أو لا يسيطر . والأمر في هذا شبيه بما يحدث في السفر ، فإن نتيجة الرحلة لا تتوقف على كون السفينة كانت أسرع أو أبطأ قليلا بل على كونها تسير في الاتجاه الصحيح وأن قيادتها في يد أمينة .

وهذا الذى يقوله ألبرب شفيتسر في كتابه (فلسفة الحضارة) ليس جديدا فقد رددته من قبله «أوزفالد شبنجلر» في كتابه سقوط الغرب (The Decline of the west) حيث قال : إن الحضارة الغربية مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وأنها تعاني أعراض الشيخوخة وانحلال الفناء .

وقد عارض نظرية شبنجلر التطور وأثبت أن الانقلابات الهامة في تطور الكائنات والمجتمعات والأنظمة والفنون والعلوم بل والمقائد إنما كانت فجائية أملاها القضاء المحتوم وأن الناس والمجتمعات مسوقة بدورة محتومة لا تدبير فيها للإرادة الذاتية .

وإن كل حضارة خاضعة لقانون لليلاد والنضج والتدهور والفناء ، وأن كل حضارة تفنى وتذبل بعد أن تكشف عن خصائصها مثل القوميات وصور الحكم وأن الاشتراكية هي آخر مراحل هذه الحضارة .

وقال شبنجلر : أب أوروبا ستقضى على حضارتها التي هي بمثابة عملاق يترنح (Alattering giant) بفعل الحجر والمرض والانحلال .

ويتنبأ رومان رولان لآسيا بالحضارة القادمة « وستغلبنا آسيا كما غلبتنا رومية وأثينا قديما » ويقول رانتو : أن الليل ينجم على أوروبا ونحن نولى وجهنا شطر الشرق . ويرى الدكتور باكيه أن أعمدة الحضارة الجرمانية اللاتينية تتداعى وأن الشرق أخذ يستيقظ

ويحدد نظاما أخلاقيا روحيا . وأعلن « برتراند رسل » أن أوروبا محتاجة إلى حضارة جديدة أو حضارة تختلف عن حضارتها الحالية وأن علينا أن ننتقم بدرس الطريقة الذي يحمل به الشرق مشاكاه .

وقال « جود » : لقد وهبنا العلم قوى لم يكن تحلم بها أجدادنا السالفون ، ولكننا نستخدمها بعقول الأطفال والمتوحشين ، وأن لا شيء يسد الثغرة التي تفصل قدرتنا عن حكمتنا غير إحياء القيم الأخلاقية العليا وذلك بإحياء العقيدة الدينية في النفوس . وأن المطلوب هو سد الثغرة بين العلم والأخلاق .

وقال « مالك بن نبي » : أن اعتماد الحضارة على العقل وحده له آثار بعيدة المدى في الحضارة فالعقل لا يملك سيطرة الروح على الفرائز ومن هنا تشرع الفرائز في التجرد من قيودها ، وتنطلق الفرائز بقدر ما تضعف سلطة الروح .

وبالجملة فإن أزمة الحضارة تتمثل في ذلك الإغراق الذي وصلت إليه في المادية والإباحة ، ويحاول هكسلي أن يصور هذه الأزمة فيقول : إن العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان ، وتعيش في ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحد والمادية البحتة التي تجرد الإنسان من كل مشاعر الإنسان بلا حب ولا تعاطف . وأنها تتبادل الاتصال الجنسي على نحو ما تفعل السائمة . وأن العالم يمارس الحياة بطريقة غريزية لا تقوم على منطق أو تفكير ، وعنده أن المجتمع الذي تحلل من قيود الزواج ولم يعترف بالأمومة ، وكل شيء عنده تصنعه الآلات ، إنما يستهلك مائة سنة في خمسين سنة ، بالعقاقير والإجهاد العصبي والخروج على الطبيعة وخاصة حين يكبت انفعالاته الحقيقية ويتظاهر بالكذب والنفاق .

وعنده أن طريق الخلاص هو العودة إلى عالم الروحانيات ، وأن على الغرب أن يتعلم الكثير من عزوف حكماء الشرق عن الدنيا وزهدهم في المادة ، وفهمهم العميق لتلك التجربة الصوفية التي تتيح للإنسان أن يجد الله في قلبه .

ودعا « كيسر لنج » أوروبا إلى حضارة جديدة يستمد منها روحانية الشرق .

وقد أشار كثيرون إلى طفانيان المادة على الإنسان الحديث بحيث لم تعد أمامه قيم روحية يرمى عليها سلوكه ومعاملاته ، وأن جميع القيم قد أخذت تتأرجح .

ويرى «أرنولد توينبي» أن الدين هو عماد المجتمعات وبه تقوم الحضارات وأنه العامل الوحيد لإنقاذ الحضارة الغربية من السقوط ، وعنده أن الحضارة الروسية الحديثة هي جزء من الحضارة الغربية واحتجاج عليها في ذات الوقت وأنها ليست طريق الخلاص للحضارة الغربية وأنها مرحلة وليست خاتمة ، وأن الخلاص هو العودة إلى الدين .

* * *

ويستعرض مستر سوروكن (أستاذ الاجتماع بجامعة هارفارد) أزمة المدينة الغربية في بحث مستفيض^(١) فيقول إن الأزمة العنيفة التي تجتازها الحضارة الغربية الحديثة هي أمر غير عادي ، وهي نتيجة لتفكك الأسس التي قامت عليها الحضارة . وقال أن هناك نقاط ضعف تهدد الحضارة لأن استهدافنا اللذة والمتعة يؤدي إلى انحلال القيم الاجتماعية والحضارية ويجعلها مجرد وسيلة للذة في المستوى الوضع والنوع الحسيس ، كما أن محاولتها تصوير الواقع كما يظهر لحواسنا يؤدي تدريجياً إلى الرككة والاهتمام بالمظاهر بدل التعمق في البواطن . ثم أن الفنون الحسية تهتم بالظواهر والأغراض فتهمل الجواهر والأعماق وتسكون سطحية ليست لها أفكار أو مثل تستهدفها من وراء الصور التي تعرضها . والعيب أنها تركز اهتمامها على الأنواع العليا من الأشخاص والحوادث سواء اللصوص أو المجرمين أو المحتالين أو النساء الساقطات أو ما يصور أوضاع المظاهر وأسوأها .

ومن دلائل الانحلال في الفنون الحديثة الاهتمام بالكمية قبل النوعية والعناية بالوسائل قبل النبوغ والإبداع ، فنحن نقيس عظمة البناء بكبره ، وجودة الكتاب بكثرة ما يباع منه والجريدة بسعة انتشارها .

وقد ضعفت روابط الأسرة فكثرت حوادث الطلاق والافتراق وتضاءلت الروابط التي

(١) ترجم البحث الدكتور صالح أحمد العلي (بغداد) مجلة الكتاب المصرية يناير ١٩٥٢ .

ترتبط الأطفال بالآباء وذلك لادزياد نسبة الزواج الذى لا يرافقه أولاد ، وأصبحت الأسرة لا تقوم بتربية الأطفال ، كل هذا أدى إلى زيادة الجرائم بين الأطفال وخط من الأخلاق .
وأضعف الشعور بالواجب الاجتماعى والمسئولية .

وكانت حرية النشر والرأى دعوة إنسانية نبيلة ، ولكن لما انحطت الأخلاق انتشرت الدعاية المتطرفة وزادت الصحافة الصفراء والروايات المكشوفة وأصبحت سموم اجتماعية أسوأ من حرمان الحرية ، وإذا لم يكن للفرد اعتقاد قوى بالله وبالحق والعدل وإذا سيطرت على أعماله الرغبة فى اللذة بدل احترام الالتزامات التعاقدية ، فإن أعماله تصبح مبعثها الشهوة ولن يميّقه عنها أو يوقفه عن الإضرار بالآخرين سوى القوة .

والمجتمعات التى تكثر فيها أمثال هؤلاء تصبح عرضة لصراع داخلى عنيف وثورات وتفكك . والسعى وراء اللذة يحطم التوازن العقلى والأخلاق لدرجة أن الجهاز العصبى لمعظم الناس لا يحتمل الضغط الهيب الذى يتعرض له فيتفكك ، ولما لم يكن للإنسان فى مثل هذه الحضارة مثل عليا وكانت حياته يكتنفها صراع مضطرب فإنه يقع فريسة للأوهام والدوافع ويكون كالريشة فى مهب الريح ، فيفقد أترانه ويزداد تفككه ويتعرض لرجات عنيفة تحطم أعصابه . والاضطراب العقلى فى الغالب يرافقه الاتيخار لأن أسبابهما واحدة وهى الاضطرابات الاجتماعية . وقد تزايدت رغبات الناس التى لا يمكن إشباعها إلا بالاضطدام بالآخرين الأمر الذى يجعلهم يعيشون فى جو مليء بالخصومات والعداء .

ولما كانت الحضارة حسية فقد قامت على التقدير المادى واستخدمت كل طاقتها للحصول على أكبر ما يمكن من الماديات وتوسلت بالعلوم والفنون إلى زيادة الإنتاج والتجارة واستطاعت ذلك بتسليها الشعوب الضعيفة امكانياتها .

وأشار إلى تناقض الحضارة فقال أنها تنادى بالمساواة بين البشر ولكنها تخلق كثيرا من عدم المساواة العسكرية والخلقية والعقلية والاقتصادية والسياسية . وهى تدعو إلى

مساواة الفرص بين الناس ولكنها لا تحقق من ذلك شيئاً ، وهي تنادى بحكم الشعب بنفسه
بنفسه ولكنها عملياً تطبق النظام الدكتاتورى وهي تثير الحاجات والرغبات ولكنها
تمنع إشباعها .

ومحور التناقض قائم على كون حضارتنا تسمو بالإنسان وتمجده ، ولكنها فى الوقت
نفسه تحطم من القيم الإنسانية وتخفضها ، وقال إن الدليل على ذلك إن حضارتنا الحسية قد تضاءل
انتاجها للمبدعين منذ أواخر القرن التاسع عشر فإنه لم يظهر فى السنوات الأخيرة فى الموسيقى
أمثال باخ وبتوفن وفى الأدب أمثال تولستوى ودستوفسكى ويرون وديكنز وجوته وبلزاك
وفى الفن أمثال رامبرانت وفى الفلسفة أمثال هيجو وشلنجر وشوبنهاور وسنبر ونيتشه .

وقد اطلت النقل من الكاتب الأمريكى بالإضافة إلى مقاله غيره من الباحثين لأضع
تحت يد المثقف العربى الإسلامى مفاهيم مفكرى الغرب بالنسبة لحضارتهم التى تلقى إعجاباً
وتقديراً كبيراً بين دعاة التغريب والشمويين حيث يتوالى دعوتهم إلى الارتباط بالحضارة
الغربية ارتباطاً كاملاً .

* * *

ولسنا نحن من خصوم الحضارة الغربية المعاصرة ، ولكننا من خصوم مفاهيمها
واعتقد أن قد استطعنا أن نقلها على قاعدتنا ومفاهيمنا نحن ، وأن نحقق بذلك ما يتطلع
إليه نوابغ الغرب وفلاسفته فقد كانت قاعدة فكرنا دائماً هى ذلك المزيج من الروح السادة
والعقل والقلب والدين والعلم .

وقد كانت قضية الحضارة الغربية موضع البحث منذ وقت بعيد فى الفكر العربى
الإسلامى . وكانت هناك الدعوة الخاطئة المضللة المستمدة من جذور التغريب والشموعية
التي تدعونا إلى أن نسير سيرة الغربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً وشركاء ، ولقد
كانت قيمنا ومفاهيمنا الأساسية تمارض أبرز مقتلين من مقاتل الحضارة الغربية وهما : فصل
القيم الأخلاقية عن الحضارة والتفريق بين الأجناس وتميز الرجل الأبيض بالسيطرة وبقاء

غيره خدماً وعبيداً . فنحن تؤمن بوحدة الإنسانية والمساواة والأخاء ونجمل القيم الأخلاقية ظهيرا للقيم الحضارية .

ولما كان هدف الحضارة هو تقديم الرقي والسعادة والرفاهية للإنسان فإن تدمير هذا الإنسان باطلاق غرائزه وشهواته على النحو الذى تدفع إليه الحضارة الغربية هو ليس وسيلة لترقيته وإنما تهدف إلى القضاء عليه وقد أصبحت أزمة الحضارة الآن هى القلق والفراغ والضياع وتوسع نطاق الأمراض النفسية والجرائم وتفلك الأسرة وتدمير الروابط الاجتماعية .

وقد أشار إلى هذا المعنى عباس العقاد حين قال : إن هناك خطر على الحضارة أخطر من القذائف والآلات الجهنمية هو إفساد الطباع ومسح العقول وتلويث الأخلاق وتعويد الناس أن يسخروا من كل نبيل جليل ، مع تهالك على المتاع الزائل وتهافت على الشهوات الجنسية . وفى رأى عبد الوهاب عزام أن الناس قاسوا الأخلاق والآداب وسنن الجماعات وروابط الأسر والعقائد والمذاهب على السيارات والطائرات وإن علينا أننا أنكرنا أنفسنا وحقرنا ما عندنا وعظمنا ما عندنا وهجرنا الهندسة العربية فى الأثاث ثم حاكيناها فى الإعجاب بها فآخذها بعد أن سميها (أربسكا) .

ويرى محمد المبارك أن الحضارة لم تبذل أى عناية لتهديب النفس البشرية ولم تخفف ما فى الإنسان من آفة وحب للذات وطمع فى كل لذة وشمرة ، فى الجاه والمنصب وأن الضمير البشرى لم يزد حساسية للحق ، وقد أخفقت عاطفة الإيثار والرحمة وقد غلبت الناحية المادية ولم توجد التوازن بين الفكر والحضارة .

ويرى سير جون وودلف فى كتابه دفاع عن ثقافة الهند : أن الدولاب الآلى الدائب الدوران فى حضارة الغرب بفعل البخار أو الكهرباء أو الذرة قد غدا فى ذاته قيمة أساسية تقاس بها كل القيم فى مجتمع الغرب .

لقد سيطرت حضارة الآلة الديناميكية سيطرة عمياء بلهاء لا هدف ولا ناموس إلا مجرد التطور ، هذا التطور الذى يسن لنفسه قانون حركته مستقلا عن روح الإنسان ومعنوياته كلها مع أنهما تراث الآلاف من السنين ،

ويقول توفيق الحكيم : لقد قدمت الحضارة للناس بعض الراحة في أمور معاشهم ولكنها أخرت البشرية وسلبتها طبيعتها الحقيقية وشاعريتها وصفاء روحها . نعم كسبنا السرعة وخسرنا ثروة النفس التي تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة ، كل شيء في المدنية الحاضرة يتأمر على قتل الفصائل الإنسانية العليا وصفاتها الأدبية السامية ، ولا ننس أن أوربا هي الوحيدة التي أعدمت في يوم ما علمائها حرقاً واتهمتهم بالسحر والجفون وخفقت حرية الرأي حتى في شئون الأدب والفن وجعلت من المسيحية التي تبشر بالمحبة سلاحاً للفتك أمام محاكم التفتيش ، ولكن أوربا اليوم أبرع قليلاً من ذي قبل ، فهي تجند إخفاء حيوانيتها تحت ريش صناعي يمثل أجنحة ملاك سماوى . أما اليوم فهي تمر بأخطر أزمتها ، لقد ظهرت من تحت الريش ثياب الخنازير البرية . وقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة لا قلب لها ولا ضمير وأن مآلها السقوط ممزقة الجسد تحت موائد المرابين .

* * *

وفي اعتقادي أن اليقظة التي يعيشها العالم العربي في ظل قاعدة أساسية من قيمه ومفاهيمه وانتفاع على الحضارة العالمية في اختراعاتها وعلومها التكنيكية وميادين الصناعة والذرة والقذائف الموجهة ، سيحقق ظهور (نموذج جديد) قائم على مفاهيم الفكر العربي الإسلامى الذى يأخذ الحضارة وقيمها على أساس ثقافته الأصيلة ، دون أن يذوب فى الاممية أو يكون تابعا للفكر الغربى .

الكتاب الخامس

نحن والفكر الغربي

تتمثل مقومات العربي الإسلامي المعاصر في : « اللغة » « الأدب » « الدين »
« التاريخ » و « الثقافة » و « التراث » فهي في مجموعها ترسم وحدة الفكر في أمتنا
العربية وغالبا الإسلامي وقد انصبت حملات التغريب والغزو الفكري والشعوبية عليها
جميعا محاولة تغيير مفاهيمها ، وتحريف مضامينها ، بوصف هذه المفاهيم ممثلة أساسية لدعائم
قيمنا ومثلنا وروح أمتنا وطابع شخصيتنا .

وقد نارت من حول « اللغة والدين والتاريخ والثقافة والتراث » معارك ضخمة تستهدف
تجزئة المفاهيم المتلازمة في وحدة كاملة . كما نارت شبهات متعددة حول القومية ونظرية الأجناس
وقد انصبت هذه الحملات على عزل الإسلام عن العروبة ، والدين عن التربية ، والعامية
عن الفصحى والعلم عن الدين ، والروح عن المادة ، في محاولات تزييف ضخمة تقصّل بالتقصّاء
على التراث وتعميق دعوة مضللة تدعو للانفصال عن الماضي أو إثارة الشكوك حول
بعض المواقف أو الأحداث في التاريخ العربي مستهدفة إسقاط قيمه الأساسية وبطلانها
ومواقفه الخالدة .

ولقد كان أبرز ماوجه إلى مقومات فكرنا من دعوات التدمير ، ما أطلق عليه « نظرية
التجزئة » هذه النظرية التي يحمل لوائها دعاة دهاه ، يستهدفون بها عزل الدين عن المجتمع
وعزل الأدب عن الأخلاق ، وعزل التراث عن الثقافة وهكذا .

وقد غاب عن الذين جروا وراء هذه النظرات مدى الهدف البعيد الذي ترمى إليه ، ظنا منهم
أن التجزئة تخصص وأنهم عامل من عوامل ازدهار الفكر وترقيته -- وهو كذلك فعلا -- ولكن
ليس على الوجه الذي يحملنا على تجزئة كل قضية فكرية إنسانية بين علوم الإجماع والنفس
والأخلاق والدين . دون أن ينظر إليها نظرة شمول تردها إلى مصادرها الحقيقية في بناء
الشخصية الإنسانية أو علاج أزماتها .

الثقافة

لكي نعرف مفهوم الثقافة التي تمثل المفهوم العربي لكلمة (Culture) الغربية يجب أن تضع في تقديرنا عدة أمور :

(الأول) أن الثقافة تختلف عن التعليم والتربية وتمثل الدرجة العليا للتربية كما أن المعرفة هي الدرجة العليا للتعليم .

(الثاني) أنها أقرب إلى العقائد منها إلى المعارف .

(الثالث) عدم الارتباط بينها وبين الحضارة في مفهوم الاقتباس أو النقل .

...

وهذه اختلفت آراء الباحثين حول مفهوم كلمة الثقافة ومضمونها ، فمن ناحية مفهوم الكلمة ومدلولها في الفكر العربي نجد أن مصدرها هو القرآن الكريم « قاتلوهم حيث ثقفتوهم » وهي تدل على معنى العثور بعد البحث والتصدي ، وفي المصباح المنير :

ثقفت الحديث فرجمته بسرعة ، وثقفته أقتت الموج منه ، وفي أساس البلاغة بمعنى طلب العلوم والمعارف ، وفي القاموس المحيط للفيروزبادي : تنف ككرم وفرح ، ثقفا وثقافة صار حاذقا خفيفا فطنا ، وثقفه تثقيفا سواه .

وأول من استعمل كلمة الثقافة ابن خلدون ، وفي العصر الحديث حسن توفيق العبدل في كتابه (سياسة الفحول في تثقيف العقول) .

كما اتفقت الآراء على أن الثقافة هي الوجه المقابل للحضارة .

فحيث تشمل الحضارة الماديات والصناعات والتجارة والصناعة الآلية تتمثل الثقافة^(١) في الأخلاق والمبادئ والأمور الذهنية والمعنوية .

فالحضارة^(٢) تنتقل من أمة إلى أمة وهي قابلة للانتشار بين الأمم بسرعة ، أما الثقافة فتبقى خاصة بكل أمة على حده ، وإن أثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها في بعض قليلا أو كثيرا .
أما من ناحية المضمون فإن الآراء كلها تجمع على أن ثقافة أية أمة تشمل دينها وأدبها ونظمها وأخلاقها وتقاليدها وأساطيرها . وأنها تمثل طريقة الحياة إجمالا . وأن التربية^(٣) والتعليم هي واسطة من وسائل المحافظة على الثقافة وميراثها من السلف إلى الخلف ، أي أن الثقافة ملك للأمة والتعليم ملك فردي .

ومن عشرات التعريفات للثقافة يبدو صلة الثقافة بالأمة هي أساسها الأول ، وأنها تتصل بالعقل^(٤) والروح ، وأن لكل مجتمع ثقافته الخاصة التي يتسم بها ويعيش فيها ، كما أن لكل^(٥) ثقافة مقومات مادية ومعنوية ، أما المادية فتتألف من طرائق المعيشة .
والمعنوية هي العادات والتقاليد التي تسود المجتمع وأن لكل ثقافة ميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها .

* * *

وبالجملة فإن الثقافة في أمة من الأمم تتصل بقيمها وشخصيتها ومقوماتها الأساسية . ومن هنا تكاد تجمع الآراء على أنها لا تستورد ، وإن كانت تتلقى وتمتص من الثقافات الأخرى ما يضيف إليها القوة والحياة .

ومن هنا يبدو الفارق بين « المعرفة » والثقافة في كل ما تتلقى الأمم من فكر الأمم الأخرى وثقافتها ، ومن هنا يصدق الرأي الذي يربط بين الثقافة والمثل الأعلى للإنسان في بيئته وفكره .

(١) في مراجعة شاملة لآراء (سلامة موسى) . (٢) ساطع المحصرى .

(٣) في مراجعات لآراء تايلور وعبد اللطيف الطياوى واطفي جمه وسديوارت وساطع المحصرى

وأرثر أربرى وهارى شايبو .

فالمعرفة تضم المناهج والنظريات المتصلة بعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد وهى مجموعة من الآراء تتطور وتتغير وتعارض ، ولما كان النظر فيها ضرورى لمتابعة خطو الفكر الإنسانى فإن ذلك يتبع النظر منها خلال باب المعرفة الرحب الواسع ولا يمكن أن تتحول هذه المعرفة إلى « الثقافة » إلا فيما يتلاقى منها مع الأسس والشخصات الأصلية ، ذلك أن ثقافة كل أمة لها طابعها الخاص فى الحياة ونظرتها إلى المشاكل الأساسية ولكن الثقافات تتلاقى وتأخذ وتدع ومن هنا أيضا يبدو صدق النظرة التى تفرق بين نقل الحضارة ونقل الثقافة باعتبار أن الحضارة مادية والثقافة ذهنية ، وعلى ضوء هذا الفهم لا يكون « الدين » من عناصر الحضارة بل من عناصر الثقافة .

نصل من هذا إلى القول بأن هناك « ثقافة عربية اسلامية » تختلف فى جذورها ومفاهيمها عن الثقافات الشرقية والغربية المتعددة .

وإن هذه الثقافة تتميز بشخصيتها وأسلوبها وأن هناك خلافا جذرية بين ثقافتنا وبين ثقافة الغرب التى كانت أشد اتصالا بنا بحكم سقوط العالم الإسلامى العربى تحت سيطرة الاستعمار الغربى (الفرنسى والبريطانى) على وجه الخصوص .

ويمكن القول بأن اثقافة العربية الاسلامية (فى العالم العربى) هى وريثة الثقافات القديمة المصرية والفينيقية والآشورية والبابلية ، وأن بلاده كانت مهبط الأديان الثلاثة وأن الفكر العربى الإسلامى قد قام على أساس الاسلام (وهو دين وفكر وحضارة) واللغة العربية بعد امتصاصه للثقافات الفارسية والهندية والإغريقية وقد بدأ طابعه ممثلا للأنوهمية ، واعتبار الدين جزء من المجتمع وتمثل قيم الاخاء والعدل والسلام والحرية .

وقد تمتثت اثقافة العربية الإسلامية فى تجربة شتات دورة كاملة من التاريخ ، وأثبتت فى عصور ازدهارها قدرتها وفاعليتها على تحقيق أهدافها وتمثل قيمها ، أما فى فترة ضعفها فليس على قيمها يقع الحساب ، إنما يقع على العوامل التى أدت إلى تخلفها . هذه التخلف التى لم يلبث أن تحول إلى يقظة جديدة حتى ليكن القول بأن الثقافة العربية الإسلامية

لم تمت وأن تولاهما الضعف والاضطراب ، وأنها أستطاعت أن تواصل الحياة بنير سناد من سلطان الحكم وتيام الدولة التي تحمل مبادئها ، وقد استطاعت أن تقاوم الغزو الغربى ، هذا الغزو الذى حاول القضاء على مقوماتها أو تحويرها واقتصائها على قاعدتها وتحويل ملامح شخصيتها وأبرز الخلافات الجذرية بين الثقافة العربية الإسلام وبين الثقافة الغربية :

(١) أن الفكر الغربى يحل مشاكاه على قاعدة القوة بينما يحل الفكر العربى الإسلامى قضاياه ومشاكاه على القاعدة الأخلاقية .

(٢) انفصال الفن عن العلم .

(٣) سيطرة المادة على الفن .

وفارق آخر بين الثقافة الغربية والثقافة العربية الإسلامية ، فالثقافة الغربية تطلق الغرائز والحريات إلى أقصى مدى بينما الثقافة العربية الإسلامية يؤمن بالزج بين الروح والمادة واعتبار الخلق قوام الحرية .

وفارق ثالث هو قيام السياسة فى الفكر الغربى على أساس الانتهازية ، بينما يقوم فى الفكر العربى الإسلامى على أساس الخلق والضمير .

وفارق رابع : هو أن الفكر الإسلامى العربى يرى الناس سواسيه ولا فضل لأبيض على أسود ، بينما يرى الفكر الغربى سيادة الأبيض والآرى وأن كل ما سوى الغرب عبيدله ، مع اقتناعه بشرعية فرض سيطرته على الشعوب والعمل على تسخير جنس من البشر لخدمة جنس آخروائه وعدم إيمانه بالقانون الأخلاقى فى معاملة غير أبناء جنسه .

* * *

ويقول قسطنطين رزىق : أن الثقافة الحديثة فى الغرب تقوم على أساس الإيمان بالانسان حيث كانت الثقافة فى العصور الوسطى المطبوعة بالمسيحية أو الاسلام تدفع البشر إلى التطلع إلى العالم الآخر وترهدهم فى هذا العالم الآخر . وانقلب الايمان بالله والعلم

الساوى إلى إيمانه بالطبيعة والانسان القادر بمقله على السيطرة عليها واستغلالها . . .
وأن هذه الثقافة لم تتمكن من إحراز تقدم محسوس فى حل مشاكل الانسان الأصلية بل أنه
يجابه نتيجة لهذه الثقافة ذاتها إخطاراً أشد هولا وقظاعة من أخطار الماضى وذلك بالانتاج
المادى ، وما ولدته الحضارة فى الانسان من تكبر وتجبّر واعتقاده بأنه سيد مصيره .

والواقع أن هذا الرأى يمثل الفارق الواضح والعميق الجذور بين الثقافة العربية
الاسلامية والثقافة الغربية .

أما من ناحية الفكر العربى الاسلامى فقد عرف بالجمع بين الدين والدنيا وأنه لم يكن
مطلقاً داعياً إلى التزهيد فى العالم الأرضى على النحو الذى صورته الكتّاب ، فلم يكن الفكر
العربى الاسلامى داعية زهاده ، وأن ما دخل عليه فى عصور الضعف من بعض هذه
المفاهيم لا يمثل قيمه الأساسية وأصوله الأصيلة .

وقد كشف البحث عن فشل هذا الاتجاه الذى جرى عليه الفكر الغربى غير أن
الفكر العربى الإسلامى يجمع بين القيم المادية والروحية ويمزج بينهما فى مختلف نظراته
إلى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو النفس .

وإذا كانت الفلسفة تهدف إلى البحث عن السعادة فإن الثقافة الغربية لم تستطع أن
تحقق منذ القرن الخامس عشر إلى اليوم مفهوم السعادة ، بينما استطاع الفكر العربى
الاسلامى أن يعطى هذه السعادة فى مفهوم واضح هو إيجاد وفاق طبيعى بين الروح والعقل
والجسد يعكس على الزمان والمكان .

وإذا كانت ثقافة الاغريق والرومان فى صبغتها عقلية وأن ثقافة الهند والشرق
الأقصى فى صبغتها روحية وأن ثقافة الغرب (بشقيها) فى صبغتها مادية المصدر ، فإن الثقافة
العربية الاسلامية وحدها دون ثقافات الإنسانية جميعا هى التى تحمل ذلك المزيج المتفاعل
التكامل المتوازن : بين الروح والمادة والعقل والقلب والجسم ، والدين والعلم .

وأن الثقافة العربية الاسلامية هى إنسانية الأساس والقيم والأهداف .

ولعل هذا هو السر في امتدادها بهذه السرعة الغربية التي عدها المورخون خارقة لنواميس الكون وتطور الحضارات ، ولعل ذلك يرجع إلى بروز روح الوحدة بين قيمها المختلفة وعدم انقسامها إلى مفاهيم مستقلة تتضارب وتختلف ، كما يحدث في الفكر الغربي حين تختلف مفاهيم علوم النفس والاجتماع والأدب والدين والاقتصاد التربية والعلم التجريبي ، فكل علم مفاهيمه التي قد يتعارض مع مفاهيم العلم الآخر بينما المفروض أنها جميعها تلتقى في خدمة الإنسان أساساً وتدور في فلسفه باعتباره ميزان الأشياء .

• • •

وقد كان من نتيجة ذلك أن اختل التوازن في المدينة الحاضرة بين نمو القوى المادية ونمو القوى الروحية ، فقد بلغت الحضارة قمتها في العلوم التجريبية بينما بقيت القوى الروحية ضعيفة متخلفة .

وقد ألقى جوستاف لوبون هذا السؤال : ماذا يحدث إذا استمر العقل في النمو وظلت العواطف ثابتة لا يتغير ، لقد درسوا كل شيء في العالم ، ما خلا الرجل فلم يدرسوه ، كشفوا الغطاء عن أسرار السماء ولم يكشفوا عن أسرار القلب ، لأن أمكننا أن نقول أننا ممدنون فإنه ينقصنا الجوهر » .

• • •

وعلى ضوء هذه المفاهيم تبدو فكرة الجوهر والعرض في الثقافة ، فإن القيم الأساسية للثقافة وهي جوهر كل ثقافة تظل أساساً لكل قابلية جديدة في مجال التحول ، ومن هنا تسقط نظرية التطور الدائم لكل قيم الثقافات . والغريون أنفسهم لم يسقطوا جوهر ثقافتهم عندما اتصلوا بالثقافة العربية الإسلامية ونقلوا منها .

ومن هنا تبدو أهمية تقدير هذه النظرة في الاقتباس أو الاقتراض أو النقل أو الاستعارة من الثقافات الأخرى ، فلا بد للاقتباس أو الاقتراض أن يكون قائماً في نطاق العرض لا الجوهر ، ولا بد أن تكون هناك قدرة كاملة على الامتصاص ، والفهم أو التمثيل .

فإذا لم تكن هناك هذه القدرة ضعفت شخصية الأمة وملامح ثقافتها الأصلية وانحرفت .

وليس خير على الثقافات أن تقرض أو تختص من ثقافات الأمم الأخرى ، ولكن العبرة بتقديره الثقافة المختصة على التمثل وتحويل المستعار إلى كيائها لعملية هضم سليمة دون أن يظل قائماً كأنه شيء مستعار ، وهذا يرجع إلى قوة الثقافة الآخذة وقدرتها على الهضم وقد كانت الثقافة العربية الإسلامية من بين الثقافات الشرقية والغربية من القدرة والنضوج على الإستعارة والامتصاص ، غير أنه في فترة قيام النفوذ الغربي عجز فكرنا طويلاً عن عملية الهضم .

فقد كان موقفنا إذ ذاك غاية في الضعف إزاء العلوم والأفكار المختلفة التي حملتها ثقافة الغرب والتي كانت أولياتها أساساً من منابنا فقد ظلت سنوات طوالاً وهي لا ترتبط بجذورها الأولى ، وكأنها من مستحدثات فكر الغرب حتى أصاب شبابنا إذ ذاك ذلك الإحساس بالقصور والعجز وكان لابد لنا أن نربط تطورات علم الاجتماع والاقتصاد والنفس والسياسة وغيرها بجذورها الأولى المستمدة من فكرنا أساساً ، وهذا ما استطعنا أن نصححه مفهومه بعد اليقظة .

ومن ناحية أخرى فنحن قد اقترضنا في الماضي في مجال لدينا فيه تراث ضخم .

والواقع أن الاقتراض من الثقافات الأخرى دون قيد أو مراقبة يحدث في الثقافة المقترضة حالة « عسر هضم » مما يؤدي إلى القصور عن بلورة العناصر الدخيلة أو المستعارة وتحويلها إلى كيان الأمة ونقلها إلى القوالب القومية .

ولما كانت الثقافة الغربية (بشفيها) تستمد جوهرها من المادية فإنها تنكر الروحية التي هي عنصر أصيل في الثقافة العربية الإسلامية هذا بالإضافة إلى أن نظرية الفلسفة البرجماتية في القضاء على الضعفاء يتعارض مع نظرية التكامل الاجتماعي التي يؤمن بها الفكر العربي الإسلامي^(١) .

الدين

إن النظرة إلى « الدين » تختلف اختلافا جذريا بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي بشقيه . فهي أساس وقاعدة متصلة ومترجة بمقومات فكرنا ، على نحو لا سبيل إلى انفصاله أو تجزئته ، بينما هي في الفكر الغربي أمر منفصل ، على قاعدة هذا الفكر في التجزئة . والفصل بين علوم النفس والإجماع والاقتصاد والنفس والدين .

وفي فكرنا العربي يبدو الدين متصلا أساسيا في النظرة الكلية الشاملة إلى الحياة وفي الرابطة بين الإنسان والله ، والإنسان والإنسانية ، وليس امتزاج الدين عاملا من عوامل الضعف أو التخلف بل هو عامل من عوامل اقوة والإيجابية .

ولما كان الفكر العربي الإسلامي يقوم أساساً على إمتزاج الدين والدنيا والعقل والروح فإن الدين ليس إلا أحد وجهي الحقيقة الواحدة فنظرة فكرنا ليست روحية صرفه ، ولن تكون عقلية صرفه ، وإنما هي نظرة شاملة قوامها العقل والروح .

ذلك أن الفكر العربي الإسلامي المستمد من الإسلام ، إنما يقوم على أساس أن الإسلام ليس ديناً فحسب ولكنه دين وفكر وحضارة ومجتمع . ولذلك فهو لا يمثل الجوانب الروحية وحدها ولا يرتبط فحسب بالعلاقات التي تربط بين الإنسان والله . ولكنها تتمثل في شمولها جناحي علاقة الإنسان بالله والإنسانية في تفتح ومرونة .

ومن هنا تسقط أمام فكرنا قضايا الخلاف بين العلم والدين ، فقد كان الفكر العربي الإسلامي قادراً على الانفتاح على الحضارة والعلم والفكر الإنساني متقبلاً لكل تطورات المعرفة قادراً على مواجهتها ، بالإضافة إلى قدرته في الالتقاء بحضارة الأمم المختلفة في العصور المختلفة .

(١) اقرأ فضلاً عما ولا عن الدين في كتابنا « الفكر العربي المعاصر » في معركة التنوير والتجديد .

أما الفكر الغربى فقد استبعد « الدين » استبعاداً كاملاً من مفاهيمه وأصول ثقافته وجذورها بعد أن اصطدم بالمسيحية الغربية التى لم تكن من غرس بيئته الوثنية أصلاً ، والتى كانت أمانتها لجذورها الإغريقية والرومانية قوية ، إلى الحد الذى حال دون تعمقها المسيحية الوافدة من الشرق ، ومن هنا تكونت صورة جديدة للمسيحية ، هى مسيحية بولس بكنيستها وطفوسها وكهنيتها وما كان لها من دور فى حماية قطاع وفرط نفوذها عن طريق صكوك الغفران ، فى ظل هذه الصورة من المسيحية — التى هى ليست المسيحية الحقيقية فى سماحتها وإشراقها — كون الفكر الغربى مفهومه عن الدين وانفصل عنه وأقام قاعدة فكره على المادية الخالصة ، وقد تابعه الفكر الماركسى فى نظره إلى الدين ، على اعتبار أن قاعدة الماركسية هى المادية أيضاً .

ومر هذا عندنا أن المسيحية الغربية كانت ديناً روحياً خالصاً ، لا يرتبط بنظام مجتمع . ومن هنا استكملت حاجتها هذه من فلسفة الرومان ، ووثنية اليونان ، وكذلك فإن الفكر الدينى الذى عرفته أوروبا بكهنته وكنيسته وقبوده ، لم يكن قادراً على تقبل النهضة والحضارة ، والالتقاء معها ، بل على العكس من ذلك كان معارضا عنيف المعارضة لها محافظة على نفوذه وسلطانه أساساً وعجزاً عن احرازه خصوصية الأفق المفتوح التى عرف بها الفكر الغربى الإسلامى الذى كان قادراً على الإلتقاء مع كل حضارة وفكر والذى لم يكن لدينه كيانة أو نفوذ .

* * *

وقد واجه « الدين » هجوماً عنيفاً لا حد له من الفكر الغربى والفكر الماركسى على السواء . متابعاً فى ذلك الفكر الإغريق الذى عرف بازدرائه للدين وهجوم أفلاطون عليه فى قوله : « أن الأديان لم تمنع انتشار الشرور فى البيئات غير الملحدة ولم تردع الخلق عن ارتكاب أنواع الموبقات وكل محرم ومكروه ، وإن الأديان اتخذت وسيلة لارتكاب أعظم استبداد » .

والمعروف أن الإغريق هم أول من قالوا بتحديد سلطة « الإله » ومنعها من الدخول إلى البحث

العلمي أو الأدبي ، ومن ذلك قول أرسطو أن « الإله » لا تستطيع أن يبدل نواويس الكون وقد انتقلت هذه النظرة إلى الفكر الغربى فقد وجه كثير من المفكرين الغربيين حملات عنيفة إلى « الدين » ممثلا في المسيحية الغربية في مقدمتهم : رينان ونيتشه وبرتراند رسل ، وغيرهم من الكتاب وهى حملات كانت تتمثل فيها روح الإلحاد .

كأوجه كثير من المفكرين طعنات قاتلة إلى الدين على نحو علمي ، لا يتجه إلى مهاجمة المسيحية الغربية أو الدين أساساً وإنما يبرز من خلال دراسات علوم النفس والاقتصاد والاجتماع وفي مقدمة هؤلاء فرويد وماركس ودور كايم .

وتقوم هذه النظرات على أساس لا دينية الحياة ، وتحرير الإنسان من قيود الخلق والقيم .

وهذه عبارة سلامة موسى في تصوير مفهوم الغرب للدين : يقول « إن هذه الحضارة لم تعرف الطريق الصحيح إلا بعد أن حطمت قيود الكنيسة التي فرضتها على الفكر ، وتخلصت من استبداد رجال الدين الذين حبسوا العقاية الفردية داخل نطاق التعاليم المسيحية الروحية التي تخالف اتجاهات الغرب التي تميل إلى المادية فكانت حركة النهضة التي قامت على أساس بث ثقافة اليونان واستغلال مقوماتها في خلق حضارة جديدة » .



أما الفكر الماركسي فإن موقفه من الدين واضح في عبارة ماركس الصريحة « لا إله والحياة مادة » واعتباره أن الدين أفيون الشعوب معللا انتشار الأديان بالظروف المادية التي عاشها الإنسان الأول ، الذي كان عاجزا أمام الظواهر الطبيعية مما أدهاه قصوره عن فهم أسباب هذه الظواهر إلى ردها لإرادة عليا ، فضلا عن أن النظام الإقطاعي قد حمل الناس على الخضوع لقوة مجهولة لإكمال السيطرة عليها .

وقد كان في نظرة ماركس وهو يهاجم الدين نفس مفاهيم الفكر الغربى ونظرته إلى المسيحية الغربية وتصرفات الكنيسة وسيطرة الكرادلة والباباوات .

وعنده أن ليس هناك روحية، وأن الروحية مصدرها المجهول والضعف، وأن الأخلاق والقيم إنما هي وسائل لحفظ المجتمع وهي مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي وهي قيم متطورة متغيرة، ويقول ماركس أن « حقيقة العالم تنحصر في ماديته » وبذلك تنكسر الفلسفة الماركسية الألوهية والأديان والرسالات .

وبذلك يؤمن الفكر الغربي (بشقيه) بالالحاد الذي يعتبر جزءاً أساسياً منه فضلاً عما دعت إليه الشيوعية من الحرب ضد الدين .

* * *

غير أن الفكر الغربي بشقيه لم يقف عند حد محاربة الدين ، بل حاول إيجاد بديل له يتمثل في دعوات كثيرة منها البشرية (Humansim) والتي تجعل الآداب مردداً للنفس البشرية والدعوة إلى الإيمان بالإنسانية بديلاً من الإيمان بالله حيث تعتبر « البشرية » الإنسان غاية لا تعرف غاية وراءها « man is imcurbly religions » .

وانكسرت البشرية الايمان بالله أو الخلود أو العبادة ، وقالت أنه ليس من شرط الدين أن يكون للمؤمنين رب ، والبشرية تقول أن الفضائل ليست مراسيم الهبة وإنما هي اختبارات إنسانية وهي في تطور لا ينقطع ، وعندها أن أساس « الأخلاق » الاختبارات الانسانية التي تدلنا بتوالي الزمن وتكرار التجربة — على المفيد والمضر من أساليب المعاملة . وتلجأ البشرية إلى النفسانيات الحديثة والتحليل النفسي في حل مشاكلها .

ومن هذه الدعوات ما حمل لوائه « برجسون » في نظرية التطور الخالق ، كما اعتبر الفكر الماركسي « الماركسية » بديلاً للمسيحية :

وقد ظهرت عشرات من الدعوات والأديان التي اتخذت من المادية أساساً والتي غلبتها على النظرة الروحية الخالصة ، أو النظرة التي تجمع بين الروحية والمادية وهي في مجال الأخلاق تحمل نفس النظرة التي دعا إليها فرويد .

ولا شك أن تطور الفكر الغربي واعتماده على المادية كجذور أساسية لنظراته

في فلسفات الأخلاق والتربية والسياسة والإجماع قد حال دون أن تعود النظرة إلى الدين إلى مفهومها الأساسي .

فقد فصل الفكر الغربي الدين والأخلاق عن مفاهيمها وفلسفتها السياسية حين قال ميكافيل « إذا كان الدين سيطلب الأمانة والصدق والرحمة فللسياسة باعتبارها علماً أوفنا الحق في أن تستخدم الغدر والخيانة والرياء » .

وفي مجال التربية فصل ديوى نظريته عن الدين أساساً واعتبر الأساس المادى هو العامل الرئيسى في إقامة مناهج التربية .

وفي مجال علم النفس فصل « فرويد » النفس الإنسانية عن الدين .

وفي مجال علم الاجتماع قامت نظرية دوركايم على فصل الدين عن المجتمع .

* * *

بل إن الإصطلاح الذى يستعمله الفكر الغربى في التعبير عن الدين لا يمثل مفهومنا للدين فكلمة Religion مشتقة أساساً من كلمة Religar اللاتينية ومعناها المعاشرة الاجتماعية . وكل ما يتحدث به علماء أوربا اليوم عن الدين لا يصل إلى الإيمان بالله أو الأديان السماوية أو اعتبار الدين عاملاً أساسياً في الفكر والحياة وإنما هي دعوة إلى التماس عقيدة فكرية لا تكليف لها ولا مسئولية ، أما الدين بمفهومه فهو — في نظرهم — مرحلة تاريخية مرت بها البشرية قبل أن يستنير عقلها وأنها انتهت بظهور فكر الحضارة .

* * *

أما نحن في الشرق للإسلامي ، وفي الفكر العربى بالذات فالدين لدينا ضرورة اجتماعية لا يستغنى عنها ، وهى جماع بين السلوك الأخلاقى والفهم العقلى المستنير وشعور بالتوفيق بين الإنسان والله والإنسان الكون والإنسان والإنسانية .

وللدين مظهران : عبادات ومعاملات . وتمثل المعاملات في الشرائع التى تنظم علاقات الناس :

ومن هذا المفهوم تنتفي من آفاق فكرنا دعوات الشك والقلق والفراع والضياغ ولقد كان امتزاج الروحية والمادية العقل والقلب والدين والعلم في الفكر العربي الإسلامي مصدراً من مصادر القوة والإيجابية فقد رفض الفكر العربي الإسلامي « المادية المفرقة » كما رفض « الزهد المفرق » . وهذا ما عجز الفكر الغربي عن تحقيقه حين تحول من الروضة إلى المادية وعجز أن يجمع بينهما في مزاج معتدل وقد هاجم هكسلي المسيحية الغربية من هذه الناحية ورأى إنها لا تصلح مطلقاً لأنه تكون عاملاً مدنياً ورد جميع نظرياتها . وارتكزت فلسفة سبنسر على قاعدتي المادية والاداريه وكذلك فعل ولاس ودارون من قبيل سبنسر وهكسلي . وكان ريفان حرباً على المسيحية التاريخية ، وكانت نظرتة إلى الكتاب المقدس على إنه أثر من تكامل الخرافات والأساطير وكذلك وضع الفكر العربي التوراة والكتب المقدسة على بساط النقد المادي الخالص . وهاجم نيتشه أخلاق المسيحية ، وصارعت المسيحية أصحاب الراى الحر وفي مقدمتهم جاليلو ثم دارون وظل الفكر الغربي يمعن في هذا الطريق حتى تغلبت طاقاته المادية على الطاقات الروحية واصبحت عضلات العالم أقوى من عقله .

* * *

أما الفكر العربي الإسلامي فقد كان غير ذلك تماماً . فقد أعلن برتراند رسل في كتابه الثقافة والنظام الإجتماعى أن الإسلام دين سياسى ، موجه إلى الجماعة متوغل في حياة الفرد والمجموع توغلاً كلياً على حين اعتبر الأديان الأخرى ديانات أفراد أى ديانات غير سياسية .

وأعلن جورج سارطون بأن الإسلام حرر العقل وحث على النظر في الكون ورفع قدر العلم وأن حيوية الإسلام كانت في مرونته . وأن هزائم المسلمين السياسية لم ترزع ثقة المسلمين بأنفسهم .

ولقد كانت أصالة الدين في فكرنا العربي الإسلامي حقيقة كاملة ، فقد بدأ العامل الدينى واضحاً مشاركاً فعالاً في توجيه الأحداث التاريخية للعالم الاسلامى والأمة العربية وتقرير مصارها .

وليس من اليسير فهم الفكر العربي الاسلامى بعيدا عن التفسير الدينى ، فالدين متصل ممتزج تماما بدراسات السياسة والاقتصاد والاجتماع والحريية ، وهو لا ينفصل عن المقومات الأساسية .

ولقد كان للفكر الاسلامى أثره فى مقاومة أكبر ثلاث أخطار تعرضت لها الأمة العربية وهى التتار والحروب الصليبية والغزو الغربى الحديث ومن هنا كانت حملة الاستعمار والغريب والشعبوية على الدين ضاربة عنيفة ممتدة .

ويرى يوسف الحورانى أنه ليس من تفسير لبقاء الاسلام محتفظا بفعالياته الاجتماعية فى عموم المجتمعات الاسلامية إلا « لأن هذا الدين يعرئ قضايا الأرض كما يعرئ قضايا العالم الآخر ، فليس منفصلا عن واقع الحياة بل هو يعالج كل القضايا وقد رسم سلوكا مدنيا خاصا » .

* * *

وحين انتقلت إلى فكرنا العربى الاسلامى مفاهيم الفكر الغربى فى « الدين » حاولت أن تصبغ « الاسلام » لتضعه تحت نفس المجهز ، ولتحكم عليه نفس الحكم . وقد كان الدافع إلى هذا تغريبى محض ، يستهدف « تحرير » الفكر العربى الاسلامى من « الدين » وإطلاق التيارات الغربية المختلفة التى تحاول أن تجرده من شخصيته ومقوماته ، وتدفعه إلى بؤرة التميع والتحول والتحلل . والهدف من ذلك إذا تحقق هو تمكين النفوذ الأجنبى من السيطرة على كيان الأمة . وتحويلها إلى العبودية الكاملة فى فكرها وروحها .

ولقد يمكن القول أن التابعين للاستشراق والتغريب (ولا أقول تلاميذ المستشرقين فإن كثيراً منهم هم من أخلص المفكرين لروح العروبة والاسلام إيماناً بوطنهم وأمتهم .) لم يفهموا الفكر العربى الاسلام أصلاً ولم يتعمقوه قبل أن يتصلوا بهذه البيئات ، وظنوا أن ما ينطبق على المسيحية الغربية — ولها تاريخها الطويل فى الخلاف مع العلم والحريية والانطلاق الحضارى والانسانى — يمكن أن ينطبق على الفكر العربى الاسلامى الذى كان دائماً قادراً على الحياة والحركة والتطور .

(م — ١١ الفكر العربى المعاصر)

ومن هنا تأثر الكثيرون على النحو الذى تكشفه النصوص^(١) ، وتجمع عليه حركتى التغريب والشعوبية ، والأولى تهدف إلى القضاء على مقومات الفكر العربى الإسلامى لتعزيز النفوذ الأجنبى وتمكينه من السيطرة ، والثانية تهدف إلى القضاء على الإسلام واللغة العربية :

ولعل هذه التجربة من أصدق التجارب فى مجال التغريب :

يقول الدكتور محمود عزى أنه حين كان يدرس الاقتصاد السياسى بمدرسة الحقوق كان يتعلم : أن « الربا » أصل كل نمو اقتصادى ، لأن الفائدة التى تعود على صاحبه هى وحدها التى تدعوه إلى أن يقرض ماله اشتراكاً منه فى الجماعات المالية الكبرى ، وكان يرى أن هذا القول فى علم الاقتصاد يزيد دلائل الواقع ، ولكنه كان يستطيع أن ينسى أن الله قد أحل البيع وحرم الربا وكان لا يستطيع أن يوفق بين الأمرين ، فقصده إلى ناظر المدرسة الأستاذ الفرنسى « لامبير » وأفضى إليه بما يشغله « الربا حلال فى الاقتصاد السياسى حرام فى الشريعة الإسلامية » فكيف التوفيق فأجابه الأستاذ : حين يدرس الاقتصاد السياسى لا تفكر فى الشريعة الإسلامية ، وحين تدرس الشريعة الإسلامية لا تفكر فى الاقتصاد ، ولكن هذه الإجابة لم تقنعه . وبعد أن أتم الدراسة أرسل إلى « السربون » وكتب له أن يحضر ثلاث سنوات متوالية محاضرات الأستاذ « دوركايم » فى علم الاجتماع وكان من نتيجة ذلك أن انطبعت فى ذهنه طريقة تفكير الأستاذ وتحليله وتدليله ، وكان من نتيجة انطباع هذه الطرائق التى لم يذكر اسم الله فيها إلا نادراً ، واسم « الدين » إلا محترماً مبجلًا على اعتبار أنه حادث « عمرانى » له قدره « التاريخى » فحسب ، يقول « ثم أصبح فناناً عن طريق الاقتناع العقلى الثقافى يؤمن بالعلم وبالعلم وحده . مع اعترافه بأن الحقائق العلمية نسبية فهى معرضة لأن تتغير ، كما درس فى محاضرات العلامة البيولوجى لود أتيك أستاذ علم الحياة فى السربون ، وخرج من ذلك كله بأن « الدين » وعدم الدين إنما هى حالة عقيدة وإيمان يتوافر فيهما الاستعداد فى بعض النفوس ولا يتوافر فى البعض الآخر .

(١) إقرأ مزيداً من النصوص فى كتابنا « الثقافة العربية المعاصرة : قضاياها ومماركها »

ولا تحملان دليلاً على صحة أحدهما أو عدم صحة الآخر ، فكما أن الدين لا يستطيع أن يقدم الأدلة القاطعة التي تثبت وجود الإله وهو أساس الدين ، فإن العلم لا يستطيع هو الآخر أن يقدم بالأدلة القاطعة التي تثبت عدم وجوده^(١) ولكن للعلم ميدانا وللدين ميدانا « هذه هي صورة التعريب في محاولته تجاه « الدين » متمثلة في تجربة الدكتور محمود عزى ، حيث يهاجم الدين هجوما علميا ، والدين هنا هو الدين في مفهوم لامبير ودور كايم ، وهو مفهوم يختلف اختلافا واضحا عن مفهوم الفكر العربى الإسلامى ، فإن « الله » و « المال » و « الشريعة » تلتقى كلها في مفاهيمنا ولا تتعارض .

ومن حيث يلتقى العقل والروح في مقومات فكرنا تحمل مشكلة الدليل على وجود الله حيث نلتزمه عنهما معا ، وليس عن طريق أحدهما ، وهو العقل وحده . ويرجع هذا أساساً إلى أن مفهوم « الدين » فى الفكر العربى الإسلامى لم يكن واضحاً أساساً عند الدكتور « عزى » .

* * *

ولعل الدكتور طه حسين ربيب الأزهر والتربية الدينية الإسلامية الخالصة أن يقول هذا وأكثر منه فإنه أساساً من أخلص تلاميذ « دور كايم » فيلسوف الاجتماع اليهودى ربيب للنظرة المادية الدارونية ممتزجة بالنظرة الماركسية :

فالدين عنده « ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لم ينزل عن السماء ولم يهبط به وحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وأن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمناً وكافراً فى وقت واحد ، مؤمناً بضميره وكافراً بعقله ، فإن الضمير يسكن إلى الشيء ويطمئن فيؤمن ، أما العقل فيغير ويبدل ويفكر أو يعيد التفكير من جديد فيهدم ويبنى ، ويبنى ويهدم^(٢) » .

ومن هنا تبرز فكرة الفصل بين العلم والدين والعقل والقلب ، وهى نظرية أساسية فى الفكر الغربى القائم على الوثنية الإغريق والمادية الدارونية ، أما الفكر العربى

(١) الملأل — محمود عزى (مجلد ١٩٢٩)

(٢) السياسة الأسبوعية : ١٧ يولية ١٩٢٦

الإسلامى فيمتزج فيه العلم والدين والعقل والقاب ولا تتحقق سلامة أى نظرية وعمقها ووضوحها إلا وفق هذا المزج الطبيعى بينا تكون هذه التجزئة هى مصدر الشكوك والريبة والخصومة .

* * *

ويمكن أن يطلق على هذا الاتجاه البارز الواضح عند عزى وطه : ظاهرة « الإلحاد » التى تمتد إلى الرعيل كله فى الثلاثينات . فاستماعيل مظهر فى مجلة العصور يناقش « الدين » ويقول : هل نعتقد أن الدين غاية أم وسيلة ، أما أنا فاعتقد أن الدين وسيلة وليس غاية فى ذاته . « الدين » وسيلة توصلنا إلى غايات أهمها معرفة الله ، إذن فكل وسيلة توصلنا إلى معرفة الله وتخلص أرواحنا من جحيم الشك والريبة يمكن أن تعتبر ديناً ، فإذا كانت « حرية الفكر » توصلنا إلى هذه الغاية فهى لا شك « دين جديد » يمكن أن يكون لدى الأخذ . بين به أهدى سبيلاً :

سنقول إن حرية الفكر قد تسوق الناس إلى الإلحاد والإنكار ، ولكن هل هى الدين الناس من الإلحاد . لم يحممهم من الإلحاد مطلقاً ، على أنى اعتقد اعتقاداً جازماً بأن الملحد المطمئن إلى المادة أعود بالنفع على الانسانية من المؤمن الذى لم يعرف من الايمان غير التعصب لمذهب أو صورة من صور الاعتقاد . والواقع أن الدين علاقة بين الفرد وبين الله ولا شأن له بالمجتمع مطلقاً .

والذين يقولون بأن للدين أثراً فى المجتمع واهمون ، فإن المجتمع اليوم قائم على أمرين : (١) القوانين الوضعية (٢) المأهات والنظامات الموروثة التى ليس الدين إلا مظهراً من مظاهرها . فما دخل الدين إذن فى النظام الاجتماعى .

ومن يظهر خطأ الدعوى بأن الأديان شرائع يسير عليها الناس ، والحقيقة أن الدين نظام من النظامات الاجتماعية اكتسبت صفة القداسة ، نسبة إلى قوى تستمد مما فوقه

للعقل لا أكثر ولا أقل ، أما الشرائع التي نزلت بها الأديان فليست جديدة ، بل هي شرائع مستمدة من العرف الذي جرت عليه الأقوام التي ظهرت فيها الأديان ^(١) . «
ومهما يكن القول في هذا النص فإنه مترجم عن « الفكر الغربي » على النحو الذي يفهمه من « الدين » وهو لا ينطبق بتاتا على مفهوم فكرنا العربي الإسلامي للدين كدين ، ولا للإسلام نفسه كدين وحضارة ونظام اجتماعي .

* * *

غير أن دعوى التغريب والشعوبية تبدو واضحة حين يهاجم اسماعيل مظهر نص « الإسلام » في الدستور فيقول : لست أعرف حقيقة الباعث الذي حدا بالدين وضعوا الدستور إلى إثبات هذا النص ، فالدولة شخص معنوي ، والنص على إن ذلك الشخص المعنوي له دين اسمه الإسلام أمر لا يخلو من التناقض لأن هذا الشخص المعنوي إنما هو شخص مجرد . ولكنني أعتقد أن هذا النص لم يثبت الاستجابة لوعي خفي مستمد من روح الإسلام وإنه دين ودولة معا « ويقول طه حسين نفس القول « أن للدولة المصرية ديناً رسمياً هو الإسلام ولو قد استشارني أولئك أو هؤلاء لطلبت اليهم أن يتدبروا وأن يتفكروا قبل أن يضعوا هذا النص في الدستور ^(١) . «

* * *

ويبرز هذا المعنى واضحاً في رأي « الشيخ » على عبد الرازق : في القول بأن « دين » الإسلام روحاني محض لم تكن حكومة له ولا شريعة .

* * *

ويتعمق هذا الاتجاه حتى تصبح ظاهرة « الاتحاد » صريحة حين يصدر اسماعيل أدهم أحد كتابه « لماذا أنا ملحد » حيث يعترض على قول بحتر زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر الذي يقول إن الاتحاد هو الحضور بالله وعدم الإيمان بالخلود ويقول : إن هذا التعريف سلبى محض ، ولا أجد بداً من رفضه ، والتعريف الذي استصوبه وأراه يعبر عن عقيدتي

كما نجد هو أن الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون ذاته وإنه ثمة
لا شيء وراء هذا العالم .

ثم يردد كلمات كل زعماء المادية الغربية ، مثلاً عمانوئيل كانت الذى يقول « أنه لا دليل
عقلى أو علمى على وجود الله وإنه ليس هناك من دليل عقلى أو علمى على عدم وجود الله » .

ثم لا يلبث اسماعيل أدهم أحمد أن يصور أسباب إلحاده فى ثنايا كتابه « لماذا أنا ملحد »
الذى قدمه له وطبعه الدكتور أحمد أبو شادى فكشف عما كشف عنه الدكتور عزى
من عنف التربية الأولى والقسر فى التوجيه نحو العبادة ، مما كان له أثره العكسى وظهور
روح التحدى ورد الفعل فى معاداة الدين جملة .

يقول « كان أبى مسلماً متعصباً للإسلام وأبى مسيحية بروتستانتية ، ذات ميل لحرية
الفكر والتفكير ، توفيت فى السنة الثانية من سنى حياتى وعشت أيام طفولتى مع شقيقتى
فى الاستانة وكانتا تلقناى تعاليم المسيحية وتسيران بى كل يوم أحد إلى الكنيسة . أما أبى
فقد انشغل بالحرب ، غير أن بعد والدى عنى لم يسكن ليمنعه من فرض سيطرته على من الوجهه
الدينية ، فقد كاف زوج عمتى وهو أحد الشرفاء العرب أن يقوم بتعليمى الدين فكان يأخذنى
لصلاة الجمعة ويجعلنى أصوم رمضان وأقوم لصلاة التراويح وكان هذا يشغل كاهلى كطفل
فضلاً عن تحفيظى القرآن . والواقع أننى حفظت القرآن وجودته وأنا ابن العاشرة غير إنى
خرجت ساخطاً على القرآن لأنه كلفنى جهداً كبيراً كنت فى حاجه إلى صرفه إلى ما هو أحب
إلى نفسى منه وكان ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه . ولكنى كنت
أجد من المسيحية غير ذلك ، كانتا اختاى قد درجتا على أن كل ماتحويه أنتورا والإنجيل
ليس صحيحاً وكاننا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب وكان لهذا كآبة أثر
فى نفسي . . . وكان أبى لا يعترف لى بحق تفكيرى ووضع أساس عقيدتى المستقبلة فكان
يعرض على آراء الإسلام والقيام بشعائره ، وقد ثرت يوماً على هذه الحالة وامتنعت وقلت له :
إنى لست بمؤمن وأنا دارونى . . الخ »

ومن هنا يظهر مصدر « الألحاد » فى التربية المتزمتة التى تفرض الدين فتدفع إلى
حربه وخصومته .

وقد اتسع هذا الاتجاه وتعمق حين أخذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى دراسة «الإلحاد فى الإسلام» محاولاً أنه يجعل «الإلحاد» ظاهرة مقررة فى كل حضارة . « ذلك أن الإلحاد نتيجة لازمة لحالة النفس التى استنفذت كل إمكانياتها الدينية فلم يعد فى وسعها أن تؤمن ، وقد عرض لفلسفة نيتشة الإلحادية التى عبر عنها فى قوله « لقد مات الله » ومن قبل الإلحاد اليونانى الذى يعلن موت الآلهة ، ثم ذهب من هذا إلى القول بأن الإلحاد الغربى قال « لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء » وأن النبوة هى الوسيط بين الله والإنسان .

ثم عرض لما أستاذ إلحاد ابن المقفع وابن الرواندى وجابر بن حيان ومحمد زكريا الرازى . وهو فى هذا يذهب مذهبا مغربا فى القول بالإلحاد فى الإسلام ، إذ أن اختلاف رأى الفلاسفة فى النبوة أو معارضة إعجاز القرآن لا يمكن أن يسمى إلحاداً ، إذ الإلحاد متصل أساساً بإنكار الله : ولكن هذا يمكن أن يسمى شعوبية أو زندقة .

ومعروف لمن درس مبادئ التاريخ العربى الإسلامى أن الشعوبية والزندقة تمثلان حركة سياسية ترمى أساساً إلى إسقاط الحكم والسلطان والنفوذ العربى وتغليب النفوذ الفارسى عليه .

وإن كل ما أورده الدكتور بدوى على أنه إلحاد فى الإسلام هو ما يمكن أن يسمى بالشعوبية وإن كل الأسماء التى أوردها عرفت بالزعة الفارسية الهدامة للقوة العربية .

وقد عارض بعض الباحثين رأى الدكتور بدوى^(١) ، وقال أن نقي النبوة لا يتضمن نقي الألوهية ، وأن كان نقي الألوهية يتضمن نقي النبوة ، وأن الإلحاد تعبير عن نقي وجود الله ، وليس نقي النبوة إلحاداً وأن نقي النبوة لا يتضمن نقي معرفة الله . أما نقي معرفة الله فإنه يتضمن نقي النبوة .

وقد توسعت محلات العصور (اسماعيل مظهر) والمجلة الجديدة (سلامة موسى) وغيرها فى نشر دراسات الإلحاد (Atheiswe) وفى مجلدات ١ و ٢ و ٣ للعصور مقالات متعددة

تدور حول هذه المعاني وتتوسع فيها فتنتقل آراء الملاحدة أمثال برتراند رسل في كتابة (لماذا أنا ملحد) الاسم الذى أطلقه اسماعيل أدهم أحمد على كتابه .

* * *

وقد اتخذت معارضة الدين صورة « الشعوبية » في آراء رجال من الأزهر كان في مقدمتهم « على عبد الرازق » الذى كان جريئاً في الحديث عن التبشير الذى يقوم به الإرساليات الأمريكية في مصر في الجامعة الأمريكية عنها . محاولا التهوين من شأن حركة التبشير التى ضخت لها مصر والعالم الإسلامى كله ومصوراً إياها بأنه ليست مسألة دينية وإنما هى مسألة سياسية وأخلاقية يقول « التبشير المسيحى مرض سياسى وخلقى وعلى رجال السياسية والأخلاق فينا أن يبحثوا عن طريق الخلاص منه » .

وهو بهذا يأخذ بالمذهب الغربى في تمزيق القضايا وفصلها بين رجال الاجماع والأخلاق والسياسة .

ومن هذه المفاهيم الغربية قوله أن التهاون الدينى ظاهرة خلقية ينبغى أن يشتغل بالبحث منها علماء الأخلاق قبل علماء الدين^(١) .

ويصل هذا الاتجاه إلى حد أن يصرح الدكتور طه حسين في حديث له مع روم لاندو (كتاب البحث عن غد — لندن ١٩٣٨) فيقول : عندى أن الدين كقوة روحية لا أثر له في نفوس أولئك الذين يتلقون علومهم في مدارس دينوية . وهم كثرة المتعلمين . فأنت إذا تحدثت مع أى فرد منهم تجدهم جميعاً كافرين بالدين والتقاليد . وإنما هم يدينون بالفسكر، وأن شئ يؤمنون بالمادة . ذلك لأنهم بعد أن خضعوا قروناً لسيطرة الدين اهتموا في الثلاثين سنة الأخيرة إلى ما وصلت إليه أوربا منذ قرون ، أعنى نظرية الإدراك المنطقى، وهذا الكشف ألهم نفوسهم وصرفهم عما عداه من المعبودات الأخرى ، وقال : والدين بالنسبة لطلبة الأزهر لا يعدو أن يكون حرفة يحترفونها وتدر عليهم رزقا ، ولا شئ أكثر

(١) اقرأ المحاضرة بكاملها في كتاب « حضارة مصر الحديثة » .

من ذلك ، بل أذهب في اعتقادي إلى أبعد من هذا الحد ، فأقول أن الأزهر يدين بالمادة جهرًا ، وأن الإسلام حين يستعيد قوته مرة أخرى سيكون روحيا تناولته يد التجديد^(١) . ومؤدى هذه النصوص ليس هو الواقع الذي تمثله الحياة المصرية أو العربية تجاه الدين ، وإنما هي « صورة » الحلم الذي يراود حركة التغريب والشعوية في هذه الفترة من أوائل الحرب العالمية الثانية وقد كشفت الأيام عن غير توقع الدكتور وغير ما توقعت الشعوية والتغريب . فكانت اليقظة المصرية العربية تحمل طابع الايمان بالتقاء الروح والعقل . وتربط الدين بالثقافة والمجتمع . ومن ثم توسع نطاق الدراسات الاسلامية وأتيح للأزهر أن يدخل في مرحلة علمية جديدة وكان لانشاء المجلس الأعلى للشئون الاسلامية وصدور عشرات من الكتب الاسلامية المحررة وكتب التراث والمجلات الرصينة فضلا عما أعطى الميثاق من إيمان بالقيم الروحية أثره الواضح .

بل إن هذه المفاهيم عن تصور « الدين » والمستمدة من الفكر الغربي كانت عمله زائفة لم تلق قبولا إزاء مفاهيم الفكر العربي الإسلامي إلى تمثلت في حركة التجديد والبعث التي قام بها الرافعي وهيكال والزيات ومنصور فهمي وعبد الوهاب عزام وسعيد العريان . والدكتور منصور فهمي واحد من عشرات من هؤلاء الذين خدعهم التغريب وألقى إليهم مفاهيم « الدين » على النحو الغربي فتأثروا به وساروا شوطا في ظل هذه المفاهيم ثم استطاعوا بعد أن يتحرروا منها . والمعروف أن الدكتور منصور فهمي قد كنت أطروحته للدكتوراه^(٢) سنة ١٩١٣ في باريس تحت إشراف عالم يهودي هو « ليفي يرييل » . وكانت عن « حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها » وأنه أودعها آراء التغريب في الإسلام والدين والرسول . ثم لم يثبت أن تحول عن هذه المفاهيم وتحرر عنها وهذه عبارته :

« عرضت لي الشكوك الدينية في عهود الشباب ، أثناء إقامتي في فرنسا لطلب العلم ، وقد نشأت هذه الشكوك نتيجة للتفكير وطلب الحقيقة ولم تكن على الطريقة التي يتظاهر بها بعض الأديعاء ، حينما يريدون أن يتخذوا سمت الفلاسفة والعباقرة من المفكرين والباحثين فيظنون خطأ أن ذلك يستلزم الظهور بمظهر الشك والحيرة والطمع على المقررات والمعارضة للمألوف .

(٢) اقرأ البحث في كتاب للمعارك الأدبية .

(١) منبع الفرق — ١٨ نيسان ١٩٣٩ .

وقد استمرت هذه الشكوك التي حيرتني قرابة ثلاثة أعوام ، وكانت وسيلة إلى الإيمان ، وفنطرة إلى ثبات اليقين ، وبابا للسكون اللازم وقد انتهت من شكى الدينى وحيرتى الروحية إلى نتيجة حاسمة واضحة ، هى أن القيم الرفيعة والأصول الأولى التى صقلتها الأزمان وارتقتها الأديان هى أولى الأمور وأحقها بأن تكون الدعائم القوية التى نعتمد عليها فى شتى مسالكنا خلال الحياة .

* * *

ومن النظرة الشاملة يتبين : أن النظرة الغربية للدين إنما هى مرتبطة أساساً بالمسيحية الغربية وبالجدور العميقة للوثنية الإغريقية التى لم تتخلص منها أوربا وللنظرة العلمية المادية الخالصة التى تحولت إلى نظرة متحررة فى مجال الفرائز وإبراز حيوانية والإنسان وتعريفه .

ولقد كان لزعزعة الاتحاد فى الفكر الغربى عواملها النابعة من روح العصر وطابع الحياة والفكر ، وقد زاد فى تعمقها الحريين المالميتين اللتين قاست منهما أوربا خلقيا واجتماعيا وروحيا لأحده وهو ما لم نعرفه فى العالم العربى الاسلامى على ذلك النحو .

ومن هنا يبدو أن حل هذه المفاهيم ونقلها إلى فكرنا العربى الاسلامى ليس طبيعيا أساساً وأنه لم يجد مداخله الواقعية ، ذلك أن فكرنا العربى الاسلامى قد استطاع أن يقضى على الوثنية تماما ، ولأننا ما زلنا فى « أساس فكرنا » نؤمن بامتزاج الروح والمادة والقلب والعقل والدين والحياة وبذلك لا تقوم لدينا تلك الشبهات والشكوك ، ولا تتأثرنا روح القلق والضياع التى تنفشى فى الفكر الغربى .

ومن هنا يبدو ، أن « اقحام » قضية الدين وفق المفهوم الغربى إنما هى محاولة خطيرة تدفع إليها دعوة التغريب ونزعة الشعوبية وهما يسيران فى خط واحد ويستهدفان القضاء على المقومات الأساسية للفكر العربى الاسلامى .

وليس فكرنا العربى الاسلامى فى إصالته ينكر الحضارة ، ولا يخاصم الفكر الغربى ولا يفلق أبوابه أمام الفكر الإنسانى جملة بل على العكس من ذلك أنه يفتح له ويأخذ منه ويدع ، ولا شك أن الحضارة الغربية قدمت للإنسانية رفاهية وترقية وتنويرا لأحده

وكذلك الفكر الانساني في جوانبه المشرقة اللامعة المضيئة حين قدم روائع خالدة في عوالم الأدب والفن والاجتماع والنفس والاقتصاد، ولكنها بالقياس إلى فكرنا لا تقبل كلية ولا نفرق فكرنا فيها تماماً ، ولا نأخذها أخذاً معمماً . وإذا تنادت الحضارة فإنما ينقد إنحرافها عن رسالتها وانفصالها عن الهدف الإنساني الدافع إلى التسامى بالإنسان وإبلاغه إنسانيته، وإذا نقد الفكر الغربى فإنما ينقد من وجهة محاولة فرض وجهة نظره وتحويلنا إلى مفاهيمه للقيم فى ظل هدف النفوذ الغربى الطامع إلى السيطرة الاستعمارية باسم بديله «التغريب» وأعتقد أن من حق الفكر العربى أن يحافظ على مقوماته حتى لا يصبح شيئاً غامضاً مبهوماً لا هو بالفكر العربى الإسلامى ولا بالفكر الغربى ولا شك أن امتزاج الروحية والمادية والعقل والقلب فى فكرنا يجعل للدين مقامه ومدخله إلى مختلف عناصر الفكر وقضاياها على النحو الذى لا يجمد ولا يتحلل ، فنحن لسنا ماديين مادية صرفه ولا روحيين روحية خالصة ، وأن الإسلام فى فكرنا العربى يشمل الروحية والمادية معاً ، ويعنى اتصال الإنسان بالله من ناحية وبالإنسانية من الناحية الأخرى .

وليس فى الإسلام كهانة ومن هنا فإن نظرية الدين وتاريخه وموقفه من الحضارة الغربية على النحو الذى عرفته المسيحية الغربية لا ينطبق على فكرنا العربى ولا على الإسلام الذى ليس ديناً فقط ولكنه دين وحضارة وفكر . ومن ناحية أخرى فإن فكرنا يؤمن بنظرية الاقناع العقلى والبرهان ولا يفرض مفاهيمه بالعنف أو القوة ولا يحمل طابع التعصب أو النظرة الضيقة ويمارض الجمود ولا يرفض الحضارة ولا ثمرات الفكر الانسانى بل يأخذ فيها ويدع ويعيش فى مستوى الركب الانسانى صاعداً معه على الطريق . .

* * *

وفى هذا المجال نعرض لنزعة « العلمانية » التى يحاول الفكر الغربى فرضها على فكرنا العربى .

* إن العلمانية (secular) تعنى أساساً كلمة لادىنى وقد حرص النفوذ الأجنبى على بثها فى مجال فكر الأمة العربية ، مرتبطة بالتطور والنهضة ، وبناء الحضارة ، غير أن يقظتنا العربية المصرية استطاعت أن تتحرر من هذا الاتجاه ، ولم تر فيه ضرورة ولا حاجة ، وقد أصرت بإيمان على أن تجعل الأديان والروحية عاموداً أساسياً من أعمدة بناء النهضة والحضارة ، ولم تر تعارضاً فى الجمع بين مقتضيات الحضارة وبين الروحية المستعدة من الأديان ورسالات السماء . .

وبذلك فوتت على التغريب هدفه في محاولة ربط الحضارة بالعلمانية . ومحاولة جعل تركيا مثلاً لهذه التجربة ، ولقد أشار مستر جب إلى هذا المعنى من قبل حين قال «إن الفكر العربى الإسلامى لن ينفصل عن مقوماته الروحية كما فعلت تركيا» ولقد كان جوهر الإسلام ولا يزال قابلاً للالتقاء بالفكر العصرى بل لعله لا يكون من المبالغة القول بأن مذاهب الديموقراطية والاشتراكية والقومية وهى مذاهب عصرية مستحدثة لها جذور بعيدة الأعماق فيه فهو يتقبلها من خلال ضميره بمفاهيمه ولا يرى فيها تعارضاً كما ترى بعض المذاهب الغربية فهى فى جذور فكرة تمثل الشورى والعدل الاجتماعى والتجمع الوطنى ومقاومة كل نفوذ أجنبى .

وهنا تبدو قدرة فكرنا العربى الإسلامى ومرونته فى تقبل هذه القيم الإنسانية والانفتاح لها لأن لها مصادر مستمدة منه أساساً ، وإذا وقع الخلاف بين عالمنا العربى الإسلامى وبين العالم الغربى ، فإنما يقع فى مفهوم هذه القيم ، فنحن لا نأخذ مفهوم الغرب لهذه القيم أساساً ولكننا نستمد مفاهيمها من تراثنا وشخصيتنا وبيئتنا ونراعى فيها ظروف العصر والبيئة . والتقدمية فى التطبيق .

* * *

وإذا كان الغرب قد اتخذ مذهب العلمانية فإن مصدر ذلك راجع إلى ما احتاج إليه من تحرر من الدين فى رسم مناهج الإصلاح أو المذاهب الاجتماعية ، أما فى الفكر العربى الإسلامى فليست هناك ضرورة أو حاجة ملحة إلى (العلمانية secular) حيث يتسع الفكر العربى الإسلامى لتقبل كل إصلاح وتحقيق كل تطور دون أن تقوم أى معوقات أو قيود تحول دونه ، فهو مفكر مفتوح قادر على الحركة ، قادر على التلقى والمواجهة ، والأخذ والعطاء وقد مرّن على ذلك منذ ألف وأربعمائة عام ، واجه فيها العديد من الحضارات والنهضات فأخذ منها وأعطى دون أن يجمد أو يتوقف أو يصطدم .

ولقد ارتبط قيام العلمانية فى الغرب بقيام الاتحاد ومعاداة الفكرة الدينية ، ولذلك فنحن فى العالم العربى الإسلامى الذى يعتبر الدين ورسالات السماء والروحية جزءاً أساسياً من فكره ومفاهيمه لا تقبل العلمانية ولا تقرها ، بل يجد فكرنا أن الدين جزء من مقوماته الأساسية وعوامل قوى من عوامل اليقظة والحرية .

وليس شك أن العلمانية قد ارتبطت فى الغرب بوطأة الكنيسة على حياة الفكر والمجتمع وتحالفهما مع قوى الاقطاع وسلطان الأمراء ، ومن هنا تدرجت العلمانية حتى أصبحت

فلسفة وعقيدة . أما في العالم الاسلامي والأمة العربية فإنه لم يقع صدام بين النهضة والدين أو بين العصرية والفكر العربي الاسلامي وكان الاسلام قادراً دائماً على تقبل التطور والنهضة والتقدم والالتقاء بها ، فإذا قامت دعوات أو أوضاع دينية منحرفة لم تلبث دعوات الاصلاح أن تواجهها فتكشف انحرافها وتعيد الوعي إلى المفهوم الصحيح للاسلام الذي يتسم بالسماحة واليسر والتفتح للتجديد والتطور والعصرية والتقدمية والذي يبعد دائماً عن التعصب .

وإذا كان الاسلام قد اتسم بأنه دين وفكر وحضارة فإن روح الدين فيه وفي الأديان المنزلة تلتقي جميعاً في مفاهيم واضحة أساسية في العلاقة بين الله والانسان وبين الناس في المجتمع اتصلت خلال العصور ، وقد كان الشرق بيئة الأديان المنزلة وغير المنزلة .

وهي في جوهرها الأصل تنكر العنصرية وفوارق الجنس واللون ، وتدعو إلى المساواة وترفع قدر الانسان تحت حكم الله ، وتؤمن بالوحدانية والحرية والاخاء ، والدفاع عن الأرض ومقاومة الغاصب ، والسلام والسماحة مع كل العناصر البشرية وطابعها إنساني عالمي أساساً .

وفي الرد على ما يقوله التغريب من أن تأخر العالم الاسلامي يرجع إلى إيمانه بالروحانيات وتمسكه بالدين ، نقول أن الفكر العربي الاسلامي أقام حضارة ضخمة ارتبطت فيها الروحانيات بالماديات ، ولم تعارض ، بل التقت وامتزجت ولم يكن جانبها الروحي السمج المستنير الذي لا يؤمن بالجمود أو الانحراف حائلاً دون البناء الحضاري والتقدم في مجال البحث العلمي في مجال الفلك والطب والكيمياء والفيزياء . وقد حققت كثيراً من النتائج الايجابية ، وفي ضوء انتصارات الحضارة العربية الاسلامية في ظل إيمانها بمقومات فكرها كانت الهزيمة والتدهور في التخلف عن هذه المفاهيم واتصال الروحية عن المادية وكان انهيار هذه الحضارة نتيجة لانصرافها عن التجدد والتطور وسيطرة الجمود والتقليد فكان جنوحها عن قيمها التي تربط الروح بالمادة مما والتى تبعد عن التعصب والانحراف مما هو مصدر تدهورها .

التراث

واجه « التراث » العربى الاسلامى حملة ضارية استهدفت القضاء عليه كقوة فعالة فى بناء الفكر العربى الاسلامى وبوصفه ممثلا للجذور الممتدة لفكرنا الحاضر ، والواقع أن المقارنة قد جرت فى هذا المجال بالتراث الاغريقى والرومانى ووضعه بالنسبة للفكر الأوروبى الحديث . ومن حيث أن التراث الاغريقى المرتبط باللغة اللاتينية قد انتهى وتوقف بعد تحول هذه اللغة التاريخية إلى اللغات الأوربية الحديثة ، فقد مضت الدعوة إلى اجراء المشابهة حيث لا مجال للمقاربة بالتراث الاغريقى الذى انفصل عن الفكر العربى منذ سقوط الدولة الرومانية فى القرن الرابع الميلادى حتى بدأت النهضة فى القرن الخامس عشر . ومن هنا لم يكن هذا الفكر اليونانى والرومانى إلا تراثا انتقل جانب كبير منه إلى الفكر العربى الاسلامى ثم أعيد إلى الغرب عن طريق الحروب الصليبية أو الأندلس أو القسطنطينية مضافا إليه ما حققه الفكر العربى الاسلامى من تطوير واضافات وابداع .

فهنا يمكن حقا أن يقال أن هذا الفكر اليونانى والرومانى هو تراث بالنسبة للفكر العربى فقد انقطع عنه ألف عام وتغير فى لغته ومضمونه ، فإذا جاء الغرب فأتخذه « فرشا » لفكره الحديث فإن كلمة « تراث » التى تعنى ترجمة كلمة Legacy تكون صحيحة حتما . أما بالنسبة للفكر العربى الاسلامى فإن الأمر يختلف كل الاختلاف .

ذلك أن « جذور » الفكر العربى الاسلامى ما تزال حية ممتدة متطورة فى مجال الدين واللغة والتاريخ والثقافة والتشريع والأدب ، هذه الجذور الممتدة المضطردة التطور والحركة لا يمكن أن توصف بأنها تراث Legacy على نفس مفهوم التراث اليونانى والرومانى بالنسبة للحضارة الغربية .

وأكبر مدعاة لنقض هذا رأى بقاء اللغة العربية قائمة وهى أم جذور الفكر وحاملته ، فما تزال اللغة العربية التى كتب بها الفكر العربى الاسلامى قبل ألف وأربعمائة عام حية نابضة بالحياة متطورة مع الزمن خصبة قادرة على تقبل المصطلحات الحديثة .

وهى جذور ما تزال قائمة كالدعائم والأعمدة الضخمة تحمل البناء وتمتص من مختلف الثقافات الفارسية والهندية واليونانية والرومانية والغربية الحديثة دون أن تهدم دعائمها ، فهي تأخذ من هذه الثقافات وتدع ، وتحول ما تأخذ إلى كيائها بالهضم والتثمل ، دون أن تقع في ازدواجية الفكر الغربى المعاصر الذى يقوم على أساس وثنية الإغريق ومسيحية الشرق هذه الازدواجية التى انصهرت بعد فى المادية الدارونية .

أما جذور الفكر العربى الإسلامى فما تزال تتمثل فى وحدة تتمزج فيها هذه العناصر وتتلاقى كأجزاء الجسم الحى .

ولا ريب أن هذه الجذور أو المنابع ما تزال تتفاعل مع ثقافتنا وحياتنا ولما ينقطع تفاعلها وما من نظرية حديثة أو فكرة الأولها فى جذورها مصدر .

وإذا كان الفكر العربى المعاصر قد اتخذ له من الفكر اليونانى الرومانى تراثا وقاعدة أطلق عليها حركة الإحياء *renaissance* فأى قاعدة أو أساس يمكن أن يقام عليه بناء فكرنا العربى الإسلامى المعاصر إذا ما تخليصنا عن جذورنا ومنابعنا .

وفى الوقت الذى يحمل التغريب والشعوبية — والشعوبية لها دور ضخم فى هذا المجال — لواء الدعوة إلى انكار التراث وحجب القديم نرى الفكر الغربى يواصل ارتباطه بالتراث اليونانى الرومانى بعد انفصال ألف عام على نحو يكاد يبلغ درجة التقديس . حتى لقد دفع هذا الإيمان بمض الفسكين الغربيين إلى انكار فضل الفكر العربى الإسلامى والثقافات الشرقية القديمة على الفكر اليونانى وعدوا رحلة علمائهم وأدبائهم إلى المشرق ليست ذات صلة مطلقة بالافتقار من الفكر الشرقى القديم موارث بابل وأشوار والفراعنة .

وقد حاول « جوبدى » إثبات ذلك فى محاضرة مشهورا له ألقاها بالقاهرة قال فيها :

إن رحلة علماء اليونان إلى الشرق لم يكن من أجل العلم ولم يكن للشرق أثر فى ثقافتهم ، وهو قول متعصب خال من الحقيقة .

وبجى هذه المناظرة الضخمة بالرغم من إجماع المؤرخين والباحثين على اثبات فضل الفكر الشرقى على الفكر اليونانى .

ومن ناحية أخرى حرص الفكر الغربى فى عهد الرينسانس على تنقية ما ترجمه من الفكر العربى الإسلامى من طابعنا ، ومضى المؤرخون ينكرون فضل الفكر العربى الإسلامى جملة بل ويعتبرون هذه المرحلة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية إلى بدء حركة الاحياء والنهضة فى أول القرن الخامس عشر فترة العصور الوسطى المظلمة ، وهى جرأة وتمصب وكنود للفكر والحضارة العربية الاسلامية التى غمرت العالم كله ووصلت إلى مواطن أقدام أوربا قرب باريس وروما وعند نهر اللوار .

وفى نفس الوقت الذى يقف الفكر الغربى من رآئه هذا الموقف ، فى احيائه والاتصال به - على مدى الاتصال الطبيعى خلال ألف عام - ومحاولة انكار كل فضل متصل به على غير نحو علمى منصف ، نجد الدعوة توجه إلينا لانكار تراثنا المتصل الحى المتفاعل الذى لم يمت ولم ينقطع ولم تسقط لغته فى هوة النسيان .

ونجدنا بروح الاخلاص والانصاف التى يتسم بها فكرنا لا ننكر الروافد التى اتصلت بفكرنا ونعترف بها ، ولا نرى بأساً من أن الاعتراف بأن الفكر العربى الإسلامى كان مفتوحاً على الفكر الانسانى قادر على الامتصاص منه ، مستمداً من عصارته ، ومحولها إياها إلى كيانها ، خالفاً منها - على أساس من مقوماته الأصيلة - فكراً حياً نامياً .

* * *

وقد كانت حملات التغريب والشعوبية على التراث هادفة أساساً إلى حجب الماضى الذى يتمثل فى الدين والقرآن واللغة العربية والتاريخ باعتبارها الروابط الأساسية لوحدة الفكر العربى الإسلامى والضمان الأكيد الحائل دون تفتت الأمة وانصهارها فى الفكر الغربى ولما كان النفوذ الغربى حريصاً على هدم هذه المقومات فقد إمتدت الدعوة إلى مقاومة التراث الماضى بحجة أنه قديم بال لم يعد يصلح للحياة .

فكان من رأى الدكتور زكى نجيب محمود أن رجوعنا إلى الثقافة العربية القديمة هو أشبه شىء
« بالوباء يصيب نهوضنا الفكرى الذى لم يستقم بعد على قدميه ، وربما أحدث هذا الوباء
فى عقولنا من الضرر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال أثره والنجاة من شره . وليت الأمر
فى ضرره يقف عند حد انعدام نفعه ، بل أنه ليعيد لنا جواً فكرياً قد يضطرنا اضطراراً
إلى تنفس هوائه حتى تمتلئ به رئائنا وصدورنا فنكون عندئذ بمثابة من يعود بالزمان
القهرى . ماذا يريد بنا هؤلاء الناس الدين يلون وجوهنا وعيوننا إلى الوراء . . »

أما سلامه موسى فيرى « أن ماضياً كله سخافات وجهالات لا يصح
الافتخار به . »

أما حسين فوزى فيرى « أن الثقافة العربية ماتت عقب القرون الوسطى وذهب
غبارها مع الثقافات الأخرى التى عرفت أوربا بين أغلال الامبراطورية الرومانية وعصر
الرينسانس ولا قيمة للثقافة العربية أكثر من أنها لعبت دور انتقال فى العصور الوسطى
فكانت مستورداً لبعض مظاهر تفكير اليونان فيما قبل عصر أحياء العلوم . وقد كانت
حلقة اتصال بسيطة بين اليونان وعصر البرينسانس وقد انطفأ نورها كما ينطفئ السراج
الذى نضب زينه واحترق ذبائله وانكسر إناؤه وعلى جميع الأمم التى تتكلم العربية
أن تنصرف عن هذه الثقافة فلا نضيع وقتنا فى نبش قبور لن نجد فيها حتى ولا عظاما
مماسكه وكانت وإلى التراب تعود . »

وليس فى هذا الكلام كله رأى علمى ، وإنما هو مشاعر عاطفية تحمل طابع الشجب
والانتقاص والكراهية التى انتفعت بها الشيوعية ورددت صداها .

فما أعرف كاتباً غربياً مهماً بلغ به إنكاره للتراث هاجم التراث الغربى على هذا النحو ،
بل أن كاتباً من كتاب الغرب المبعضين لم يهاجم التراث العربى الإسلامى على هذا النحو .

وإذا كان علينا أن نعرض اتجاه الذين جحدوا التراث العربى الإسلامى على مفاهيم
الغرب للتراث نفسه فأننا نجد تناقضاً واضحاً ، إذ بينما يرى الدكتور عبد الرحمن بدوى يقول
« إن التراث اليونانى عامل لا يزال يحيا بكل قواه فى الحضارة الغربية . »

وزى كوستاس ا كسيلوس فى دراسته المطولة عن مفهوم «التراث» يقول أن التراث «يبقى ويستمر عندما تتوافر منه عنصر انطلاق أصيلة . إنه يسوسنا حتى عند ما ندير له ظهرنا وأن ذكره مرتبط بفتحة تواصل الماضى إلى المستقبل . ذلك أن المستقبل سيحقق يوما بالماضى ، لأن الحاضر ليس إلا جسراً معلقاً بين الماضى والمستقبل وأن هذه التراثات قوى فعلية حيه رهيبة مضيئة ومظلمة ونتائجها تضى بعيداً أبعد من المقرر والمراد ، وأن ما يسمى تراثات إنما يصوغ فى وقت واحد الكائنات والأشياء » .

ويصور الدكتور طه حسين حاضر الفكر الغربى بعد الثورة الفرنسية التى تعد حدثاً جذرياً ضخماً فى هدى وارتباط بالماضى فيقول «قد ظن أصحابها أنهم قطعوا كل سبب بين نظامهم القديم ونظامهم الجديد وأنهم استأنفوا حياة لم تعدها أمتهم من قبل ، فلما سكنت عنهم عنف الثورة وانتهوا إلى الإستقرار وإلى التفكير الهادئ المطمئن تبينوا أنهم قد غيروا ولم يرتجلوا ، وأنهم قد وصلوا القديم بالحديث ، وكان حظهم من الابتكار والإرتجال أقل جداً من حظهم من استيفاء القديم ووصل أسباب الماضى بالحاضر والمستقبل » .

والغريون أنفسهم يفهمون من التراث ما تفهم ، وليس ما يفهم دعاة التغريب فهذه سيمون وايل تكتب عن الحاجة إلى الجذور (The need to roots) .

تقول أن للتراث الماضى فى عنق الحاضر مسئولية قدسيه ، فإذا أنهدم الماضى فإن عودته ضرب من المحال ، ومن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ما ورثوه عن أسلافهم من تراث ، فما علينا إلا أن نجعل ههنا الأكر الاحتفاظ الذى يبق لنا من تراث الماضى .

هذه الجذور ليست نزعاً عاطفية معناها الرجعية والجود ، وإنما هى غريزة روحية تسكن فى نفوسنا جميعاً . وفى اثورة على الماضى دعوة إلى القطيعة بين الجذور والأعضاء » .

وفى الثقافة الهندية نرى وجهة النظر فى التراث واضحة فى عبارة « نهرو » الذى يقول : لقد ولينا وجهنا وجهتين : إلى الأمام نحو المستقبل وإلى الخلف نحو الماضى ، بينما تجاوبنا كل منهما ناحيته ويشدنا نحوه ، فكيف إذن نستطيع أن نوفق بين هذا الصراع ونخرج من ذلك بأسلوب من الحياة يحقق حاجتنا المادية وفى الوقت نفسه يشبع عقولنا ونفوسنا ،

إن علينا أن نتطلع إلى المستقبل وأن نعمل له حاهدين عن قصد يحدونا الإيمان القوى وأن نحفظ في الوقت عينه بترائنا الماضي ماثلاً أمامنا لكي نستمد منه القوة والعزيمة .

وأن التغيير أمر لا بد منه ولكن استمرار الحياة من غير اضطراب أو تقطع أمر لا يقل عن ذلك أهمية ، وخير مستقبل هو ما كان قائماً على الحاضر والماضي على السواء .
أما أن ننكر الماضي ونزرع أنفسنا منه فعناده اقتلاع أنفسنا اقتلاعاً من تربتنا فنخرج منها وقد يبس عودنا وجف مافيه من عصارة الحياة الحقة^(١) » .

وفي نفس الوقت الذي يرتفع الصوت من داخلنا ومن كتابنا في الدعوة إلى حجب التراث وإنكار الماضي كله . نرى كتاب الغرب يؤكدون أننا لن نفعل ذلك ولن نستجب له .

يقول « كامفهاير » : لن ينفصل العرب عن الماضي المجيد ، ليس من الممكن أن يحدث في العالم العربي شيء يشبه ما حدث في تركيا . وسيكون استعادة هذا الماضي وتجديد الحديث عنه هو أحد العوامل القوية في حركة البعث الوطني والديني ، أن حركة بعث الإسلام لا يمكن أن تمقطع أو تتوقف لأن الناس في حاجة إليها فهي إحدى مقومات نهضتهم الوطنية .

ويقول « جاك بارك » : أن مستقبل العرب يتمثل في إحياء الماضي لأن المستقبل هو في كثير من الحالات الماضي الحى أو الماضي الذى وقع أحياءه وعيشه من جديد .
ويقول « جب » ليس في وسع العرب أن يتحرروا من ماضيهم الحافل كما تجرد الأتراك وسيظل الإسلام أهم صفحة في هذا السجل الماضي إلى درجة لا يمكن أن ينفصل عنها الساعون إلى إنشاء مثل عربية عليا .

ويقول بلاشير : كما أن للشعوب الغربية الاحتفاظ بتراث أجدادها القدامى ، كذلك للشعوب العربية الاحتفاظ بتراتها الأصيل وعليها أن تدرك أن كل تراث ثقافى يتضمن امكانيات التطور^(٢) .

(١) الهند : اليوم وغدا لنهر .

(٢) مجلة الآداب (١٩٥٦) .

ومهما كان لهؤلاء الباحثين من رأى فى الفكر العربى الاسلامى فإن مفاهيمهم هذه تتعارض تماما مع ما يتهم به التراث العربى الاسلامى من نقص فى الإيجابية أو الحيوية أو الارتباط بالحافظ .

* * *

ومع هذا الرأى الذى أبداه مستشرقون غربيون ، فإن حركة التغريب التى يقودها النفوذ الأجنبى كانت وراء الحملة على التراث . وعندما أخذت حركة إحياء التراث تبرز كمحرك إيجابى وكقوة مقاومة للتحدى ورد فعله فى الثلاثينات ، تدخل كتاب لهم نفوذ ، وخصوصه سابقة للتراث ، فهاجموا الأعمال التى بدأت وفرضوا أسلوبهم ومنهجهم ، وظن بعض السذج والبسطاء أنهم عادوا إلى الحق ، وأنهم آمنوا بامتهم وفكرها . والواقع أن ليس كذلك وإنهم إنما حملوا أساليب التغريب ومفاهيمه لقيموا عليها أحياء التراث وليستغلوا هذا التراث فى خدمة أهدافهم ، سواء كانت مقاومة الشيوعية أو تأييد الديمقراطية الغربية أو مؤازرة الحلفاء فى الحرب . وبذلك جرت محاولة استغلال التراث لخدمة اهواء النفوذ الغربى . فضلا عن أن الأساليب التى اصطنعت لم تكن خالصة لوجه العلم ، وكانت ذات هدف واضح فى إبراز جوانب معينة .

(١) تغليب الاسطورة على السيرة .

(٢) تأكيد بعض الاتهامات الموجهة للرسول وتاريخه واعطائها صورة البطولة .

(٣) محاولة إبراز مفهوم خاطئ بأن عظمة أعلام الإسلام مستمدة من شخصياتهم أصلا ومن يثبتهم قبل بزوغ الإسلام وليست مستمدة من أثر الإسلام الذى كان نقطة تحول فى بناء الشخصية العربية وغير العربية وتربيتها .

والمعروف أن حركة الاستشراق التى سارت فى فلك الإستعمار النفوذ الأجنبى كانت قد أولت اهتماما كبيرا للتراث العربى الإسلامى واستطاعت أن تحصل على كميات ضخمة من مخطوطاته وأدعتها مكاتبها فى باريس ولندن وغيرها . وإنها حاولت أن تروج لجوانب معينة من هذا التراث وتنفل جانبا آخر كأن تهتم بنشر التافه والملىء بالاضطراب أو الشعوبيات .

وكان المستشرقون الذين استقبلوا بعثاتنا قد رسموا فعلا خطة واضحة لمفاهيمهم

في التراث العربي الإسلامي والفكر العربي الإسلامي فقد أقامو فروضهم أساساً ثم التمسوا لها الأسانيد من نصوص مبتورة أو روايات مضطربة أو بعض ما أورده خصوم العرب و الإسلام والحاقدون عليه من دعاة المانوية أو البابكية أو الخزمية . . من عشرات الفرق التي كانت تأكيداً للإسلام والعرب .

ومن هنا فقد فرض هؤلاء المستشرقون آرائهم فرضاً، وأماي أكثر من دليل على أن الرسائل التي كتبها منصور فهمي وطه حسين وزكي مبارك قد حملت مفاهيم المستشرقين، ثم انتقلت هذه المفاهيم مع الرواد الأول إلى الجامعات في العالم العربي والإسلامي فمضت في نفس الطريق حيناً طويلاً . وكان من أفسى الأعمال أن يحاول مبعوث الخروج من هذا النفوذ المفروض والاتجاه المرسوم بأن يقول رأياً مخالفاً وقد لقي زكي مبارك وضياء الريس عنتاً كبيراً نتيجة لمقاومة اتجاهات المستشرقين وكانت الخطوط الرئيسية في هذا هي :

إن الفلسفة الإسلامية والفكر العربي الإسلامي كله مستمد من الفلسفة اليونانية . وإن الشريعة الإسلامية مستمدة من الشريعة الرومانية . وأن القرآن من نظم محمد ، وإن الإسلام جماع من الأديان السابقة له ، إن النبي محمد كان ذارجوله خارقة وهذا سر تعدد زوجاته وإن العرب قبل الإسلام ، كانوا أمه ذات بلاغة وبطولة وإن بطولات النبي وعمر وعلى مستمدة من البيئة العربية وليس من الإسلام نفسه . وقد انصهرت هذه المفاهيم الخاطئة في معظم الدراسات وكما أقيم إحياء التراث العربي الإسلامي في ضوءها وعلى مخططاتها .

فكان الاهتمام الضخم بأبي نواس وبشار من الشعراء وبالمحرفين في الصوفية كالسهروردي وابن عربي والحلاج وكان من أوائل كتب إحياء التراث التي طبعت الأغاني وألف ليلة وترجمات عمر الخيام .

ولم يتوقف المستشرقون عن قذف التراث العربي الإسلامي بعشرات النظريات والآراء المدمرة منها نظرية انتحال الشعر الجاهلي ، والشك في الكتب المقدسة ، وفصل الأدب عن الدين . أما الشخصيات الضخمة في تاريخنا فقد وجهت إليها الاتهامات ، المتنبي لقيط ولا أب له ، ابن خلدون محترف .

ثم جرت الدعوة إلى اتخاذ الفلكلور وسيلة يستغلها التغريب لمحاولة القضاء على الجوانب

الاجبائية في التراث تحت ضغط ابراز جوانب معينة واعطائها اكثر مما تسحق من الاهتمام. إذا عرضت في اطار التراث كله .

ولا شك أن احياء التراث العربى الاسلامى من أخطر الأعمال التى تواجه حركة التغريب لأنها ترد المثقفين إلى جذورهم وتكشف لهم عن مقومات فكرهم ، وتعطيهم زاداً فكرياً وروحياً لا حـد لقوته وأثره ، ودوافعه فى الإيمان بالشخصية العربية الإسلامية والثقة بها .

ولذلك فهو لا يألوا جهداً فى إغراق السوق بالتافه والمضطرب والشعوبى من المخطوطات . ليوكد نظرة معينة إلى التراث ، ثم هم يفرضون نظريتهم المستمدة من مفاهيمهم للفكر الغربى الوثئى المادى — على تحقيق التراث ، ومن هنا يبدو قصور التحقيق العالمى للتراث .

وليس فى هذا تجن أو مبالغة فإن الغربيين فى مختلف أبحاثهم عن التراث يعلنون أن تراثهم يمد وجودهم بالعلمانية والإلحاد وأن التراث الهلنى قد أخصب التراث اليهودى المسيحى .

* * *

وإذا كان هذا التيار قد تعمق فعلا ، وانحرف فى إحياء التراث فإن جهوداً ضخمة لتحريره وحمايته قد بذلها رجال صادقون لأمتهم وتراثها لا يمكن أن تنسى ، ولا أن تضيع . وقد كانت حتماً فى العقد الثالث من هذا القرن تمثل تياراً منصفاً سار فيه أحمد زكى وأحمد تيمور وطاهر الجزائرى ومحب الدين الخطيب ثم من بعدهم وعبد الله كنون وإبراهيم الإييارى وأبو الفضل إبراهيم وعبد السلام هارون ومحمد الفاسى ومصطفى جواد .

وكان الدعاة إلى إحياء تراثنا العربى الإسلامى أساساً من اتباع حركات الاجتهاد والتجديد وكان أغلبهم قد تعلموا فى أوروبا — أمثال عبد العزيز شاويش وعلى مظهر ويحيى الدرديرى ولم يكن هذا الجيل خاضعاً للمستشرقين بل على العكس موجهاً لهم ، وحملات عبد العزيز جاويش على المستشرقين فى مؤتمراتهم عام ١٩٠٥ مشهورة وقد حملت بعض المتعصبين من كتابهم على التراجع عن آرائه . أما زكى باشا وتيمور باشا فقد كان المستشرقون يقفون منهما موقف

التلاميذ ، وقد عرف زكى باشا بمعارضته وحملاته الضخمة على أخطاء المستشرقين وانحرافاتهم .

غير أن هذا الرعيل الذى يتمثل فيه الإيمان بالتراث العربى الإسلامى وفهمه وفق مقوماتنا قد ضاع إزاء الجيل الضخم الجديد من أتباع المستشرقين ولا أقول تلاميذهم، هؤلاء الذين تصدوا لإحياء التراث وفق مفاهيم التغريب ، هذه المفاهيم التى بناها المستشرقون منذ وقت طويل فى ظل اهتمامهم البالغ بجمع التراث منذ وقت باكر . وروى كرد على فى كتابه « خطط الشام » أن فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولندا وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر مخطوطات عربية عن مختلف البلاد التى تبتاعها بواسطة وكلائها وقناصلها الأساقفة والمبشرين من رجال الدين . وقد باع خدم المساجد الأوراق الصفراء التى كانت تضمها خزائن المساجد ، وروى الفيكونت دى طرازى فى كتاب « خزائن الكتب العربية » أن خادماً يدعى ابن السليمانى عين فى حوالى منتصف القرن الماضى حارساً لثلاث مكتبات كبرى فى مساجد القاهرة . وكان الرجل يستعين على رزقه ببيع عيدان قصب السكر ، وكان يقيم فى زاوية تحت سلم مسجد السلطان حسن ويضع بجانب بضاعته من القصب ألواحاً من مخطوطات المساجد الثلاثة يبيع منها لمن يدفع » .

هكذا أولى الغربيون هذا التراث، اهتماماً استهدف محاولتهم إخفاء جانب منه أو تحريف تفسيره أو استغلاله على نحو من الإنحاء فى مخطط التغريب وخدمة النفوذ الغربى ، ورسم خطط مقاومة آثاره أو مقاومة إحيائه على النحو الصحيح .

وتبدو المناقضة واضحة : إنه فى نفس الوقت الذى يدعونا التغريب إلى إهمال التراث يهتم به ويبدل من أجل الحصول عليه وتحليله وإعادة طبعه ونشره جهداً كبيراً ، وبينما تدعو الشعوبية إلى رفض التراث العربى الإسلامى جملة والجملة عليه ، فهى تولى اهتمامها للتراث الفرعونى والفينقى والآشورى والبابلى وكل ما قبل الإسلام . وفى هذه الحملة مغالطتين : أولاً أن الغرب الذى يستغل به هؤلاء ، ويؤمنون بولائه قد آمن بترائة وأحياءه وأطلق على عصر نهضته « الرينسانس » أى الإحياء . والأخرى أن أعلام المستشرقين فى الغرب يعملون فى مجال إحياء التراث العربى الإسلامى ، ومع ذلك فإن دعاة التغريب والشعوبية

يصفقون لهم . وفي هذا المعنى تقول الدكتورة بنت الشاطىء : « إذا اشتغلنا نحن العرب بترائنا ، اتهمنا بالرجعية ، ووصمنا بالتأخر ، وشبهنا بالهياكل الخربة ، وإذا اشتغل بها أمثال : مرجليوت وجب وماسنيون وبروفنسال وكانياتي وكراشكوفشكي وشاخث ؛ فهم علماء أفذاذ » . وعلى نفس النسق ترى دعاة التغريب يرون أن اهتمامنا بالتراث العربي والإسلامي عملاً مرفوضاً ، بينما إذا اهتممنا بتراث الإغريق أو بتراث العرب قبل الإسلام ، كان هذا العمل بالغ التقدير في نظرهم .

وحين يزعمهم تجديد التراث العربي الإسلامي وإحيائه ، لا يزعمهم أن يعود اليهود إلى إحياء اللغة العبرية التي ماتت منذ ألف عام .

وهناك ظاهرة بالغة الأهمية في هذه التبعية في فهم التراث أو التأثير به ، فإن كتابنا لم يكتبوا عن محمد ولا الإسلام بإنصاف ، إلا بعد أن سبقهم إلى ذلك أمثال جوستاف لوبون وأميل درمنجم . وأن تأثرهم بهذه الكتابات المنصفة إنما كان جرياً على اتجاههم في التبعية ثم لم يلبث هذا المجرى أن تحرر حين سار فيه الجليل الذي تابعهم .

وفي مجال التأليف عن التراث ، بدت نزعة التأثير بنظر المستشرقين واضحة في أمثال « تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان » و « تاريخ العرب لفيليب متى » و « فجر الإسلام لأحمد أمين » و « الأدب الجاهلي لطلح حسين » و « النثر الفني لوكي مبارك » .

وفي كثير من إنتاج العالم العربي والإسلامي نماذج مماثلة لهذا ، فعظمة الفردوسي مثلاً ترد إلى وطنه الفارسي ، لا إلى ثقافته الإسلامية . وحيث ترى محاولة إعلاء التراث الإقليمي الخالص وتصفيته من التراث العربي الإسلامي كدعوة أميل خوري حرب في لبنان . أو التخلص من الحروف العربية والكلمات العربية كما فعلت تركيا .

وقد استطاع المستشرقون في حوالى الخمسين عاماً الماضية أن يقدموا دراسات متعددة في مختلف مجالات التراث العربي الإسلامي ، التاريخية والأدبية والفلسفية والصوفية ، فرضوا فيها شكوكهم وأهواءهم ودعوتهم التغريبية في دقة بالغة من خلال البحث العلمي ، حتى أصبح الآن ، وليس في وسع الباحث العربي أو الإسلامي - مع الأسف - إلا أن يأخذ بها كالمسلمات دون أن يتحفظ أو يفتن لما فيها من سموم وانحرافات . وإننا نرى الآن أغلب كتابنا ، وقد

أصبحوا يعتمدون اعتماداً كاملاً على دوائر المعارف الإسلامية والبريطانية والفرنسية في كل ما يتصل بأمر ثقافتهم وتراثهم ويجدون أنه من الأسهل اليسير أن ينقلوا هذه النصوص وينبؤوا عليها كتاباتهم ، وبذلك يسايروا أخطاء المستشرقين ، ومغالطات دعاة التغريب ، ويعمقوا آراءهم ويزيدونها ، وقل منهم من يراجع هذه الآراء ويحصيها ، أو يرى وجهة نظره من خلال مفاهيمه للفكر العربي الإسلامي وفي ظل الكسل العقلي في العالم الإسلامي ويواصل المستشرقون أبحاثهم في هذا الصدد ويوالونها ، وقد أعادوا طبع دائرة المعارف الإسلامية ، التي مازلنا نواصل ترجمة طبعتها الأولى منذ عام ١٩٣٢ ولما ننته بعد منها ، على ما هي مليئة به من الانحرافات والأخطاء وأفكار التعصب .

وتلك صورة بشعة غاية البشاعة ، أن يعتمد الفكر العربي الإسلامي ودعائه على مراجع المستشرقين وآرائهم ونحن نعرف في تأكيد أنهم يخطئون مرتين : مرة بالقصور الذاتي في فهم الفكر الإسلامي ، ومرة بالتعصب وموالات النفوذ الأجنبي . ونضيف إلى هذا دسائس اليهودية العالمية ، التي تحاول أن تثبت أن لها حقاً تاريخياً في فلسطين ، أو تضيف تحريفات مقصودة لبعض جوانب التاريخ والفكر . كما أولى المستشرقون اهتماماً كبيراً للشرق وبلاد العرب قبيل الإسلام ، ودراسة الحركات المنحرفة من داخل تاريخ الإسلام وفكره ، والاهتمام بها ، وإبراز الخطوط العامة للفكر الشعبي ، الذي هاجم مقومات الفكر الإسلامي ، واعتباره حقائق أساسية . من خلال هذه الملاحظات يجب أن تكون نظرنا إلى التراث العربي الإسلامي فنحتاط تماماً في الاعتماد على كتابات التغريب والشعوبية من ناحية ، ونعيد النظر في تراثنا من ناحية أخرى . فنحن أساساً لا نرفض تراثنا ، ولا نعتقد أن ذلك ممكناً ، فليس هناك قوة مهما بلغت ، تستطيع أن تنزع أمة من جذورها وروابطها وقيمها الأساسية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فليس معنى « تقدير » التراث هو قبوله دون تحقيق علمي دقيق ، وليس معنى قبوله وخضه ، هو إعادة مثله أو تطبيقه . وعلينا أن تكون نظرنا إلى التراث أصيلة مستمدة من مفاهيمنا ، فلا نعتمد على وجهة نظر الفكر الغربي ، الذي تختلف مقوماته عن مقومات فكرنا ، ولا على مخطط الاستشراق والتغريب والشعوبية ، الذي لا يؤمن بأمثنا أو فكرها أساساً . ولا شك في ضرورة النظرة إلى التراث في هذه المرحلة من حياتنا الفكرية ، فهي بمثابة شهادة الميلاد لنا ، والضوء الكاشف الذي نأمن في ظله العثار ، ففي تراثنا ، مقومات

فكرنا الأساسية الحية المستمرة الممتدة التي لم تمت ، ولم تتحول إلى المتحف ، ولم تنفصل عن تاريخنا . وليس تراثنا ميت يحيا ، ولو كان كذلك ما كان هناك من خير ، فقد أحيا الأوريون تراث اليونان والرومان بعد أن قبر ألقي سنة ، وكذلك أحيا اليهود لسانهم العبري وبعثوا فكرهم بعد ألف عام ويزيد ، إن طاقة التراث الحى تعطى ولا تنقص ، وكل قول يوجه إلى هدمها أو البعض منها هو لون من الشعوبية والتغريب . ونظرية إحياء التراث ومثله ، تهدف أساساً إلى الربط بين الماضى الحاضر من ناحية ، والاندفاع إلى الإيجابية من ناحية أخرى ، وهى دعوة للاستيحاء للتقليد ، وللتكلمة لا للتكرار ، وفى تقدير كثير من المؤرخين أن النهضة لا تنجح إلا إذا قامت على التراث وارتبطت بالجدور . ومعنى هذا أن يظل فكرنا نابعاً من قيمنا الأساسية ، مرتبط بماضينا .

وكل ما تدعونا اليقظة إليه هو تحرير هذا التراث ، مما علق به من الشوائب على نحو قوامه الإيمان بفكرنا وأمتنا ، وعلى أساس الجرح والتعديل ، ومعرفة الجوهر من العرض . ويقوم هذا العمل على أساس أن فكرنا مزيج من الروح والمادة والدين والحياة وأنه لا يفصل بينهما ، وعلى ألا نتخذ ظروف دين أو فكر أو تراث آخر أداة لتطبيقها على فكرنا العربى الإسلامى . أن نظرتنا إلى الحياة تنبع من تاريخنا وفكرنا وتراثنا وليس تراثنا روحياً فقط كما يحاول البعض أن يقول ، وليس عقياً وإمماً هو حى متطور ، وقادر على أن يدنا بالحياة والحركة ، وإذا كان الفكر العربى قد عنى بأساطيره وخرافاته فنحن أحق بأن تعنى بحقائقنا وقيمنا . وليس صحيحاً على الإطلاق أن الأخذ بأسباب الحضارة يتطلب هدم التراث . وليس معنى فتح النوافذ للثقافات والأفكار أن نرى النور بأعين غيرنا .

وفى هذا المجال يمكن القول بأن نهضتنا قد أولت التراث اهتماماً ضخماً فقد أخذ يعمق طريقه ويحدث أثره فى بحث الإصالة والضياء .

التاريخ

ما زال « التاريخ العربى الإسلامى » يمثل قطاعا خطيرا من مقومات فكرنا وأسسها التى طالما واجهت عواصف التغريب وحملات الغزو التى عملت على تحويلها عن قيمها ولبايها ، ولقد كان تاريخنا ولا يزال عاملا هاما فى بناء ثقافتنا وخلق وحدة الفكر وتعميقها ، وهو فى هذه المرحلة التى نمر بها اليوم - مرحلة ما بعد انتهاء الاحتلال للعالم العربى وبناء نهضته التى تزعج النفوذ الأجنبى على النحو الذى يتمثل فيه القضاء عليه مما دعاه إلى تعميق الغزو الفكرى وتوسيع نطاق التغريب والشعوبية - ولا شك كان التاريخ عاملا هاما فى بناء الفكر العربى الإسلامى وأداة من أدوات دفع هذه الأمة إلى الحياة والقوة والتطور .

ولقد كانت حملة التشكيك الضخمة التى وجهت للتاريخ العربى الإسلامى . خلال مائة عام مضت عاملا بعيد المدى فى هبوط روح الإيمان بقدرتنا على إحراز مكاننا الحقيقى فى الحياة الإنسانية . فقد وجهت إلى تاريخنا سهام النقد وفرضت نظريات مريبة تحاول هدمه وإثارة الشبهات فى بعض موافقة من أجل صرف الأنظار عنه ، أو خلق نظرة من الريبة والكرهية والتنفير منه . بينما غلت الدعوة إلى الاهتمام بالتاريخ الغربى والتوسع فيه وتقديسه فى صور رائعة مغرية ، وقد أتاح دعوة التغريب للعالم الإسلامى أن تقدم له عشرات الأبحاث والدراسات فى تاريخ فرنسا وإنجلترا وهولندا وعمت الصحف العربية والإسلامية فى حملة متصلة لا تتوقف فى دراسات متصلة لأعلام الوطنية والسياسة والفكر والاجتماع فى الغرب ، تحمل فى تضاعيفها التقدير والإعجاب والتحليل لحياة هؤلاء وآرائهم وأعمالهم على نحو يدعو إلى الاكبار والإجلال ، بينما لم يجد أعلامنا وأبطالنا ولا مواقفنا الخالدة ولا بطولاتنا مثل ذلك ، ولا أمكن أن يتفرغ لها كتابنا الذين أهمهم نابليون وبسارك وتشرشل ووشنطون وماركس وفرويد .

بل أن الثورة الفرنسية لو أحصى ما كتب عنها فى الصحف المصرية فى خلال نصف قرن لزاد عما كتب عن الثورة العربية وثورة ١٩١٩ ولو أحصى ما كتب عن نابليون لزاد عما كتب عن مصطفى كامل ومحمد فريد .

أما في الجزائر والمغرب وتونس فإن الموقف يكون أشد عنفاً ، فقد حيل بين هذه الأجزاء من الوطن العربي أن تتصل بالتاريخ العربي الإسلامي ولقد اتصلت دعوات التاريخ وتعمقت لدراسة انعصور الأولى ، فحرص النفوذ الأجنبي في العالم العربي على دراسة الفرعونية والبابلية والآشورية وحضارة الرومان واليونان وتاريخهما ثم حضارة الغرب منذ أول عهد النهضة وثورات إنجلترا وفرنسا وأمريكا . ولسنا نعارض في دراسة حضارات العالم أو تاريخ البشرية فذلك مصدر من مصادر الثقافة لا حد له ، ولكننا ننظر إلى الهدف منه ، حين يصادر تاريخ الأمة العربية والدولة الإسلامية ويحدد أو يحرف أو ينظر إليه إلا من خلال تاريخ الملوك والصراع بين الأمراء والحكام ، وفق مخطط يستهدف المقارنة التي تقضى إلى احتقار تاريخنا والإعجاب بتاريخ الأمم الغالية المسيطرة الحاكمة ، ومن هنا تنشأ روح الموالاة للغاصب والسير في ركابه ، والأعضاء والنفرة من تاريخنا وأجدادنا التي لا تبدو في نظر الأجيال إلا صورة من الصراع والخصومة والمواقف المشتهية أو الغامضة .

وليس شك أن في تاريخ كل لغة ودولة مواقف نقص وقصور ولكنها في مجملها لا تستطيع أن تقضى على عظمة هذا التاريخ ومكانته ودوره وأثره في المدينة الإنسانية والحضارة البشرية .

وقد واجه « التاريخ » العربي الإسلامي محاولة ضخمة ذات شقين للقضاء عليه أو التشكيك فيه (الأولى) وجهت إلى منهجه . و (الثانية) وجهت إلى مضمونه .

فقد هاجمت الحملة أسلوب كتابته وعمدت الثانية إلى التشكيك في بطولاته ومقوماته . وذلك بإبراز الروايات الضعيفة وإذاعتها ، أو اختيار مواقف معينة أو شخصيات ذات طابع خاص لدراسة التاريخ العربي الإسلامي من خلالها أو إتخاذها نموذجاً له .

وقد اعتمد الغربيون من المستشرقين في هذا على كتابات قديمة ومؤلفات كتبها من قبل قدماء الشعوبيين في حملتهم الضارية على العربية والإسلام وكانت قد قبلت برود علمية ومسنده من كتاب ومفكرين لهم خطرهم ومكانهم شارك فيها الجاحظ وأبو حيان التوحيدي وغيرهم .

ومن مقدمة ما اعتمد عليه دعاء التغريب في محاولة تصوير تاريخنا العربى الإسلامى تلك الكتب التى لم تؤلف للتاريخ والتى تناولت الشعراء والقصاصين ومجالس الشراب واللبو ، وفى مقدمتها « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى وألف ليلاة ورباعيات الخيام وتراجم السهروردي وابن عربى وابن الراوندى وما نسب إلى المعرى وأبو نواس وبشار ابن برد والضحاك ومن خلال هذه النصوص حاول بعضهم تصوير العصر بصورة الشك والمجون على النحو الذى نقله طه حسين فى كتابه حديث الأرباء .

وفى الجانب الآخر وجه الهجوم العنيف إلى كل من كان ذا فضل أو عبقرية فى التاريخ العربى الإسلامى كالمتنبى الذى وصف بأنه من غير أب ، وابن الرومى الذى وصفت عقلية بأنها فارسية والمعرى الذى نسبت رسالته الغفران إلى الرهبان أو ابن خلدون الذى وصف بأنه تلميذ اليونان .

هذا فضلاً عما أضيف إلى تاريخنا العربى الإسلامى من إسرائيليات وأقاصيص وأكاذيب فقد كتب أغلبه فى ظل الدولة العباسية التى كانت فارسية النزعة ذات سيطرة على فكرها وكتابتها ، وكانت تحمل البغض للامويين وللعرب ، وقد غلب الشعوبيون على كتاباتها ولفقوا الأحداث والأقاصيص ، وكثير من الكتاب والمؤرخين قد اتصلوا بالأمرأ والملوك والولاء والخلفاء ، وكان بعضهم فى ظل هذا المذهب أو ذاك من مذاهب الفسكر التى كانت فى حقيقتها أحزاب سياسية كالمناوية والبابكية والخزمية وغلاة الشيعة واتباع الشعوبية وقد كان أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى من أقذغ الناس لساناً يخشاه الأمرأ ويرد موائدهم بملابسه القذرة ورأحتهم المثلثة فلا يستطيعون رده أو مخاصمته خوفاً من لسانه وقلمه ، وكان إلى ذلك شعوبياً ومتهماً فى عرضه وخلته وعقله ، ومع ذلك يصبح كتابه الأغانى مرجعاً يحرص المستشرقون واتباعهم على أن يكون مصدراً تاريخياً من مصادر الحكم على القرن الثانى والثالث فيوصف بأنه عصر فسق ومجون ، ويتخذ من ثلاثة أو أربعة من الشعراء الزنادقة المنحليين رمزاً للعصر كله ، دون أن تضاف إلى ذلك حلقات العلم أو دراسات أهل الفضل وحفظه القرآن والحديث والشريعة وهم الذين هم يمثلون القطاع الأكبر من المجتمع .

وقد قدم كتاب الأغاني للملوك متعة ، وكتب أساساً ليكون عامل ترف للامراء ، ولا شك أن بروز الدعوة في فكرنا العربى الحديث إلى إعادة ما سطره الشعبويين من اتهامات ومغالطات للتاريخ الإسلامى إنما برز فى ظل هدف كبير من أهداف التغريب والغزو الثقافى وحمل لوائه دعاة وجهوا لهذا العمل .

واتخذت لهم حركة التغريب مذاهب فى الفكر الغربى تهاجم التاريخ عموماً ولا تعترف به ، وتستعمل مفاهيمها لمهاجمة من مذهبها فى النظرة المادية الدارونية والتفسير المادى للتاريخ وهى ليست إلا نظرية من نظريات عدة يضطرم بها الفكر العربى فى عدااء التاريخ وخصومته أو الإيمان به وتقدير مكانة ، ولكن دعوة التغريب تطمس دائماً هذا الجانب ونفرض أن هذا هو رأى ، وكذلك فعلت حين هاجم فكرنا العربى الإسلامى بعض كتاب الغرب ، ثم أولاء التقدير عدد آخر من كتاب الغرب ، ومع ذلك فقد أذيعت نظريات خصوم فكرنا ووسع نطاقها واحتفل بأحد دعاة « رينان » فى الجامعة المصرية فى القاهرة ، بينما نظر فى إغضاء إلى الذين انصفوا فكرنا وتاريخنا .

* * *

ونظرية التغريب إلى التاريخ العربى الإسلامى تحاول أن تشكك فى التاريخ وتحوطه بعوامل التهمين ونحن لا ندعو إلى تقديس التاريخ أو وضعه فوق النقد وإنما ندعو إلى النظر المنصف الذى لا يحمل فى أعماقه الحقد أو الخصومة .

ولذلك فإننا نقبل نقد التاريخ العربى الإسلامى وإعادة كتابته وتصفيته من كل ما علق به من زيوف ولكن ليس بأيدي دعاة التغريب وإنما بأيدي المنصفين ، وهنا يبرز علم الجرح والتعديل فى معرفة الرجال الذين يتصلون بهذه الأعمال الخطيرة البعيدة المدى فى إرساء مقومات فكرنا العربى الإسلامى ، فإننا فى أساس النظرة المنهجية نؤمن بالتحقيق العلمى الذى يجعل من أول مفاهيمه وأكبر مقوماته « الرجل » الباحث ومدى إيمانه بأتمته وفكرها فإذا كان من دعاة التغريب أو فى تاريخه ما يشوب فإن كل ما يقوله فى تاريخنا يحمل على محمل الاتهام والجري فى ظل حركات الشعبوية والتغريب .

ومن هنا كانت دعوة بعض دعاة التغريب إلى النقد التاريخي تتصل أول ما تتصل بالكتاب الذين يحملون لوأمها ، وإذا كان أُمّاي كاتين أحدهما مؤمن بالفكر العربي الإسلامي صادق في نظريته ، لم يتأثر دعوى التغريب والشعوبية وآخر عرف بماضيه في متابعة مفكرى الغرب والدعوة إلى القضاء على مقومات فكرنا في الدين أو اللغة أو التاريخ فعلينا أن نقبل من الأول ونرد الثاني .

ويقرر دعاة مذهب التغريب في النظر إلى التاريخ العربي الإسلامي أن مذهب تقديس السلف وتزييه عن الصغائر ، ومذهب أسباغ الدين على طور من أطوار التاريخ خطأ ويرون أن الأمم في بعض ظروف ضعفها تحاول وهي بسبيل استرداد مجدها القديم أن تكبر من تاريخها وماضيها وتجل أصحابه وتتخذهم مثلاً علياً . وعندنا أن هذا ليس عيباً وأن مراحل الضرورة تحتاج فعلاً إلى إستغلال التاريخ كقوة دافعة دون أن يكون ذلك على حساب حقائق التاريخ نفسها أو تحريفها .

ولكن دعاة التغريب الذين يعرفون ذلك لا يتوقفون عن الإسراع في ضرب هذا الهدف من أهداف الأمم التي تحاول أن تتخذ من تاريخها وأجسادها قوة لليقظة والحركة ومقاومة الغاصب . وإذا هم يسرعون فيوجهون الضربات لهؤلاء الكتاب من ناحية ، ويقدمون صوراً لها قوة الذبوع والانتشار تحمل صورة التدمير للعصور الزاهرة والبطولات والمواقف الحاسمة .

وهذا ما حدث بالفعل ، فإننا في الثلاثينات حاولنا أن نجعل من تاريخنا العربي الإسلامي وسيلة لدفع الأمة العربية والعالم الإسلامي إلى اتخاذ بطولات تاريخه سبيلاً لمقاومة الغزو ولإستعادة الثقة في أمتنا وقيمنا ومقدراتنا ، بعد أن حاول النفوذ الفكري الغربي المجسد في التغريب أنهما منا بأننا لم نكن إلا أُمماً تحتاجها الدول من فرس وروم وعرب - أي والله والعرب اعتبرهم التغريب غزاه - .

هنا قام أمثال الدكتور طه حسين فحاول أن يصور العصر الثاني والثالث للهجرة على أنه عصر شك ومجوف : فإذا قام من يعارضه كالمؤرخ الإسلامي رفيق العظم هاجمه في عنف ، وقال له أن التاريخ منفصل عن الوطنية ومنفصل عن الدين . وأن محاولة تقديسه

محاولة مضللة وأنه لا بد من النظر إلى التاريخ نظرة مجردة ، تشيع فيها الشكوك والاتهامات .

والواقع أن الأمم في علاقتها بالتاريخ تمر بمرحلتين (١) الضرورة والبناء وفيها يصبح التاريخ وسيلة فعالة وسلاحاً هاماً ، وهذه هي مرحلة الضرورة التي تقاوم بها الأمة الغزو الفكري والتغريب والشعوبية ونحن في العالم الإسلامي والعربي نمر الآن بهذه المرحلة .

(١) مرحلة الاستقرار : وهذه يعاد خلالها النظر في التاريخ فيصنف من كل عوامل الخطأ والتزييف على النحو الذي يخلق منه تاريخاً علمياً .

ولذلك فإن دعوة الأمم إلى طعن تاريخها وتمزيقه وتعريته وإثارة الشبهات حوله في ظل معركة البناء ومرحلة الضرورة ، لا شك أنه عمل من أعمال الشعوبية ، ونحن في هذا أيضاً لا نأخذ نظرية من عشرات النظريات في الفكر الغربي لتسكون قاعدة نحكم على أساسها أو تفرض علينا ، دون تقدير لعدة عوامل ؛ أهمها : أن مقومات الفكر العربي الإسلامي تقوم على أساس امتزاج عناصر اللغة والدين والتاريخ والتراث ولا يمكن فصل عنصر منها فالدين مرتبط باللغة ، والتاريخ مرتبط بالدين وكذلك شأن الثقافة والتراث وهذا الفصل عمل وهمي إذ لا يمكن فعلاً فصل القيم المشابكة المتزجة أساساً .

ومن هنا حمل طه حسين على أحمد زكي (باشا) في دعوته إلى إحياء أمجاد العرب ، وحمل لواء تأكيد فرية حرق العرب لمكتبة الاسكندرية ، وعندما تحول الدكتور هيكل عن هذه المفاهيم ودعا إلى إحياء الفكر العربي الإسلامي كوسيلة من وسائل النهضة وأعترف بأنه حاول أن يوقظ مصر والعالم العربي عن طريق الفكر الغربي ثم عن طريق الدعوة الفرعونية فشل في كليهما ولم يجد سبيلاً لليقظة إلا عن طريق الفكر العربي الإسلامي ، عندما فعل هيكل هذا هاجمه طه حسين بعنف واتهمه بقصر النظر^(١) .

* * *

ولقد كانت حملة دعاة التغريب على « تقديس التاريخ » لا تهدف إلى تنقية التاريخ

(١) مقدمة كتابه منزل الوحي .

وإنما التشكيك فيه ، وعلى أساس قانون الجرح والتعديل لا يدخل هؤلاء الدعاة في نطاق الموثوق بهم ، فقد كانت مؤلفاتهم كلها وكتاباتهم تنصب على اتهام الفكر العربي الإسلامي وانتقاصه . ففي « الشعر الجاهلي » سخر من القرآن والتوراة ، وأعلن شكوكه في كثير من حقائق الإسلام والكتب المقدسة . وفي « حديث الأربعاء » حاول أن يصور العصر الثاني الهجري بأنه عصر شك ومحون ، وفي « هامش السيرة » حاول تغليب الأساطير على أصول السيرة ، وفي « مستقبل الثقافة » دعا إلى الارتقاء في احضان الغرب والأخذ بمذاهبه في الحياة والفكر « ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب » فالكتاب الذي يحطم أيدي أمته حين تتمسك بتاريخها لتقاوم به الغزو الفكري الغربي والنفوذ الإستعماري فيتم تاريخها ويعلن ان التاريخ يجب أن ينظر فيه على أساس الشك والنقد واعتبار أبطاله أناس عاديون يجري عليهم ما يجري على الناس ، هذا الكتاب لا يستطيع أن ينال ثقة أمته ولا يأخذ في فكرها مكانا عليا .

* * *

وقد هاجم رفيق العظم فكرة اعتماد الدكتور طه على أخبار القصاص في تصوير العصر الثاني والثالث للهجرة بأنه عصر شك ومحون ، حين أشار إلى أن مثل هذه من كتب القصاص وضعت في ظرف اراد به الخلفاء صرف الناس عن أخبار الخلافة والسياسة . ومثل ألف ليلة وليلة وقصة عنتر العنسي وواضعها مجهول وأخبار الفتوحات . وقد تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كإخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك فكان منها الغث والthin ومنها الملفق والقريب من الصحة — وقد غالى بعض الأخباريين في اراد أخبار المجون والهتك والانفاس في الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من كل معنى الأدب ، ولا أظنني مخطئا إذا قلت أن ما هزل من هذا القبيل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر — وهو ما اعتمد عليه طه حسين — إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون (م — ١٣ الفكر العربي الماصر)

وأما لسدّ نهم العامة إلى تلك القصص المخزية والروايات الملققة . والذي جوز الشك في قصة ابن عبدوس يجوز الشك في صحة أكثر القصص والروايات التي نقلت عن أبي نواس وغيره من شعراء الجون وثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية فلا يصح أن تتخذ مثالا صادقا لذلك العصر (١) . .

ولقد حفلت الأبحاث التي كتبها المستشرقون والمبشرون ومن لف لفهم من كتاب الغرب بآتهامات وإثارات للتاريخ الإسلامي والعربي تتعلق بشخصية النبي ومعاركه وحياته الاجتماعية وتتصل بمختلف أعلام التاريخ العربي الإسلامي، وقد قامت هذه الكتابات المتعصبة على أساس من اتجاه كتابها ومفاهيمهم، وقد أصبح هؤلاء معروفون في مجال الفكر العربي الإسلامي .

ولا يخفف من غلوهم إلا أننا نجد هناك من كتبوا عن التاريخ العربي بانصاف وتقدير . ومقطع الرأى في هذا هو أن الدول الإستعمارية ذات النفوذ السياسى أو الدينى تحاول أن تجد من كبار الكتاب فى الغرب دعاة لها وأدوات لغزوها الفكرى فنتيج لهؤلاء رحلات قصيرة إلى الشرق، تكون وسيلة لكتابات مضطربة غامضة فيها حملات تتسم بالقصور عن الفهم والدرس، لأنها لم تمكن كتابها من تحقيق فكرى أو بحث علمى . وفى هذا يقول مستر جب فى كتابه (المحمدية) أن مؤلفات المبشرين عن الإسلام والعرب تصدر عن أولئك الذين يحكمهم تفكيرهم الاعتقاد بان الإسلام دين منحط وأن بعضهم جرى بقديم فى تفهم الإسلام ، ومع ذلك فلا تزال الأحكام السابقة والآراء المغرضة تلازم موقفهم من الإسلام . وفى الناحية الأخرى يبرز كتاب منصفون لا يتصلون بالنفوذ الإستعمارى وأدواته ، فيكتبون بناء على دراسة أو بحىث عميق ومن هؤلاء جوستاف لويون واميل درمنجم وتوينبى وغيرهم (٢) .

* * *

ولسنا هنا فى سبيل إحصاء الاتهامات والأخطاء أو الشبهات والشكوك التى واجه

(١) اقرأ المركة بكاملها فى كتابنا (المارك الأدبية) .

(٢) انظر كتابنا « الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى » .

بها كتاب غرييون - واتباعهم من دعاة التغريب والشموعية - التاريخ العربى الإسلامى وذلك له مكانه فى دراسة متخصصة ، غير أنه يمكن رد هذه الاتهامات والشبهات إلى عدة عوامل :

- (١) القصور فى الدراسة أو الاعتماد على مراجع شعوية أو تغريبية .
- (٢) التحيز لوزارات المستعمرات والخارجية فى الدول الإستعمارية .
- (٣) الموالاة لدعوات الغزو الفكرى المنطوية خلف اليهودية العالمية أو الشيوعية أو الشموعية والتغريب .
- (٤) محاولة خدمة نقوذ الأديان أو الكنائس الغربية .

والمعروف أن هذه الجهات جميعها ترصد مبالغ ضخمة فى ميزانياتها كل عام لعمليات التبشير- فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى وخاصة (أواسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا) وأنها قد خدعت كثيراً من الكتاب فى العالم العربى لكتابة أبحاث لها طابع معين ، هذا فضلاً عن دعايتها وأتباعها المنبئين فى كل مكان ، وما يصدر باسمهم من صحف زاهرة ، أو مؤلفات أنيقة .

واجه الفكر الغربي قضية كتابة التاريخ وتقييمه على أنماط مختلفة ، وفي ظل نظريات متعددة ، كان مصدرها ، العصور والدعوات والتيارات . وكانت هذه النظريات في الأغلب مرتبطة بدعوة أو مذهب ، كانت للفلاسفة نظرتهم إلى التاريخ ، وهي نظرة تهدف إلى الإقلال من قدرة وقد بلغت في المغالاة إلى درجة إسقاطه نهائياً ، وعدم الاعتماد عليه ، فديكارت . أبي الفلسفة الحديثة يدعو إلى صرف النظر عن كل ما قاله السابقون ، بينما ليبتز ينظر إلى التاريخ نظرة التقدير كما أن علماء الاجتماع لهم نظرتهم وكذلك علماء النفس والتربية .

وهناك النظرة الماركسية إلى التاريخ القائمة على التفسير المادى للتاريخ ، حيث يرى كارل ماركس أن العوامل الاقتصادية هي العامل الأول والمباشر لكل حوادث التاريخ ، وأن الانقلابات والاستعمار والثورات ترجع إلى أسباب اقتصادية .

كما جرى الخلاف حول التاريخ ، وهل هو علم أم فن ؟ وقالوا إن العلم وحده هو عرض نصوص الأحداث وتحقيقها ، أما الفن فهو إضافة رأى المؤرخ ، وتحليله لكل موقف من المواقف أو حادث من الحوادث .

وهناك نظرية تقول أن التاريخ سلسلة من سير العظماء ، وأن التاريخ من صنع الصفوة الصالحة من الذين يؤلفون زعامة جماعية مستمدة من تفوؤهم الشخصى ، ونظرية أخرى تقول أن العظماء نماذج كاملة للبيئة التي يعيشون فيها وأن الإنسان خاضع لمحيطة .

وجرى الخلاف حول علمية التاريخ أو توجيهه ، فقد أيد البعض الرأى القائل بأنه لا بد من النظر إلى التاريخ نظرة علمية صارمة ، دون النظر إلى ما ينبجم عن ذلك من أثر في الغض من قدر التاريخ ، ورأى البعض الآخر أن التاريخ ضرورى لبناء الشباب .

وجرى الخلاف حول قومية التاريخ أو دوليته ، وقالوا إن قومية التاريخ قد وصلت في أوروبا إلى حد بث الأحقاد ، وأن النظرة الدولية تعتبر العالم كله أمة واحدة ، وبذلك تتحقق

العواطف القومية وتضحى البطولات الخاصة في سبيل النظرة الواسعة ، وجرى الخلاف حول كتابة التاريخ ، فحمل البعض على المؤرخين واتهموهم بالنظرة الشخصية ، وأنهم يلونون التاريخ وفق مزاجهم الشخصي . ودعا البعض إلى التفسير البيولوجي للتاريخ وقال أنه وحده التفسير الأصيل ، وقال مثل ذلك أصحاب التفسير المادى وهناك من يدعو إلى التفسير الدينى والمناخى .

وهاجم كثيرون التاريخ جملة ، وقالوا أنه أشد فتكاً بالأمم من الأوبئة مثل بول فاليرى ؛ ويرى فرويد أن التاريخ سلسلة أزمات في نفوس أفراد أدت إلى الانقلابات الهائلة .

* * *

أما « التاريخ العربى الإسلامى » فقد واجه رأيين مختلفين : الأول ، وهو الذى حمل لواءه الدكتور طه حسين — معتمداً على نظرية أستاذه دوركايم — منذ الثلاثينات وما زال خلفاءه يحملون لواء دعوته . ويرى أصحاب هذا رأى أن التاريخ لا يقدس ولا تسبغ عليه صفة الجلال ، ولا يتصل بالدين ، وليس أبطال التاريخ العربى الإسلامى إلا أناساً ينطبق عليهم ما ينطبق على الناس .

وترى هذه المدرسة أن الاتجاه القومى فى كتابة التاريخ خطأ ، وأنه دعوة إقليمية ، وفيه تعجيد لماضى وخضوع له ، لأنه يريد إحياء الأجداد وأنه يرى الماضى القومى لب التاريخ ، وبذلك يتأرجح أسلوبه بين النقد والتصديق .

وترى هذه المدرسة أن يتخذ التاريخ وجهة إنسانية ، دون اهتمام بالأمة العربية أو العالم الإسلامى ، وأن التاريخ وسيلة للنظرة الشاملة إلى البشرية وتطورها ، وأن اتجاهه إلى الاهتمامات القومية ينقص من روح البحث العلمى ويجعله أشبه بالدعاية .

وترفض هذه المدرسة النظرة التقليدية ، التى توصف بالتقبل الإلهى وتدعو إلى معاملة

الدين الإسلامى كظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الإجتماعية ، ولذلك فإن الجانب الإلهى يجب أن يوضع موضع البحث الواقى ، كما تبحث أى حقيقة اجتماعية أو فكرية^(١) .

وعندهم أن الدراسات التاريخية لا تزال خاضعة لتأثير المؤرخين العرب القدماء ، سائرة على منهجهم فى طريقة البحث والمعالجة والتفكير ، ويرى دعاة هذه النظرة أن المؤرخ الحديث لا يزال يسرد التاريخ العربى سرداً ، يظهر أمجاده بألوان ساطعة قافراً الفترات المضطربة فيه ، وهو ما يسمى بالرومانتيكية الإسلامية ، أو أن يعرضه عرضاً متسرعا سطحيا وأن الدراسات الجديدة فى التاريخ أقرب إلى السطحية ، وأنها تستثير حماسة الشباب وتبعث فى نفوسهم الغرور .

وتحمل هذه المدرسة الدعوة إلى نقد التاريخ والكشف عن أخطائه ، وإزالة طابع القداسة عنه . وتلك دعوة علمية أصيلة لا ترفضها ، بل ترحب بها ونعتز ، ولكننا لا نسلم بها إلا لمن ينطبق عليهم قانون الجرح والتعديل ، فإذا ما قام كاتب أو جماعة للتصدى لهذا العمل ، فلا بد أن تتوفر فيهم روح الإيمان بمقومات الفكر العربى الإسلامى وأن لا يكون من بينهم من أسقطهم تاريخهم الفكرى ، بحكم أنهم من دعاة التغريب أو الشعوبية .

ولكننا نرى ما ارتأيناه من أن تاريخنا العربى الإسلامى يحمل صفحات مشرفة ، وأن ما به من أخطاء أو ثغرات لا تغض من قدره ، ولا تضعف مكانته ، ولا تصرف العرب والمسلمين عنه ، وهو قادر إذا قدم بإنصاف أن يعزز دعوة بناء الأمة العربية والوحدة الفكرية والدعوة الإنسانية .

* * *

أما المدرسة الثانية فهى لا تدعو إلى تقديس التاريخ ، ولكنها تدعو إلى اعتباره قوة ذات فاعلية فى بناء الفكر العربى الإسلامى الحديث ، وخلق نهضة ثقافية وروحية تعين على وحدة الفكر فى الأمة العربية والعالم الإسلامى .

(١) قسطنطين زريق ونبيه أمين فارس .

وترى هذه المدرسة أنه لا تعارض بين الروح القومية والأسلوب العلمى فى دراسة التاريخ ، وأنه فى الإمكان أن يكون التاريخ حافظاً للهمم دون أن يكون عبثاً يضيق النظرة ، ويصرفها عن مهام الحاضر .

وعند هذه المدرسة أنه اليوم فى مجال التحدى ورد الفعل — حيث تقوم الدعوات التغريبية والشعبوية محاولة تجريد التاريخ العربى الإسلامى من كل أجمادة وبطولاته ، فإن الأمر يتطلب إبراز هذه الجوانب والاعتزاز بها ، على أن يكون هذا الاعتزاز بعيداً عن الإغراق ، وأن هذا التاريخ فى جوهره إنما يمثل حركة ضخمة شملت جانباً واسعاً من هذا العالم الإنسانى إمتد من الصين إلى الأندلس ، فى مرحلة طويلة امتدت أربعة عشر قرناً ، وكان لها أثرها فى الفكر الإنسانى والحضارة البشرية ، فضلاً عن مفاهيمها وقيمها ومثلها الجديدة القائمة على الحق والعدل ، والتي تمثل أمة لها رسالة حية ما تزال متفاعلة مع الفكر الإنسانى ، وقد كان دور « العالم العربى الإسلامى » بناءً ، وكانت حركته متطورة متحررة فى سلسلة متصلة الحلقات .

وتعتبر هذه المدرسة أنه من الضرورى اليوم فى مرحلة بناء النهضة الجديدة للعالم العربى الإسلامى مواءمة التاريخ اهتماماً كبيراً حيث لا سبيل لانطلاق أمة دون فهم واع لتاريخها وأنه لا حاضر لأمة لا ماضى لها .

ويرى الدكتور عبد العزيز الدروى أن فهم الأمة لذاتها ومجابتها المعضلات القائمة والاستعداد للمستقبل الذى تنشده لنفسها ، يعتمد إلى حد كبير على فهمها لتاريخها فهماً صحيحاً ، وأنه لا يمكن لأمة أن تجد سبيلاً للانطلاق ، وعونا على النهضة الصحيحة دون فهم واع سليم لتاريخها .

* * *

ومن رأينا أن كون التاريخ عاملاً فى مرحلة بناء الأمم على بث الروح الوطنية فى الشعوب دافعاً إلى الثقة بالنفس على استئناف دورها فى الحضارة لا يحول دون تنقية هذا التاريخ من كل ما يعترض النظرة العلمية السليمة ، وأن ما فى التاريخ العربى الإسلامى من جوانب ذاخرة بالبطولة والكرامة والسباحة قادر إذا حررت حواشيه من كل ما يتعارض مع

الروح العلمية التي بذرت بذرتها الفكر العربي الإسلامي أساساً وحمل أمانتها — على أن يحقق هدف بناء فكر الأمة .

إنما الذي يحاط دائماً بالحذر أن تجرى المحاولات للنشكيات في الحقائق الثانية أو محاولة تصوير بعض الجوانب على نحو يثبت في النفس الهزيمة أو الغضب من القيم الأساسية أو أن يجري دراسة التاريخ العربي الإسلامي لخدمة مذهب من مذاهب السياسة أو الفكر والاقتصاد .

فلا بد أن يكون هناك قدر واضح من الاعتراف بمكانة التاريخ في فكرنا العربي الإسلامي ودوره ومهمته وأثره في هذه المرحلة الدقيقة ، وإن يصحب القدرة في مجال التحقيق التاريخي إيمان صادق بفكر هذه الأمانة وتشرب كامل لروحها ، وتحرر كامل من الخضوع لتيارات التغريب والشموعية والغزو الثقافي .

ومن هنا لا ينفصل النظر إلى التاريخ عن النظرة إلى الأمة ومقوماتها ولا على الفكر العربي الإسلامي ككل ، فلا يخضع التاريخ لمذهب ما ولا يكون التحقيق العلمي عاملاً من عوامل تجريده من روحه . ولا شك أن صدق النظرة سيحول دون استغلال الشكوك أو الخصومات أو مثالب بعض الشخصيات لخلق روح الاستهانة أو الغضب مما يحمل التاريخ العربي الإسلامي من بطولات وإيجابية وتقدم .

وليس يستطاع أن يقال أن تاريخ أمة من الأمم قد خلا من مثل هذه الشكوك أو الخصومات أو المثالب وتحرر منها ، فالإنسان هو الإنسان إزاء الملك والحكم وليست العبرة بالأحداث العابرة توضع موضع الاهتمام لتبدو ذات أثر أكبر من واقعها بينما تترك الظواهر الكبرى في حياة الأمة دون التركيز عليها .

فالتاريخ علم وفن وتوجيه ، ولا يمكن تحريره من هوى الكاتب الذي لا بد أن يكون صادق الإيمان بفكره وأمنته أساساً وإذا كان من الضروري بناء إيمان الأمة بماضيها بما يدفعها إلى العمل ، فإنه من الضروري أيضاً دراسة الأحداث وانتقادها لاستخلاص العبرة منها في زاهة كاملة .

ومن هنا لابد من تأكيد الرابطة بين التربية والتاريخ والعلاقة الوثيقة بينهما ، فالجانب الإيجابي المضي منه يعطى قوة الدفع ، والأحداث التي يتصل فيها الخير والشر تدرس بروح علمية وانصاف لتعطى العبرة لا لتمثل التشهير .

ومن هنا يكون وضوح الموقف من مسائل متعددة تحاول التغريب والشعوبية أن تثيرها . ومن هنا يكون صدق النظرة إلى ما يثار من أن فلانا التركي الأصل أو الفارسي ، في محاولة لتشوية مكان العرب أو الغض من قدرهم ، ولاشك أن النظرة الحقيقية هي أن البيئة هي التي تخلق العطاء والأعلام وليس الجنس ، فإن الفكر العربي الإسلامي هو الذي خلق الفارابي والغزالي وابن رشد وليست التركية أو الفارسية أو غيرها ، إذ الواقع أن الإنسان ابن بيئته ومجتمعه واللغة التي يتعلم بها ، وأن العربية اللسان فمن تكلم العربي فهو عربى . وليس بين الاسلام والعربية صراع ولكنهما شقين لحقيقة واحدة ، وقد حاول التغريب وحاولت الشعوبية أن تمزق وحدة الامتراج بين مقومات الفكر العربي الاسلامى من أجل الغض من شأن هذا البناء الانسانى المتكامل فحيث لا تعارض بين حافر التاريخ والأسلوب العلمى ، فلا تعارض بين عربية التاريخ واسلاميته .

ونظرنا أننا لا نجعل التاريخ عبئا ولا نتحرر منه ، ولا نفصل عنه ، وحيث أن التاريخ ذخيرة أجداد وذكريات وسجل بطولات وتخليد معارك وشهداء ، وحضارة وفكر ، فإنه عامل من أكبر العوامل في بناء الأمة النفسى والاجتماعى ، ولا يمنع ذلك كله من دراسة التاريخ وفق روح علمية منصفة ، على أساس أن التاريخ عامل من عوامل وحدة الفكر التي هي العامل الأكبر في بناء شخصية الأمة ووحدتها .

* * *

ومن الجدير بالنظر أن منطق الفكر الغربى في النظرة التاريخيه ليس ملازما أن نتخذه منهجا لنا ويمكن الاستئناس به حيث يبدو منهج التاريخ الاسلامى العربى مختلفا مع منهج التاريخ الغربى وفي هذا يقول مستر جب :

« إن التاريخ الاسلامى سار في وجهة معاكسة للتاريخ الأوربى على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على اتقاض الامبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن

بينهما فرقا أصيلا بينما خرجت أوربا على نحو متدرج لا شعورى وبعد عدة قرون من النهوض الناجم عن غزوات البرابرة ، انبثق الإسلام انبثاقا مفاجئا فى بلاد العرب وأقام بسرعة تكاد تعز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان امبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطئ البحر الأبيض .

ولاشك أن هذا الاختلاف يجعل استغلال المذهب الغربى فى تفسير التاريخ العربى الإسلامى عمل غير طبيعى ولا منصف . ومن هذا تبدو فلسفة التاريخ العربى الإسلامى على قاعدة تحرير التاريخ العربى الإسلامى من :

(١) عوامل الفخر بالجنس أو ادعاء بطولات والنظر بحذر إلى كتابات المستشرقين وخصوص الفكر العربى الإسلامى .

(٢) إبراز جانب الجماعات واندفاعاتها القوية فى مجال الحرية والدفاع عن الكرامة .

(٣) وحدة الفكر العربى الإسلامى أساس من أسس النظرة فالعروبة والإسلام شقان لحقيقة واحدة .

(٤) ليس العامل الاقتصادى وحده هو الذى يوجه التاريخ ولكنه عامل لا يمكن إنكاره أو تجاهله بالإضافة إلى العوامل الروحية والسياسية وعوامل المناخ .

(٥) لا تقديس للتاريخ ولا احتقار له .

(٦) نظرتنا التاريخية انسانية تتمزج بروح بناء وحدة فكر الأمة ورد طعنات خصومها .

(٧) روح النزاهة والأنصاف والإيمان بمقومات الفكر العربى الإسلامى هى أساس النظرة التاريخية .

(٨) تحرير التاريخ من محاولات التزييف مع اليقظة لمحاولات التحريف .

- (٩) ليس التاريخ هو تاريخ العظماء ولا العصور وإنما تاريخ الأمة وبطولاتها ومواقفها .
- (١٠) أثر الفرد في البيئة ، وأثر البيئة في الفرد كلاهما يسيران جنباً إلى جنب .
- في النظرة التاريخية . فالبطولة والجماعية كلاهما مؤثران في التاريخ .
- (١١) النظرة التاريخية شاملة تضم الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية .
- (١٢) التفسير الديني والبيولوجي والمادى جميعها أسس في النظرة إلى التاريخ دون أن تنفرد واحدة منها .
- (١٣) الارتفاع عن النظرة المادية المحضه والروحية المحضه .

اللغة

واجهت اللغة العربية أضخم معارك التغريب والشعبوية ، التي كانت بحق الرباط الأكبر بين العالم العربى من جهة كوحدة قومية وبين الأمة العربية والعالم الإسلامى كوحدة فكر وراث وثقافة . وكانت حدود المعركة هى القضاء على الفصحى وتغليب العامية والكتابة بالحروف اللاتينية ، أو اضعاف الفصحى ، وإزالتها من مكانها بفرض العامية فى مجالات ثقافية مختلفة ، وأهمها القصة المسرحية والاذاعية .

وقد واجهت اللغة العربية هذه المعركة الداخلية فى نفس الوقت الذى عمل النفوذ الاستعمارى الغربى على حصرها فى العالم العربى وإزالتها عن مكان الصدارة فى العالم الأفريق والآسيوى ، حتى لاتصبح فى ظل مقوماتها وقدرتها لغة عالمية للعالم الإسلامى كله ، باعتبارها أساساً لغة الفكر والثقافة ، فقد حال الاستعمار دون انطلاقتها ، وقد كان لها من قبل جولة الاحتلال الغربى ، مراكز ومعالم أساسية تنبعث منها ، متصلة بالإسلام نفسه فى توسعه وانتشاره وقد استطاع النفوذ الاستعمارى أن يقاومها ويحل محلها لفته ، فاصبحت اللغة الانجليزية هى اللغة الأولى والسائدة فى آسيا واللغة الفرنسية هى اللغة الأولى السائدة فى إفريقيا ، وأمكن تغليب اللهجات الإقليمية واللغات المحلية أيضاً لتكون تالية للغات الأجنبية وبذلك انحدرت اللغة العربية إلى الدرجة الثالثة واقتصرت على أن تكون لغة الثقافة فى أضيق الحدود .

وفى العالم العربى حرص النفوذ الاستعمارى على أن تصبح لفته هى اللغة الأساسية فى دراسات المدارس والجامعات ، وأبعدت اللغة العربية عن مناهج الدراسة وبلغ ذلك درجات من القوة والضعف حسبما شاء الاستعمار ، وقد وصل ذلك أقصى درجات العنف فى الجزائر حيث ابيدت اللغة العربية كلية ، ولم تعد تمثل الا حلقات صغيرة من المناهج باعتبارها لغة أجنبية ، أما اللغة الرسمية الأساسية فهى الفرنسية وفى مختلف أجزاء أفريقيا المحتلة سيطرت

اللغة الفرنسية وأصبحت لغة أساسية هي لغة الدولة ، والتعليم ، وكذلك حدث في الهند والمناطق التي احتلتها بريطانيا في العالم العربي كمصر والعراق وفلسطين والسودان .
وقضية تغريب اللغة العربية ذات تاريخ طويل وجذور ممتدة ، وقد اتخذت أساليب متعددة ، ومحاولات متوالية ، لفرض العامية واللغة المحتلة بالجملات المنظمة عليها وامتهانها وتصويرها بصورة المعجز والقصور عن مسايرة الحضارة والعصر ، أو الإستجابة لكلمات المدنية .

وقد أثرت حملات متعددة تهدف إلى المقارنة بينها وبين اللغة اللاتينية استهدفت الدعوة إلى أن تتخذ اللغة العربية نفس الطريق الذي اتخذته اللاتينية ، ويتحدث عدد كبير من مفكرى الغرب من مستشرقين وعلماء عن تطور اللغة العربية فيرون أن مصلحة المتحدثين بها هو في تغليب اللهجة في كل قطر حتى تصبح لغة إقليمية ، كما فعلت أوروبا باللغة اللاتينية حين أوردتها المتحف وأقامت من لهجاتها لغات .

ولطالما ألح هؤلاء الكتاب على هذا المعنى وأكثروا من ترديده وانخدع به بعض كتاب العرب غير مقدرين الفارق الكبير بين اللغتين وتطورها . وإن اللغة العربية هي لغة أمة واحدة تحمل ثقافته وفكره ما يزال حيا متفاعلا لم يتوقف أو يتجمد ، وأن هذه الأمة تمتد من المغرب الأقصى إلى حدود إيران ، وهي في هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والتراث والقيم أوثق ارتباط ، وقد أثمرت هذا «الفكر العربى الإسلامى» الذى تضمه ألوف الكتب والمجلات والمخطوطات المنثورة في مختلف مكتبات العالم ، وإن هذا الفكر الذى هو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا إنما يقوم على « القرآن » الذى هو الرابطة الكبرى وإن في الدعوة إلى تغليب اللهجات الإقليمية من شأنه أن يقضى على هذا التراث الحى كله ، وأن يفرق هذه الأمة وبذلك نضيع تاريخنا متصلا امتد أربع عشر قرناً .

وقد بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضى وأمتدت على أيدي كتاب ومفكرين أجانب ثم حمل لواءها كتاب من بلادنا . وقد تبلورت هذه الحملة في عبارات مستر ولكوكس عام ١٨٩٢ في خطاب ألقاه في نادى الأربكية بالقاهرة جعل عنوانه «لما لم توجد قوة الإختراع لدى المصريين الآن» وأجاب على هذا السؤال بأن السر في تأخرهم هو « اللغة العربية » وإن المصريين لو اتخذوا لهم لغة « إقليمية » كما فعلت بريطانيا مثلاً لاستطاعوا أن يتفوقوا ويخترعوا .

وتابعه القاضي « ويلمور » عام ١٩٠١ بحمله أخرى دعا فيها إلى ماسماه « لغة القاهرة » وأقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وفي المغرب وجه المستشرق ماسنيون الدعوة عام ١٩٢٦ إلى الكتابه بالحروف اللاتينية، وقال إن اللغة بذلك تصبح ناشطة قادرة على أن تجارى الزمن ودعا العرب في شمال إفريقيا وفي سوريا - وكانتا محتلتين بالقوات الفرنسية - إلى هذا العمل ، وتابعه في الدعوة من بعد (المستشرق م . كولان) حيث دعا إلى العامية في المغرب . ومضى بعض كتابنا الذين كانوا يحملون أمانة الفكر لأوربا فتابعوا هذه الدعوة « التغريبية » فدعا لطفي السيد وسلامه موسى وعبد العزيز فهمي في مصر والخورى مارون غصن في سوريا وكثير غيرهم إلى العامية والحروف اللاتينية .

* * *

وقد وجدت الفصحى نصراء من أهلها ومن غير أهلها .

فقد أشار مسترجو يدى المستشرق الإيطالى معلقا على حديث كبير من الكبراء له في تغيير أسلوب اللغة القديمة وتتبع الأسلوب الغربى فى كتابه « الحروف اللاتينية » : « أنا على عكس هذا رأى ، أرغب فى أن لا ينسى الكتاب الحاليون العلاقة بالماضى ، لأن فى الماضى مجداً كبيراً ، وهذه اللغة قد لعبت دوراً خطيراً فى التاريخ العالمى » .

أما أرنست ريتان وهو الكاتب الفرنسى الذى لم يكن من نصراء الفكر العربى فإنه يقف من اللغة العربية موقفاً منصفاً . يقول : « إن من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر هو صعب حل سره انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادية بدء ، فبدأت فجأة فى غاية الكمال سلسلة أى سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومنا هذا أى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ولم يمس على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يرجعوا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى . ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمه من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حال الكمال إلى درجة أنها لم تغتير أى تغتير يذكر ، حتى أنه لم يعرف

لها في كل أطوار حياتها لاطفوله ولا شيخوخه .

ويقول رانسكه الفيلسوف الألماني : إن الثقافة الإنسانية تعتمد على لغتين كلاسيكيتين هما العربية واللاتينية . وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية ، فقد نفتت اللغة العربية في الشرق روحا فنيه ، ولا يمكن فهم المصنفات الأدبيه الفارسية أو التركية بدون العودة إلى الكلمات العربية ، وخاصة أنه وحى القرآن الكريم الذى لا يجارى ، يعد بلا مرأى أساس العقيدة الإنسانية والثقافة البشرية .

ويرى الدكتور المستشرق عن الكريم جرمانوس ^(١) إن اللغة العربية سنداً هاماً ابقى على روعتها وخلودها ، هو « الاسلام » فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفه ، على تقيض ماحدث للغات القديمة الماثله ، كاللاتينية حيث ازوت تماماً بين جدران المعابد وكادت تنقرض .

وقد كان للاسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التى اعتنقته حديثاً ، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقبست آلافاً من الكلمات العربية وازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء ، ومن هذه اللغات التى تأثرت بها الفارسية والتركية .

والعنصر الثانى الذى أسهم بنصيب ملحوظ في الأبقاء على اللغة العربية هو مرونتها التى لا تبارى . فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التى كان يتحدث بها أجداده من ألف عام ، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم لغتهم التى كتبت في الجاهلية قبل الاسلام .

ولولا تطور اللغة العربية الدائب لما استطاعت الأجيال الجديدة أن تعى لغة أجدادهم ، والمرونة التى تنطوى عليها الضاد لم تنشأ جزافاً وإنما هي نتيجة حتمية لطبيعة اللغة العربية حيث أن ما تتميز به من موسيقية واضح وقابلية للتزاوج مع اللغات الأجنبية جعل منها لغة حية مرنة متطورة .

وقد بز علماء فقه اللغة العرب زملاءهم العلماء الغربيين ذكاء وبراعة ، وأصبح من البديهيات

(١) كتابه الأخير : « بين فكرين » عام ١٩٦٣ . والعبارات ترجمة غالى شكرى

إن مفكرى الاسلام كانوا أساتذة الأوربيين فى القرون الوسطى ، فى مبادئ العلوم والطب والفلسفة ، لكن إتساع أفق علماء اللغة العرب لم ينوه إليه كثيراً ، رغم أنهم اكتشفوا منذ ألف سنة قواعد كان يحفلها الغربيون .

وقد استطاع « الجاحظ » أن يكشف فى كتابه « البيان والتبيين » الأسباب الفزيولوجية للتغيرات السريعة فى الأصوات ، إذ لاحظ أن النطق خاضع لتكوين الفهم والحنجرة وضبطهما . ونتيجة ذلك أن الكلمة الواحدة تنطق بطريقة مختلفة حسب اختلاف الشعوب ، كما لاحظ أن ثمة عيوباً طبيعية فى حواس الكلام ، من شأنها أن تؤثر فى النطق وأن اختلاف الأحوال الجوية يؤدى إلى اختلاف فى الكلمات .

وقد استطاع « واصل بن عطاء » مؤسس حركة المعزلة ، وكان هذا العلامة لا يستطيع نطق حرف الراء لذلك كان يقوم بإبدالها بمرادفات خالية منها . كان يقول ملحد بدلاً من كافر والحنطة بدلاً من البر وهكذا ، كما نسب تفخيم الحروف كالكاف والصاد واللام إلى تشويه فى الفهم أو فساد اللغة .

ولست بحاجة إلى الإشارة بمؤلفات الأصمى وسيبويه والسجستانى وغيرهم للتدليل على أن العلماء العرب قد سبقوا الغرب فى هذا المضمار . وفى رأى أن هذه « الطبيعة الذاتية » التى طبعت عليها اللغة العربية جعلتها فى مركز الانفراد والتباين وسط اللغات الأوربية .

ولاشك أن اللغة العربية هى من صميم الدعوة القومية المعاصرة فى البلاد العربية ، فهى أداة الربط التاريخية بين شعوب هذه المنطقة .

واللغة العربية لغة سامية تمتاز بثلاثية الحروف الصوتية وبكثرة الحروف الساكنة وبإصلاح الحروف المتحركة وتطبيق قواعد النحو على الكتابة العربية يرجع عهدها إلى القرن الثامن الميلادى وقد روجعت تلك القواعد بدقة وعناية مع مراعاة طبيعة اللغة العربية فأصبح من المتعذر تعديلها أو تبديلها .

فى خلال أربع عشر قرناً أخذ الكتاب والقراء فى الأفطار الكائنة من صفاف

الهندي شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسي غرباً يتطلعون بأبصارهم إلى ذلك الأدب الخاضع لتلك القواعد التحقيق والأملائية الدقيقة .

* * *

وكما أثرت اللغة العربية في الفارسية والتركية فقد أثرت في اللغات الأوربية وكان أثرها بعيداً في اللغة الأسبانية ، فقد استمرت اللغة العربية ثمانية قرون في الأندلس أقامت حضارة ضخمة ، فكان من الطبيعي أن تؤثر في اللغة الأسبانية والبرتغالية وقد أحصى العلامتان دوزي وأنجلمان مدى ذلك الأثر كتاب سمياه (مفردات الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية ، طبع في ليدن ١٨٦٩) وقد أجرى الأسبانيون عدداً من التصنيفات للغة العربية ومع ذلك فلا يزال ١٧ في المائة من كلماتهم عربياً ، وقد أثرت العربية في اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية وحوث اللغة الإنجليزية أكثر من ألف كلمة عربية ، وهناك اليوم ما لا يقل عن ٢٧٠ كلمة من أصل عربي ما تزال تستعمل في اللغة الإنجليزية يومياً . وقد بدأ تسرب الكلمات العربية إلى اللغات الأوربية منذ عام ١١٥٠ .

ويقول الدكتور علي مظهر أن من يتتبع الألفاظ العربية التي دخلت على غيرها من اللغات يرى أنها لم تترك لغة من لغات أوربا الأولى فيها أثر ، ففي الأسبانية والبرتغالية والفرنسية والإنجليزية والغالية القديمة وفي الألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية في شمال أوربا وفي الروسية والبواندية واللغات الصقلية وفي الإيطالية وبعض لهجات فرنسا وإيطاليا . كما أن عشور الباحثين في جهات البلطيق في شمال أوربا على سكة اسلامية عربية هي من آثار تجار المسلمين العرب الذين وصلوا إلى تلك الأرجاء يوماً من الأيام^(١) .

ولطالما كتبت أبحاث عن اللغة العربية ومفاضلتها مع اللغات المختلفة في كثير من المعاني ، وقد ألف (الياس انطون الياس) كتاباً باللغة الأسبانية ذكر فيه الكلمات التي من أصل عربي ، قال فيه « أدى بي البحث إلى الحكم بأن « العربية » هي أقدم لغة حية » وقد أرجع كثيراً من الكلمات الإنجليزية واللاتينية واليونانية وغيرها إلى أصلها العربي وقد ضم معجم

(١) مجلة المعرفة — مايو ١٩٣٣ .

وبستر الانجليزى الذى صدر عام ١٩٣٥ بمراجعة الدكتور فيليب حتى (٦٠٠ ألف كلة)
ماخوذة من اللغة العربية منها ٥٠٠ كلة من الألفاظ المستعملة فى الكتابة والأحاديث العادية
والنصف الآخر فى الشئون الفنية . وقد أكل هذا البحث معجم (دوزى) ومعجم فيشر
الكبير ، وقد أشار الدكتور لويجى رينا لى الايطالى إلى أن اللغة العربية تركت أثراً كبيراً
فى اللغتين الصقلية والإيطالية ، وإنه لا يزال الجزء الأكبر من الكلمات العربية الباقية
تفوق الحصر ، وميزة هذه اللغة أنها دخلت بطريق المدنية لا بطريق الاستعمار .

* * *

وهنا يبدو الفارق البعيد بين اللغة العربية كلغة حية وبين اللغة اللاتينية التى اضطرت
إلى أن تحتفى ، وجملة رأى فى ذلك أن اللغة اللاتينية ماتت كلغة للشعب يموت الدولة وبقيت
كلغة للكنيسة والعلماء ، أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة
حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ولم تكن اللاتينية لغته الأصلية وإنما كانت أخرى
كالساليه والسكونية والجرمانية الهندية امتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات إلا بآدى
الزمن وتنوع الكتبه وفتح المدارس وتأليف الكتب ، وهذا هو رأى الأب انطون
صالحانى اليسوعى^(١) .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن اللغة اللاتينية لم تكن لغة الغرب كله ، وهى لم تستطع
التغلب على « اليونانية » لأن اللغة اليونانية ارتبطت بحضارة أرقى من حضارة الرومان ،
فلما انشطرت الامبراطورية إلى شطرين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية الغربية ،
كانت اليونانية فى الشرق واللاتينية فى الغرب لا

هذا فضلاً عن أن اللغة اللاتينية كانت لغة ارسطراطية لا يمارسها ولا يحسنها الا النخبة
الامتازة ولم تتغلغل فى طبقات العوام^(٢) .

* * *

ولست فى مجال الافاضة فى تصوير أثر اللغة العربية فى ثلاث خطوط متوازية :

(١) مجلة المشرق م ٢٣ (شباط ١٩٢٥) .

(٢) ساطم المصرى (آراء فى اللغة والأدب) .

الأول : هو تراجع اللغات السريانية والقبطية والبربرية واللاتينية والارامية .

الثاني : التأثير الضخم في اللغات الحية الفارسية ووالأردية والتركية والسواحلية فقد اتخذت معظم هذه اللغات الحروف الأبجدية العربية حروفا لها واستعارت كثيراً من عباراتها وجلها . وأن ثلاثة أرباع الكلمات في اللغة الهندوستانية مأخوذة من اللغة العربية . وقد أخذت لغة شبه جزيرة الملايو الحروف الأبجدية العربية واستعارت لغات السودان الجنوبي كثيراً من كلمات اللغة العربية . وقد أشار المستشرق برون إلى أثر اللغة العربية في اللغة الفارسية بقوله : أنه من الصعب أن تكتب لغة فارسية خالية من اللغة العربية كما عن الصعب أن تكتب لغة إنجليزية خالية من اللغة الإغريقية واللاتينية .

الثالث : أثر اللغة العربية في اللغات الفرنسية والإنجليزية والأسبانية والبرتغالية ؛ ففي اللغتين الأسبانية والبرتغالية عدد كبير من الألفاظ والاصطلاحات وكذلك الألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية في شمال أوروبا وفي الروسية والبولندية واللغات الصقلية الأخرى وفي الإيطالية وفي لهجاتها كلهجة مدينة نابولي . وقد أشار سيد بليو إلى أن الكلمات العربية التي دخلت اللغة الفرنسية أكثر مما دخل منها في اللغة اللاتينية .

ويقول لويجي رينالدي أن اللغة العربية قد تركت عدداً عظيماً من الكلمات في اللغتين الصقلية والإيطالية ، وأن كثيراً من الكلمات الصقلية التي من أصل عربي انتقل إلى اللغة الإيطالية ، وأن وجود هذه الكلمات في اللغة الإيطالية يشهد بما كان للمدينة العربية من نفوذ عظيم في العالم المسيحي .

هو توجد في اللغة الأسبانية وحدها أكثر من ألف وخمسة مائة كلمة عربية .

ودخات اللغة البرتغالية ثلاث آلاف كلمة عربية فضلاً عن أن ربيع اللغة الأسبانية مأخوذ من اللغة العربية ، وقد امتد هذا الأثر إلى لغات البرازيل المأخوذة من اللغة البرتغالية .

وقد أحلت الكنائس المسيحية في العالم العربي اللغة العربية محل اللغة القبطية والسريانية وجعلتها لغة الصلوات واعتمد البروتستانت ترجمة الانجيل إلى اللغة العربية .

ويقول دكتور براون : إننا نجد أن لغات الشعوب التي اعتنقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية تكون من العبارات الفنية المتعلقة بالدين واللغة . ولو أن أحداً أراد أن يكتب بالفارسية بحيث تكون كتابته خلواً من الألفاظ العربية لتمسر عليه الأمر ، وقد حاول الأمير جلال مثل هذه المحاولة حين ما ألف كتابه (خسروان نامه) أي كتاب الملوك سنة ١٨٨٠ م ولكنه باء بالفشل ، والشاهنامه نفسها وقد ألفها الفردوسي منذ ألف سنة تقريباً وقصد متعمداً — كما تدلنا على ذلك المقارنة بينها وبين الشعر المعاصر لها — أن يصوغها في أقدم العبارات والأساليب لا يستطيع أن يدعى أنها خالية من الألفاظ العربية كما يظن بعض الناس ممن لا قدرة لهم على التحقيق والتحصيل .

والمسلمون في قارة الهند (الهند وباكستان) يعتبرون اللغة العربية لغتهم الأولى واللغة الأوردية إنما هي مزيج من اللغة العربية واللغة السنسكريتية مع قليل من الفارسية والتركية .

ولا شك أن محاولة الاستعمار والتعريب في وقف نمو اللغة العربية في العالم الاسلامي . إنما كان يهدف أساساً إلى (١) الفصل بين العرب والمسلمين (٢) عزل الإسلام نفسه عن النمو (٣) محاولة خلق ثقافتين عربية وإسلامية ، وذلك بالفصل بين الثقافة العربية الإسلامية الواحدة التي كان قوامها أساساً القرآن واللغة العربية والفكر الإسلامي .

وقد أشار القس صمويل زويعر منذ أوائل هذا القرن إلى هذه المعركة الصامتة التي كان الاستعمار قد أعد خطته لها ، واستطاع أن يحقق فيها نجاحاً فائق الحد ، حين قال:

« يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر في ميدان الاستعمار المادى ومجال الدعوة إلى الله وهما الانجليزى والعربى ، وهما الآن في مسابقة وعناد لانهاية لهما لفتح القارة السوداء (أفريقيا) مستودع النفوذ والمال ، يريد أن يلتهم كل منهم الآخر ، وهما المعضدان للقوتين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشرى ، أعنى النصرانية والإسلام » .

والواقع أنه لم يكن في استطاعة العالم الإسلامى أن يقف في وجه النفوذ البريطانى الذى أوقف اللغة العربية عن النمو والتمدد في المناطق التى فرض عليها سلطانه ، أما في العالم العربى فقد أمكن أن تقاوم اللغة العربية وتدفع عنها سلطان اللغة الأجنبية إلى الحد الذى حماها من التقلص .

وقد اتسعت الحملة على اللغة العربية في فارس وتركيا وأفريقيا والهند وأمكن عن طريق حملة التغريب أن تغير تركيا حروفها العربية وتستبدل بها حروفا لاتينية ، وجرت في إيران محاولات من أجل احلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية وردت هذه المحاولة ، وفي الهند فرض الاستعمار سلطانه فنجى اللغة العربية وحصرها في المساجد والصلوات وفي أفريقيا فرضت اللغة الانجليزية سلطاتها .

ولم يقف الأمر عندهذا الحد بل أن التغريب قد أولى اهتماما كبيرا للدراسة اللهجات وأصولها ، وألفت مؤلفات عديدة عن عاميات مصر وتونس وغيرها وأدخلت دراسات اللهجات كأبحاث علمية إلى الجامعات ومجامع اللغة .

* * *

وقد أعان انتشار الإسلام على نمو نفوذ اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة والعبادة ، وبالرغم من كل الحملات وعمليات التوقيف ، فإن العربية ما تزال حية قادرة على النمو والتطور والاستجابة للعلوم الحديثة والحضارة وكلما ازدادت دعوة الوحدة العربية قوة زادت نماء ، وكلما اتسع نطاق الترابط والائحاء بين أجزاء العالم الإسلامى أمكن أن تصبح لغة عالمية للعالم الإسلامى أو اسبرانتو الشرق ، وفي الباكستان تتردد الدعوة دائماً إلى اتخاذا لغة الدولة ، وفي أندونيسيا وإيران تجد الثقافة في اللغة العربية أساساً لا سبيل إلى تجاهله أو تجاوزه .

وإذا كانت اللغة العربية هى اللغة القومية لثمة مليون مسلم من العرب فإنها لغة الفكر والثقافة والدين لستمائة مليون ونصف مليون مسلم (وهو مقدار المسلمين اليوم) .

وهي لغة جلييلة القدر ، لا نقولها من باب الاعتزاز بل نقولها بلسان الباحثين والعلماء ، فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألف وكلمات اللغة الانجليزية مائة ألف أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة ومعجم لسان العرب يحتوى على ٨٠ ألف مادة (لا كلمة) .

ومواد اللغة العربية تنفرغ إلى كلمات ، فإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم متفرقة بلغ عدد ما يشترك منها نصف مليون كلمة ، وليس في الدنيا لغة اشتقاقية غنية إلى مثل هذا الحد^(١) .

ومن خصائص العربية أن جميع مشتقاتها تقبل التعريف إلا فيما ندر وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين . ولل فعل العربي صيغ متعددة تبلغ الاثنى عشر صيغة ، كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي .

وتمتاز بضروب من النمو في مجال الاشتقاق والمجاز والاستعارة والسكناية ، كما تتميز بأنها أضخم اللغات ثروة وأصواتا ومقاطع وحروفا وتعبيرات حتى أنها تفوق اللغة الانجليزية في عدد الأصوات إذ بها ٢٨ حرفا غير مكررة في حين أن اللغة الانجليزية بها ٢٦ حرفا ومنها مكرر .

* * *

وإذا كان الاستعمار قد قطع الطريق على نمو اللغة العربية وتوسعها بين مسلمي العالم ، فإن منطق القوة هو الذى فرض اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية . وقد أشار جك بيرك إلى تجربة اللغة العربية في الجزائر فقال : « أن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسى في المغرب هي اللغة العربية ، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا ، كيف كان ذلك ؛ لقد كان للمستعمر قوة مادية مذهشة واقتصاديات مذهشة ، ومدنية ، ومع ذلك يلاحظ أن شيخ علماء الجزائر الذى كان يعتبر نفسه رجلا غير سياسى ، وكان يتجنب السياسة ، كان هذا الرجل من أعظم رموز مقاومة الاستعمار ، فإن صحت هذه الدعوى المعنوية الثقافية كانت أقوى العوامل في النهوض الحقيقي بشعب الجزائر » وهذا الشيخ الذى يشير إليه « بيرك » هو العلامة « عبد الحميد بن باديس » .

وبعد : فما تزال اللغة العربية تقاوم عمليات التغريب في داخل الوطن العربي وخارجه ،
وستظل حيه لن تموت حتى تتحقق نبوءة جول فيرن وكان جول فيرن قد كتب في إحدى
قصصه أن سياحا ذهبوا في أجواف الأرض تحت قصر البحر العميق ، واخترقوا طبقات
القرى الأرضية حتى وصلوا إلى وسطها ، ولما أرادوا الرجوع إلى وطنهم فكروا في ترك أثر
يحفظ ذكرهم ويدل عليهم إذا وصل علماء الأجيال المستقبلية إلى مكانهم ، فاتفقوا فيما بينهم
أن ينقشوا على الصخور أسمائهم باللغة العربية ، ولما سئل جول فيرن عن سر اختياره
اللغة العربية فقال : إنها لغة المستقبل ولا شك في أن غيرها يموت وتبقى هي حية . .

الأدب

يمثل « الأدب » عصارة التعبير عن النفس الإنسانية العربية في انصالتها بالكون والحياة ، ومن هنا كان له طابعه « الذاتى » الذى يتخلف فيه أدب كل أمة عن الأخرى باختلاف الثقافات والمفاهيم والبيئات والمشاعر ، ثم هو من ناحية أخرى له طابعه « الإنسانى » حيث يصدر عن النفس الإنسانية التى تتشابه فى مقوماتها وتكوينها وتأثرها بالكون والحياة .

والأدب العربى على هذا المفهوم تعبير عن النفس الإنسانية العربية التى عاشت فى هذه المنطقة من العالم « العربى الإسلامى » والتى كونتها الثقافة والفكر العربيين الإسلاميين ، ومن هنا كان أدبها منذ قبل الإسلام يحمل طابعاً متميزاً ، وقد وضحت ملامح هذه الصورة بعد الإسلام وتعمقت واتسعت آفاقها فى ظل مفاهيم الفكر العربى الإسلامى الذى كان عصارة الفكر الإنسانى متمثلاً فى ثقافات الرومان والهنود والفرس واليونان مرتبطاً بأساس الفكر العربى الإسلامى النابع من الكتب السماوية والأديان المنزلة والتى تبلورت فى القرآن والإسلام وحملت طابع التوحيد ، وبناء شخصية الإنسان على قاعدة الامتزاج بين العقل والقلب والروح والعلم والدين والدنيا .

ومن هنا كان للأدب العربى طابعه الواضح الذى اختلف اختلافاً أساسياً عن الأدب اليونانى ، ثم عن الأدب الغربى فيما بعد ، ولقد شهد الباحثون للأدب العربى ومن غير أهله بأصالته وقدرته على تصوير النفس الإنسانية العربية على نحو رفيع ، وأنه رسم صورة واضحة عميقة لشمائل الإنسان العربى فى حروبه ومعاركه وكرمه وأريحيته وفى شجاعته ومواجهته للأحداث .

ومن هنا عرفت أصالة هذا الأدب فى أداء رسالته حتى واجهته أزمة الفكر العربى

الإسلامى التى مر بها فى فترة الضعف والاضطراب (ولا سيما فى فترة القرون الأربعة الأخيرة (١٥١٧ - ١٩١٧) غير أن الفكر العربى الإسلامى قد استيقظ قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ثم تعمقت يقظته حتى أوقت على مظاهر الحياة والحركة بدعوة جمال الدين الأفغانى إلى تحرير الأسلوب وهجر « السجع » والتقليد والزخرف بعد منتصف القرن السابع عشر .

ولم يلبث الأدب العربى أن اتصل بالأدب الغربى اتصالاً مضطرباً ، لم يقم على أساس الامتصاص أو الاقتباس ، وإنما قام على أساس الغزو ، فإن حركة الترجمة والنقل التى بدأها رفاة الطهطاوى فى أوائل القرن التاسع عشر والتى حققت نتائج باهرة فى خلال ثلاثة عقود حيث استطاعت أن تترجم وتقل وتكمل أكثر من ألف مجلد من مختلف الفنون والعلوم والآداب لم تلبث أن تحولت تحولاً خطيراً مضطرباً حينما استطاعت حركة التغريب فى أواخر عصر إسماعيل إلى أن تقذف بطائفة من كتاب الشام الذين هاجروا إلى مصر والذين كانوا يعرفون اللغة الفرنسية إلى تجميع الاتصال الفكرى بين الأدب الغربى والآدب العربى حين نقلت هذه الطبقة أكثر من عشرة آلاف قصة داعرة وماجنة وفذرة من الأدب الفرنسى إلى الأدب العربى ، وبذلك استطاع التغريب أن يهز قوائم الأدب العربى ومقوماته ومفاهيمه على نحو خطير . فقد كانت القصة الغربية المكشوفة هى أبرز هذه الألوان التى ترجمت ، وكانت تنشر فى مختلف الصحف والمجلات ، وكانت تطبع فى كتب وتوزع بقروش قليلة . ومن هنا أمكن أن تصل إلى مختلف الطبقات وأن تؤثر أثراً لا حد لها فى :

١ - الأدب العربى ، فقد أضافت صوراً بالغة الإثارة للجنس والمرأة والعلاقات بين المرأة والرجل على نحو لم يكن طبيعياً أو موجوداً فى البيئة العربية ، فضلاً عن تعارضه مع أسلوب الأدب العربى فى مواجهة علاقات الحب والعاطفة وروابط المرأة والرجل . حيث تبدو دائماً فى صميم الأدب العربى العبارة العفة والإشارة الرمزية والغزل النقى والتسامى بالعاطفة دائماً إلى خلق الفارس بالإضافة إلى طبيعة التضحية والوفاء والإيمان بالالتقاء بين الرجل والمرأة فى حدود الأنظمة والشرائع .

وقد أدخلت هذه القصص على الأدب العربى صوراً غريبة عليه وعلى النفس الإنسانية العربية أساساً ، فإن معظم القضايا والمشاكل التى تعرضها هذه القصص لم تكن موجودة فى بيئتنا وإذا وجدت فإن حلولها فى هذه القصص لا تتسق مع مفاهيمنا وقيمنا فى حلول المشاكل والقضايا فى ضوء الفكر العربى الإسلامى .

٢ — اللغة العربية : واجهت أزمة خطيرة . حيث كانت هذه القصص تترجم بأسلوب عامى ، وعلى نحو يزدري بالفصحى ، ويستعمل كلمات وأساليب وتعايير غاية فى الضعة مما أنزل اللغة العربية عن بلاغتها وأسلوبها السهل الممتنع .

٣ — كان لهذه القصص أثرها السىء البعيد المدى فى التربية والأخلاق والفضائل والقيم ، فقد اهتزت هذه جميعها تحت تأثير الكشف عن الجوانب المضمرة على نحو صريح ، مع العربية ، مما لم يكن متفقاً مع القيم العربية ، ومن هنا بدت الرزيلة والفاحشة والجريمة والآثام أموراً مقبولة لا غرابة فيها ، مباحة وليست ممنوعة أو محظورة أو معدودة فى موضع الخطأ أو الحرام .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل بدأت تدخل الأدب العربى فلسفات المذاهب الأدبية الغربية ونظرياته المشتقة من مفاهيمه وقيمه ، هذه الفلسفات التى تجعل من الكشف عن جوانب الجنس فى الأدب الغربى أصولاً معترف بها تدرس فى السكليات والجامعات ، لا على أنها نظريات ولكن على أنها أساساً أصولية وقواعد أساسية للادب .

ونحن نعرف أن الأدب الغربى قد قام أساساً معتمداً على الأدب اليونانى وفى ظل مفاهيمه وأساطيره ونظراته التى تؤمن بعبادة الجسد ، ونحس على إطلاق الفراز ، ولا تجعل للروابط بين المرأة والرجل حدوداً ، فالحب هو تلك الانطلاقة المتصلة بالغيرة والشهوة والتى تصل فى حرية إلى أبعد غاياتها وفق فكر إغريقى له مقوماته فى تعدد الآلهة .

* * *

وعلى هذه الأسس قام الأدب الغربى التى اتخذ من الأدب اليونانى أسسه ودعائمه ، وكان بطبيعته ممثلاً للنفس الإنسانية الغربية فى موقفها من الكون والحياة ، وهو موقف يقوم على أساس الصراع بينها وبين الطبيعة ، وفق نظرة مادية لا تعترف بوجود الله

وترى أن الإرادة الفردية الخاصة هي التي تقرر القدر وأنها تنصرف في حرية مطلقة ، وهي تواجه مشكلة المجتمع العربي القائم على النظرة المادية الصرفة ، وعلى أجواء لها طابعها المختلف عن أجواء بلادنا وطبيعتها وطقسها ، حيث تبدو هناك صوره العواصف والبرد والجبال والأمطار والثلوج ، وحيث ترى هناك العلاقات بين المرأة والرجل لها طابعها المتحرر المكشوف المنطلق القائم على الوثنية وحرية العلاقة الجنسية ، وحيث المجتمع يكشف عن صورة الحرمان والشقاء النفسى والفاق والتطلع إلى اللذات وفي عشرات من هذه القصص : البؤساء لهيجو والنور والظلام لتولستوى وتاييس لا ناتول فرانس ؛ لا ترى صورة مجتمعنا ولا صورة النفس العربية ولا مفاهيمها ، وكلها تصف أعراض الألم والجوع وقسوة النفس الأوربية والصور المفزعة والآلام البشعة والاضطرابات العقلية والتحلل على نحو لا يعرفه مجتمعنا وحيث تبدو مشكلات القصص الغربى وعقدها مختلفة تماما مع مشكلاتنا .

وليس في مجتمعنا - وبالتالي ليس في أدبنا - صورة تأسيس مثلا في التجارة بالفرائر في ظل الرهبانية وتمجيد الوثنية والأبيقورية واللا إدربة ، وليس لدينا مثل هذه الحيرة ، وليس في مفاهيمنا مثل قول المؤلف « للجسد أن يستسلم للشهوات ثم تبقى النفس طاهرة » . فالشك والعهر وانكشاف الغريزة ، وتحريك الشهوات على هذا النحو لا يمثل مجتمعنا ولا يمثل النفس العربية . ومن هنا يبدو مدى الأثر الذى كان لحركة التغريب في تفرغ هذه الشحنة الضخمة من القصص الغربى فوق أديم الأدب العربى .

وقد كان هذا الأثر بعيد المدى في تدمير القيم العربية الإسلامية وتطويع الأدب العربى للغزو الفكرى الغربى . وقد وصف الدكتور حسين المراوى أهداف القصة الغربية في مجال الترجمة إلى الآب العربى فقال : أنها تمثل انتهاك الحرمات ووصف المخازى وتغلب المادة على انقاض الأخلاق . فهى فى أساسها تهدف إلى تسليية الجماهير فضلا عن ازدراء روابط الزواج والأسرة .

وقال المازنى أن القصص التى ترجمها الدكتور طه حسين كان همه فيها مدح الخيانة

والاعتزاز بالحنونة وتصوير الخلاعة والمجون في صورة جذابة ، ويجمع الباحثون إلى أن تأثر الأدب العربي بالأدب الغربي ثم على هذا النحو الذى فرض عليه في مجال الترجمة للقصة ، ثم في مجال تعريب هذه القصة وتمصيرها برفع أسماء الأشخاص والأماكن العربية وإحلال أسماء أشخاص وأماكن عربية بدلاً منها مع الاحتفاظ بجوهر القصة .

كما كان ذا أثر نفسى بعيد المدى في تعميق مفاهيم التغريب إذ كون تياراً جديداً خطير الأثر في مجال التربية والاختلاق والتكوين النفسى والاجتماعى ، وكان لاختلاط قيم الغرب ومفاهيمه الوثنية والمادية وصوره وأهوائه النابعة من بيئته وأهوائه مع المفاهيم العربية في محاولة ضخمة لتدمير المقومات الأساسية للامة العربية .

ومن هنا برز في الأدب العربى طابع جديد بعيد عن أصالة صورة النفس الإنسانية العربية .

— ٢ —

وكان من أخطر النظريات التى فرضت على « الأدب العربى » نظرية « لا أخلاقية الادب » حيث أخذ الغربيون نظرية أرسطو في الادب القديم من فصل بين الأدب والأخلاق حين قال إن جمال الأدب لا صلة له بالأخلاق ، وأنه معنى منعزل لا شأن له بأية قيمة خارجية . وأنه لا دخل للمبادئ في الأدب ، وقد أعان الأدب الغربى على اعتناق هذا المذهب الاساسى المادى الدورانى الذى أقام عليه إيمانه في الفكر والاجتماع والنفس والتربية . وإن هذه العلوم كلها كانت تهدف إلى « تعرية » الإنسان وتصويره بصورة الدوافع الغريزية والتخلص الكامل من كل ما يقال عن الاخلاق أو الدين أو القيم .

وقد حمل لواء هذه الدعوة أصحاب المذهب الطبيعى الذى يتزعمه أميل نزولا^(١)

(١) محمد مندور — مذاهب الأدب .

والذى يؤمن بأن المسيطر على البشر هو حقائق حياتهم العضوية كالغرائز وحاجات البدن المختلفة . أما الروح فظاهرة ثانوية لا سلطان لها على البشر . ومن هنا فهم يردون تصرفات الإنسان إلى عمل الغرائز الغامضة . ويتصل هذا المذهب بظهور نظرية فرويد المتصلة بالغرائز وحيوانية الإنسان ، وقال أصحاب هذا المذهب أن من حق الأديب أن يصف كل ما يقع للإنسان دون أى اعتبار لقيم الأخلاق ومصلحة المجتمع ويرسم إميل زولا فى قصته (جرمينال) أقسى صورة للغرائز الحيوانية .

وقد سيطرت هذه النزعة على الأدب العربى تحت ضغط حملات التغريب وفرضها بعض « قادة الفكر » على دراسات الأدب ، وتكون جيل كامل من الأدباء يجرى فى مجرى التقليد والتقييد بنظريات الأدب الغربى فى دراسات الأدب العربى ويفرضها فرضاً عليه .

ومن هنا تعمق هذا الاتجاه فى الأدب العربى فى ظل مفاهيم كأنها مشروعة ، وظهرت القصة العربية خاضعة لشعارين أساسيين :

١ - النظرية الطبيعية فى الأدب .

٢ - نظرية فرويد فى اعتبار الغرائز هى الدوافع الأساسية لتصرفات الإنسان فى مجال الحب والحياة والعمل .

٣ - مذهب الفن للفن .

وقد استهدفت دعوة التغريب من ذلك تحويل الأدب العربى عن أضخم مجال من مجالاته وهو مجال المقاومة والحرية والوطنية إلى مجال « الذاتية » المتصلة بالغريزة ، المتحررة من قيود الأخلاق .

ويقول محمد مندور فى هذا : أن الوصف فى الشعر لا يخضع لمعايير الأخلاق فلا يوصف بأنه أخلاقى أو لا أخلاقى ، وعنده أو مذهب الفن للفن لا يعارض الأخلاق لأنه يسعى إلى خلق الجمال فى ذاته وتحرير الفنون ، وأن المذهب الواقعى لا يناهض الأخلاق لأنه وإن كان يحرص على تصوير الجانب المظلم المسف من طبائع البشر إلا أنه لا يخلو من حنو على

هذا الجانب ، وقال : أن هدف الأدب هو فهم النفس البشرية وتحليلها ، وأن الأدب الحديث أدب تحليل لا أدب توجيه ، ومن هنا لا عبء بارتباطه بالأخلاق . وأن الفن غاية في ذاته ولا محل للحكم عليه حكماً أخلاقياً ؛ ولا شك أن هذه المفاهيم غريبة خالصة ولا تتصل بفكرنا العربي الإسلامي أدنى اتصال ، وإذا كانت تعلن في هذه المرحلة من حياتنا وينادى بها مندور وغيره من الكتاب دعاة التغريب فإنما تهدف إلى صرف الأدب العربي عن مفاهيمه الأساسية وأهدافه الأصلية وعن مواجهة معركته مع الغزو الغربي في مختلف صورته ومظاهره . ولقد كان الأدب العربي دائماً هادفاً وواقعياً ولكنه كان أخلاق النظر ، وليس هناك تعارض بين الكشف عن النفس الإنسانية وتصويرها فنياً مع بقاء خط النظر الأخلاقية . ولكن هذا لا يصدق إلا إذا تحررت النظر من دوافع التغريب والشعوبية .

أما الإلحاح على النظر الجنسية وإبرازها وتعميقها على النحو الذى نراه فى الأدب العربى المعاصر فإنه ليس أمراً طبيعياً فى ذاته وليس ممثلاً للنفس العربية بمقوماتها ومفاهيمها . فالصورة التى يرسمها الأدب الجنىسى اليوم فى ظل مفاهيمه الواقعية والطبيعية هو فى الواقع بعيد عن الواقع ، إذ يبدو مغرقاً فى الرزيلة وتدمير القيم . فالصورة التى يحملها هى صورة إنسان حيوانى الطبع ، تتسلط عليه الغريزة ، وتدفعه فى عنف عاصف . وجوح وإسفاف .

ولا شك أن تعميق هذا التيار على هذا النحو إنما هو عمل تغريبى موجه ، يهدف إلى تدمير القيم الأساسية للنفس الإنسانية العربية فضلاً عن تعارضه مع دعوى التحرر والوحدة والإيجابية والتقدمية وهى عناصر بناء الحضارة العربية الجديدة .

وليس صحيحاً أن المجتمع العربى قد بلغ هذه الدرجة من الإباحة والكشف كما تصوره هذه الآثار المنسوبة إلى الأدب العربى ، فما تزال قيم الشرف والكرامة والأريحية والعفة من أبرز مقومات حياته وفكره ، فضلاً عن أن أساس البناء فى الفكر العربى الحديث يختلف تمام الاختلاف عن أساسه فى الفكر الغربى الذى يجعل المادة والغريزة أساسه ، ذلك أن فكرنا يجعل من عناصر العقل والروح والعاطفة والغريزة والدين والمادة متمزجة أساساً له ، فضلاً عما عرف عنه من طبيعة « السوية » والاعتدال ، والوسط بين الانحراف والمجود وموازة الروح والحس .

القومية _____ ة

(العروبة والإسلام)

أخطر قضية تواجه فكرنا العربي الإسلامى المعاصر هى قضية « تجزئة المفاهيم » ذلك أن فكرنا يؤمن بترابط عناصر الدين واللغة والتاريخ والتراث والتقاءها وامتزاجها فى بوتقه واحدة . وأية ذلك أنك لا تستطيع أن تتحدث عن اللغة العربية منفصلة عن الدين والتاريخ والتراث . وحيث لا يمكن فصل الدين عن التاريخ أو اللغة أو التراث . أو فصل التاريخ عن الدين وهكذا . . ومن هنا تبدو « وحدة الفكر » لا وحدة الجنس .

وفكرنا العربي المعاصر إسلامى بطبيعته ، من حيث أن الإسلام ليس دنيا لحسب ، ولكنه دين وزيادة . ومن هنا يبدو خطأ كل الذين حاولوا أن يطبقوا رأى الفكر الغربى فى « الدين » على الإسلام .

ذلك أن نظرية « الدين » التى كونها الفكر الغربى ، ونقلها دعاة التغريب والشعوبيون إلى فكرنا العربى محاولين فرضها على الإسلام ، هذه النظرية زائفة ، لأنها لا تتخذ تجربتنا ولا حياتنا أساساً لها . وهى بعد منسوجة على مقياس « دين » معين ، دين كريم ينبع فى الشرق ، وزحف على الغرب ، فاعتبره الفكر الغربى دخيلاً ، وحين قبله لم يسلم به كاملاً ولم يأخذ به وحده ، ولكنه أضاف ما قبل منه إلى وثنيته الاغريقية ، ومن هنا نشأت المسيحية الغربية التى عاد الغرب فأنكرها فى ظل حركة الاحياء والنهضة وفى ظل غلبة مفهوم المادية الدارونية وسيطرتها على جميع مفاهيم الفكر الغربى التى تقوم اليوم أساساً على المفهوم المادى سواء فى الفلسفة أو التربية أو الاقتصاد أو الاجتماع أو النفس .

ومن هنا كان الغرب منسجماً مع فكره ، حين اتخذ المادية الدارونية قاعدة له وأقام عليها كل فكره . هنا بدت وحدة الفكر عنده واضحة . ومن هنا كانت نظرة الغرب

إلى « الدين » مستمدة من تجربته من المسيحية الغربية التي ابتدعها والتي وقفت أمام نهضته وقاومت حريته في التطور العقلي والعلمى .

ومن هنا يبدو الخطأ الواضح والخلط المبين في الحديث عن « الدين » مستمداً من نظرية الغرب ، فليس الإسلام أساساً ديناً فحسب ، وليس هو دين الروحانية التي يمكن أن تؤخذ بجانب مماثل للمادية الغربية كما يحاول التغريب أن يصوره . وإنما كان الإسلام دين وفلسفة وحضارة ومجتمع . ومن هنا تظهر روحه واضحة متصلة في مختلف مقومات الفكر العربى ، فمن قال أن الإسلام دين فحسب فقد قصد جانباً واحداً ، ووقف عند « جزئية » من جزئيات الإسلام .

والغربيون واتباعهم من دعاة التغريب والشعوبية على أن الإسلام « دين » يتمثل فيه الجانب الروحى وحده وهم بذلك يقومون فى خطأ لا حد له ، حين يتعرضون لعدد من قضايا الفكر والقومية والتربية والأدب .

والحق الذى يجب أن يكون معروفاً فى هذا المجال : أن الدين جزء من الإسلام ، ولذلك يجب أن يصرف النظر نهائياً عن هذه النظرية المغلوطة والمفهوم الخاطىء ، وهو أن كلمة الإسلام تعنى الدين كما تعنى المسيحية أو اليهودية أو غيرها .

وتفصيل ذلك أن الإسلام إلى جانب أنه دين للمسلم فهو فكر وثقافة وحضارة شارك فيها العالم الإسلامى كله بمختلف أجناسه وأديانه وعقائده ، فقد انصبت كل هذه الثقافات الهندية والفارسية والرومانية والمسيحية والاعريقية فى بوتقة الفكر الواحد الذى صاغ منها هذه المفاهيم . والمسيحيون فى العالم العربى مشاركون فى هذا الفكر واللغة والتراث . ولذلك فكل مسيحى تتكون ثقافته من تعاليم دينه المسيحى وثقافة الإسلام ، هذه القيم الفكرية التى هى قيم كل مسلم ومسيحى ويهودى ، فضلاً عن تشابه القيم الروحية بين الإسلام والمسيحية فى أن كلاهما رسالة السماء وهدفها الحق والخير والعدل والحرية .

ومن هذه القيم والمعاني التى تبلورت فى بوتقة الفكر العربى الإسلامى تبدو وحدة الفكر مقدمة على وحدة الجنس وهى التى تصوغ « روح الأمة » ولقد افصح الكثيرون من الكتاب المنصفين عن هذا المعنى . ومن هنا يبدو الخطر البالغ الذى نواجهه فى تجزئة المفاهيم ، فإن وحدة فكرنا هنا تتمثل فى امتزاج القيم واندماجها ، فنحن نؤمن بالروح والمادة

والعقل والقلب والدين والدنيا ، وليس فكرنا العربي الإسلامي روحياً خالصاً ، وليس مادياً خالصاً ، ومن هنا تبدو خطورة الفصل بين القيم أو تجزئة المفاهيم ، فلقد كانت نظرتنا إنسانية شاملة . تتمزج فيها العروبة والإسلام ولا ينفصلان .

ولم تكن نظرية الفصل بينهما إلا من مؤامرات التغريب والشعوبية التي تستهدف دائماً تجزئة المفاهيم والفصل بين القيم . ولقد كان علينا أن نواجه دائماً المفهوم الغربي لكل قضية من قضايانا ، وأن يفرض علينا هذا المفهوم على أنه المفهوم الصحيح ، لقد مر العالم العربي بمراحل متعددة في العمل من أجل تحرير نفسه وبلاده وفكره من النفوذ الغربي ، مر بمرحلة الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والوحدة العربية . ومهما يكن من أهداف ودوافع وراء إثارة عشرات الدعوات والقضايا في افق العالم العربي والإسلامي ، فإن الفكر العربي الإسلامي كان دائماً قادراً على هضم هذه الدعوات وتقبلها دون أن يدعها تمزقه أو تحقق هدفها التغريبي في القضاء عليه .

ولقد اصطدمت دعوات الفرعونية والفينيقية والبابلية والاشورية والبربرية أعواماً طويلة ثم اكتشف الفكر العربي الإسلامي أنها جميعاً جذوراً عربية فقد كانت كلها موجات خرجت من الجزيرة العربية وانبثت في الافاق .

وربما كانت دعوة التغريب بمخططاتها الداعية إلى القضاء على وحدة العالم العربي الإسلامي قد قصت بالتحفة بين العرب والترك وإثارة دعوات مسمومة في كلا الجانبين مما استهدف تدمير هذا البناء الشامخ الذي كان يتمثل في الدولة العثمانية التي كانت تمثل وحدة العالم الإسلامي .

وإذا كانت الأمة العربية قد وجدت في دعوة القومية التي تأثرها العالم إزاء ذلك وسيلة للترابط بين أجزاء الأمة العربية في مواجهة النفوذ الأجنبي واتخاذ « عدة مقاومة » لعوامل التزيق والتجزئة ، فإنها بذلك قد فوّتت هدف النفوذ الأجنبي من اتخاذ هذه الدعوة وسيلة للصراع بين العالمين العربي والإسلامي . غير أن النفوذ الأجنبي في مجال الفكر أراد أن يفرض على « القومية » مفهومه الغربي لها حتى يثير من جديد خلافات جذرية بين العروبة والإسلام ، محاولاً أن يجعل منهما قضيتين منفصلتين . ومن هنا كانت (م - ١٥ - الفكر العربي المعاصر)

الدعوة الضاغطة الزائفة ذات المنابر والأقلام المشبوهة ، وهى التفسير الغربى للقومية ،
والذى يقول « قومية من غير دين » أو أن الدين ليس مقوما من مقومات القومية .
والدين هنا هو « الإسلام » .

وإذا كان من حقنا أن نجرى مع الفكر الغربى فى حلبة الفكر الإنسانى فإن من
حقنا أن يكون للقيم مفهومها المستمد من فكرنا وتاريخنا وتجربتنا . وأن لا يفرض علينا
مفهوم الغرب لها . ومن هنا بدأت مراجعة النظرية التى تقول بأن اللغة والتاريخ من
مقومات القومية ، وأن الدين ليس مقوما .

ونحن نعرف لماذا جحد الغرب دينه وأبعده عن مقومات القومية ، ولذلك فإن رأى
الغرب فى دينه أساساً لا ينطبق علينا ، والإسلام الذى يراد أن تطبق عليه النظرية ليس
دينا فحسب ، وإنما هو فكر وثقافة ، وأنه لا سبيل إلى الفصل بينه وبين اللغة والتاريخ .
بل إن هذه اللغة تكاد تكون مرتبطة به ارتباطاً جذرياً وكذلك التاريخ فإنه من العسير جداً
أن يفصل عن اللغة العربية كما لا يمكن أن يفصل التاريخ واللغة عن الإسلام الذى يكاد يكون
مادة هذا التاريخ ، وروح هذه اللغة ، كما يكاد يكون كتابه « القرآن » أكبر مصادر
اللغة فى منطوقها وعلموها .

ومن هنا تبدو حقيقة ما ذهبنا إليه من أن القومية العربية تقوم أساساً على وحدة الفكر
لا وحدة الجنس . ومن هنا يسقط رأى القائل بأن الدين ليس مقوما من مقومات القومية ،
بالنسبة للإسلام لأن الإسلام ليس ديناً ولأن الفكر العربى الإسلامى مترابط فى مفاهيمه
إلى الحد الذى لا يمكن الفصل فيها بين اللغة والدين والتاريخ والتراث . والفكر العربى
الإسلامى هو الذى أعطى الأمة العربية قوتها ، وهو الذى دفعها إلى الآفاق وحقق لها بناء
هذه الحضارة العظيمة وقيام الدولة الضخمة فى أقل من قرن من الزمان .

ومن هنا تبني العروبة والإسلام كشتين لحقيقة واحدة ، وأن التغريب فى دعواه إلى
تجزئة المفاهيم يحاول أن يقيم الشبهات والشكوك ، ولقد كانت العروبة والإسلام متفتحتان منذ
قرون على مفهوم واضح عميق مستمد من مقومات الفكر العربى الإسلامى ، ولقد كانت روح
الإسلام فى تاريخ العرب قوة دافعة فى النضال ومقوم أساسى لبناء المجتمع : عقيدة جهاد

هوقوة عمل ، وحركة دافعة متطورة لا تجمد ولا تتوقف ولا تنطوى على نفسها ، وقد كان الإسلام قابلاً للتطور لا يقف في وجه الحضارات والنهضات بل يواجهها بأفاق مفتوحة يأخذ وتعطى ، ولم يعرف الإسلام بفض العناصر الأخرى وقد اتسعت آفاق عالمه لمن لا يؤمنون به فماشوا في سماحة غير مكرهين على رأى أو عقيدة ، وليس دليل على هذه السماحة من وجود أقلية عربية غير مسلمة لا تحس بالضغط ولا الاضطهاد ، لأنها مشاركة أساساً مشاركة فعلية في مقومات الفكر العربى الإسلامى تمتنقه فكراً لها وتراه بعد الدين عقيدة فكروا بدولوجية حياة . ومن هنا يبدو ذلك التماثل الفكرى والوحدة الثقافية إزاء كل مواقف التاريخ وأحداثه . فالعروبة والإسلام ممتزجان مرتبطان كوجهى عملة واحدة وإذا كانت العروبة جسماً فإن روحه الإسلام بهذا المفهوم :

وبصور هذا المعنى كاتب مسيحي معروف يرى أن الفكرة القومية المجردة فى الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوروبا من الخارج فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من العقائد الأخروية والأخلاق لم ينزل بلغاتهم القومية ولا أفصح عن حاجات يشتمهم ولا امتزج بتاريخهم . فى حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكونى ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تعبير عن وجوه شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر والتأمل بالعمل والنفس بالقدر وهو فوق ذلك كله أروع صورة للفتهم وأدبهم وأضحى قطعة من تاريخهم القومى ، فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذاً كعلاقة أى دين بأية قومية ، وسوف يعرف المسيحيون العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ويسترجعون طبعهم الأصيل ، إن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أئمن شىء فى عروبته^(١) » ومن هذا النص ومثله كثير يتأكد به المفهوم القائل بأن وحدة الفكر العربى الإسلامى هى التى ربطت العربى غير المسلم بالمسلم العربى فى قيم أساسية ومقومات أصيلة وأن محاولة فرض المضمون الغربى أو المفهوم الغربى للقومية هو إحدى محاولات التغريب والشعوبية .

فالفكر العربي الإسلامي يشمل العروبة والإسلام والمسيحية جميعا ، وأن نصرانية الدين لا تحول دون إسلامية الفكر ، وأن العروبة لا تصارع الإسلام ولا تقف في الوجه المضاد . وأن التجربة الغربية للدين والقومية قد تؤخذ مأخذ الاعتبار ولكن لا تؤخذ مأخذ التطبيق ، فإن مفاهيم فكرنا العربي الإسلامي تختلف في جذورها عن مفاهيم الفكر الغربي أساسا . والإسلام لا ينفصل عن اللغة والتاريخ والتراث في الفكر العربي الإسلامي ولا يمكن أن يكون هناك فكر عربي منفصل عن الفكر العربي الإسلامي ولا تاريخ عربي منفصل عن الفكر العربي الإسلامي ولا تستطيع اللغة العربية أن تنفصل عنه أيضا .

فلا تاريخ للعرب إلا التاريخ العربي الإسلامي والإسلام هو ميدان التاريخ العربي . والإسلام هو صانع العروبة ومقيم أسسها .

وآية وحدة الفكر العربي والإسلامي هو ذلك الانفعال الوجداني الواحد أمام الأخطار والأحداث والتاريخ والغزو الصليبي والفكري ؛ وقد أفصح حبيب كحالة عن وحدة الفكر بين الإسلام والمسيحية حين قال « كما التقت النصرانية والإسلام في طريق الدين » فقد التقتا أيضا في الأدب والشعر والعلوم والفنون ، وفي كل ما يدغم صرح الحضارة فقد تعاون المسلمون والنصارى تعاونا وثيقا في هذا المضمار .

وقد كان بين النصارى شعراء أفذاذ وعلماء جهابذة كبار وأدباء وكتاب ساهموا كثيرا في رفع منارة الشعر العربي ، ونقل العلوم والفنون إلى العربية ، وكانت لهم مكانة رفيعة في قلوب الخلفاء . وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الشيء الكثير عن هذه المحاسن وذلك التماسك والتكاتف فالأخطل وآل بختيشوع سلالة جورجيس ، وآل حنين سلامه حنين ابن إسحق ، ويوحنا بن ماسويه وابن البطريق ويوحنا الدمشقي (١) .

نظرية الأجناس : السامية والآرية

من أفكار التغريب التي استأثرت بقدر كبير من التوجيه والاهتمام ، فكرة الأجناس السامية والآرية ، ومحاولة إعطاء الأجناس الآرية كل مزايا النبوغ والعبقرية وشجب هذه المزايا عن الأجناس السامية ، وذلك في مجال الانتقاص من الامة العربية وفكرها وثقافتها ، ومحاولة الفصل بين العرب والفرس والهنود الذين جمعهم ثقافة واحدة ، باعتبار أن الفرس والهنود من الجنس الآري ، وأن العرب من الجنس السامي ، وإقامة الحججة على أساس أن العبقرية والنبوغ تتبعان العرق والدم وهي دعوة عنصرية أساساً لم يثبت سلامتها علمياً ولا تاريخياً .

وقد حاول فريق من كتابنا الربط بين العبقرية أو العظمة عند طائفة من الشعراء وبين الجنس ، ناسبا سر عظمتهم إلى أجناسهم الآرية . فابن الرومي من أصل رومي وبشار بن برد من أصل فارسي ، إذن فعبقرية كل منهما يمكن أن تعزى إلى دمهما الآري ، وابن الرومي قد تفرد بفن جديد من فنون الوصف في شعره لم يسبقه إليه شاعر آخر فلا بد أن يكون مصدر ذلك عقليته الآرية . هكذا قال سليمان البستاني في الإلياذة وقال العقاد : أما بشار بن برد فقد جدد أساليب الشعر تجديدا لم يكن أساسه الخيال ، ويرجع ذلك في تقدير إسماعيل مظهر إلى عقلية آرية موروثية عن أب فارسي جعلته ينزع إلى الواقع المحسوس .

وقد جرى هذا القول في ظل تيار تغريبي كان قد بلغ مداه في الثلاثينات من هذا القرن حيث أثبتت هذه النظرية ووسع نطاقها من أجل اتهام العرب والمسلمين بالقصور عن عقلية الغرب ، ووصفت العقلية السامية بالغيبية والإسراف في الخيال . وقد استهدفت هذه النظرية أساساً هدم كيان الشخصية العربية القائمة على أساس الفكر العربي الإسلامي وقيمه وتراثه في ميادين اللغة والتاريخ والدين .

وقد حمل لواء هذه الدعوة في أول الأمر كاتبان غربيان هما جو بينو ورينان ، وتقوم

النظرية على وجود فوارق طبيعية بين اللغات السامية والآرية ، وقد أسرع المفرد الغربي والمخطط الاستعماري يعمق هذه النظرية ويوسع نطاقها ويبنى عليها فكرة اختلاف العقل والفكر وتميز الرجل الأبيض الآري الذي حمل لواء الحضارة ، وترى هذه النظرية أن هناك اختلافات جوهرية : جسمانية وذهنية بين الأجناس البشرية وبين الآريين والساميين بالذات . وقد اتصل هذا بمحاولة لتفسير التاريخ تفسيراً يقوم على أساس محتوم هو انتقاص كل سامي ورفع كل ما هو آري ، واتصل هذا بالأدب العربي ، فجرى البحث عن شخصيات ليست عربية أساساً لمحاولة إبراز النظرية من خلالها .

وقد أشار الكونت دي جو بينو الفرنسي عام ١٨٥٨ أنه ما دام هناك شعوب عليا وما دام قانون الطبيعة يعطي الغلبة للآري المتفوق فإن من حقه أن تكون له السيطرة وأن يقبض بيده على مقدرات العالم . ورينان أول من قرر بأن الجنس السامي أدنى من الجنس الآري ، ويقول ليون غوتيه تلميذ رينان أن العقلية السامية وبالتالي العقلية العربية هي عقلية مفرقة في مقابل العقلية الآرية وهي عقلية مجمعة أو موحدة ، وأن الفكر الآري عقلاني تفسيري وأن الفكر السامي غيبي معجزى .

* * *

ولا نطيل في تصوير تطور هذه النظرية فليس هذا مكانها ، وإنما نحن نعرض لها هنا فيما يتصل بالفكر العربي الإسلامي ، ولقد أثبتت الأبحاث المنصفة أن هذه النظرية لم تكن في الواقع نظرية علمية وإنما كانت نظرية سياسية أريد بها تثبيت قوائم الاستعمار عن طريق الفت في عضد الملونين في آسيا وأفريقيا ومحاولة تحطيم ممنوبياتهم الفكرية في مجال الغزو الثقافي والفكري الذي أطلق عليه « حركة التغريب » .

ولقد عورضت هذه النظرية معارضة علمية من كثير من الباحثين الغربيين أنفسهم ، وآخر ما كتب في هذا كتاب : نحن الأوروبيون (we europeans) الذي كتبه جوليان هكسلي و١ . هادون وقد استعرض نظرية الجنس والسلالة ، وعارضها بالنظرية الحديثة الخاصة بالوراثة البيولوجية وظروف تطبيقها على الإنسان وما يكتنف تكوين الأمم من العوامل ، وخلص إلى القول بأن نظرية الجنس والسلالة ليست سوى علم مزعوم تستتر

وراءه غايات سياسية . وقد أشار كثير من العلماء إلى أن حضارة مصر وفينيقية وبابل والصين هي من أعظم الحضارات التي شهدتها التاريخ، ومع ذلك فإن الأجناس الآرية لا علاقة لها بها . وشهد الكتاب بأن الحضارة التي أنشأها من يسمون بالشعوب السامية أعظم أثرا وأطول عمرا من الحضارة التي أنشأها ما يسمى بالأجناس الآرية ، وضرب المثل أيضا بأن بلاد السويد والنرويج والتي يعد أهلها المثل الأعلى للجنس الآري لم ينشئوا حضارة ما ، وأن الحضارة الحديثة قد قامت دعائمها في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وشعوبها ليسوا من الجنس الآري بل إن بعض العلماء قد ذهب إلى أبعد من ذلك فقرر أن وجود جنس آري بدائي موضع شك عدد كبير من العلماء ، وأن الأمر في هذه النظرية يرجع في الأغلب إلى ما وجد من مشابهات بين اللغات الهندية واللغات الأوربية قبل نحو مائة وخمسين عاما . وقد أكد العلماء على أن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل والنسل ، وأن اللغات قد تنتقل من أمة إلى أمة دون أن تكون منهما علائق نسلية .

والرأى الآن أن « البيئة الحضارية » لا السلالة هي الأساس ، وأن الوراثة العرقية أو وراثته الدم لا تؤثر في الاستعداد العام أو الذكاء الفطري وأن العبرة بالبيئة ، فقد ثبت أن وحدة الموروثات في التوائم التي خرجت من بويضة واحدة وبالتالي التي لها استعدادات عقلية واحدة ، لا تستلزم وحدة النتائج في اختبارات الذكاء ، في حين أن وحدة ظروف البيئة تحقق ذلك . ومن هنا وجد أن كثيراً من عباقرة ومفكرى الإسلام قد انحدروا من أصول غير عربية . وأن الأمم التي دخلت في الإسلام لم تظل هي نفسها كما كانت من قبل ، فقد تحولت بفعل البيئة الجديدة والفكر الجديد إلى قوم جدد^(١) .

ومن هنا كانت العبرة بالبيئة لا بالدم فإن من أقام في بيئة معينة وعاش حياة مجتمعتها وتكلم لغتها وأحس إحساسها كان منها بالغة والمكان والإحساس وهي في مجموعها روابط أشد أصالة من روابط الدم ، وبذلك استحال أن تكون الأنساب اللغوية أنساباً للأمم التي تتكلم بها وأن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل أو النسل . وقد أسماها (جان فينو)

(١) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا (مجلة العربي) تشرين الأول ١٩٦٠ .

بخرافات ومزاعم باطلة وقال (دينكير - Donicker) في كتابه : « الأفوام والعروق » إنه لا يوجد جنس — أى عرق — آرى ، وأن كل ما هنالك عبارة عن فصيلة لغات آرية والرأى مجمع على أن عقلية الإنسان ونفسيته من محصلات حياته الاجتماعية لامن موروثات دمه المسادية وبالنسبة لابن الرومى أو بشار ، فقد نشأ كلا منهما فى بيئة عربية ، وابن الرومى لم يكن يعرف اللغة اليونانية وكذلك أبوه ، وقد تكونت عبقريتهما من عوامل البيئة وعناصر الشخصية^(١) .

وأن تاريخ آدات الأمم الأوربية لا تخلو من ذكر أدياء وشعراء وعظام منحدريين من أنسال أجنبية عن الأمة التى نشأوا بها ومع ذلك لا يقدم مفكروا تلك الأمم على إرجاع مزاياهم إلى نوع الدم الذى يجرى فى عروقهم .

أما اتصاف العقلية الآرية بالبعد عن الخيال والنزوع إلى الواقع المحسوس ، فقد كذبه ما عرف من شعراء الفرس من علو فى الخيال ، وقد أورد ساطع الحصرى نموذجاً لذلك فى مدحهم الملوك بأنهم يستطيعون اقتلاع النجوم من السماء ليرصعوا بها سيوفهم .

أما اتهام العقل السامى بالغيبيات ، فقد كذبه كل الأدلة ، وأن ما عرف عن ابن الهيثم وابن حزم وجابر بن حيان وغيرهم من منهج علمى — بهر الفكر الغربى حتى اليوم — يرد هذا القول ، وقد أدلى أرنست رينان بشهادة منصفة فى هذا المجال فقال : « أن للساميين عقلية عملية رياضية تنفى الأساطير والغيبيات » .

* * *

ويقول ساطع الحصرى فى دراسة له^(٢) فى هذا المجال : إن فكرة الجنس الآرى تولدت من اكتساب بعض التشابه بين اللغات الهندية واللغات الآرية فى أوائل القرن الماضى فقدقارن (شله جل - Cehlaogal) عام ١٨٠٨ اللغة السانسكرىتية باللغة الألمانية فوجد بعض المشابهات فى أصولها فاستدل من هذه القرابة اللغوية على وجود قرابة نسلية

(١) الدكتور عمر فروخ — ك/ ابن الرومى .

(٢) مجلة للتربية والتعليم (بغداد) ١٩٢٨ م .

بين الأقالوم الهندية والأقالوم الجرمانية وأوجد بذلك فكرة العرق الهندو جرمانى .
استدلوا على وجود قرابة نسلية ليس بين الأقالوم الهندية وبين الأقالوم الجرمانية
فحسب . بل بينها وبين سائر الأقالوم الآرية ثم اختاروا كلمة (آريان) المذكورة فى الكتاب
المقدس القديمة وانتشرت النظرية بتأثير بعض العوامل السياسية التى وجدتھا ملائمة
لأهوائھا من جهة أخرى .

لكن الفكرة لم تتأيد قط بالتدقيقات العلمية الحقيقية، وإنما برهنت التدقيقات الواقعة على
أن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل والنسل . وأن اللغات قد تنتقل من أمة إلى أمة
عن غير أن يكون بها علائق نسلية . فالفرض القائل بقرابة تلك الأمم من حيث النسل والدم
إنما هو فرض ، وأنه لا يستند على أسس علمية . وقال (ده نيكسر) : فى كتابه الأقالوم
والأجناس : أنه لا يوجد جنس - أى عرق - آرى وأن كل ما هنالك إنما هو فصيلة لغات
آرية وربما حضارة آرية .

وقال (ميه) فى كتابه لغات العالم : كثيرا ما تتكلم عن أقالوم رومانية وكنس
سلافى ونموذج آرى، ولكن هذه التعميمات عارية عن معان واضحة صحيحة ، وقال (ماكس
موللر) : « إن العالم الأثنولوجى الذى يبحث عن عرق آرى ودم آرى وعيون آرية وشعر
آرى ، يرتكب هرطقة لا تقل سخافتھا عن سخافة العالم اللغوى الذى يجروء على التكلم
عن قاموس مستطيل الرأى أو نحو قصير الرأى .

وقال (ماير) : إن الجنس الآرى من مخترعات اللغويين .

وجملة القول أن الحضارة العربية التى أنشأھا العقل الموصوف بالسامى قد امتدت من
الأندلس إلى الصين وكان لها طابعها المميز فى كل مجالات الإنشاء والبناء والعلوم ، وقد
انصهرت فيها خلاصات الثقافات وعصارات الحضارات الهندية والمسيحية واليونانية
والرومانية وحولتها إلى كيانها وصهرتها فى بوتقتها ، وأنشأت حضارة عرفت بالإيجابية
والبناء ، وكانت آثارها واضحة فى جامعات القاهرة وبغداد وقرطبة وكانت هى الأساس الأول
الذى قامت عليه النهضة فى أوربا .

× الفراعنة والفينيقيون روافد عربية .

وفي مجال « تزيف الحقائق » الذى رسمه الغزو الأجنبي للفكر العربى الإسلامى محاولة فرض نظرية « التأكيد على إقليمية الفكر » تحت اسم حضارات وثقافات قديمة ، مستهدفة ربط بعض أجزاء الأمة بها كالفراعنة والفينيقيية والبربرية ، وقد جرى فى هذا التياز كثيرون غفلة منهم أو جهلا بالحقائق ، دون أن يتنبهوا إلى ما تهدف إليه هذه الدعوات . غير أن الحقائق لم تلبث أن انكشفت عن أن كل هذه التيارات ليست إلا روافد من نهر الأمة العربية الكبير .

١ - وفى أكثر من دراسة لباحثين فى التاريخ والآثار تأيد رأى القائل بأن الفراعنة عرب ، وأن كثيرا من علماء الألمان يشاركونهم أحمد كمال (باشا) الأثرى المصرى الأول ، وأحمد زكى (باشا) الملقب بشيخ العروبة . على أن المصريين جاءوا إما من برزخ السويس أو من جهة باب المندب ، وأن أهل مصر أصلا من عرب الشمال (الحجاز ونجد وبادية الشام) ويرى بروكس الألمانى وايرى ولوث وليبلان النرويجى أن عرب الجنوب جاءوا عن طريق اليمن . ويزيد أحمد كمال باشا على ذلك بأن اللغات المصرية والإفريقية هى من أصل عربى ويقول « فاللغة المصرية ما هى إلا لغة قبائل الأعناء التى سكنت مصر وما جاورها من الأقاليم ، هى أصل اللغة العربية بلا مرأى » وقد أرجع كل كلمات اللغة المصرية القديمة إلى اللغة العربية وأكد نظرية مجيء المصريين الأقدمين من بلاد العرب من باب المندب فالحبشة فالسودان فمصر . وقال فى النهاية أن العنصرين المصرى والعربى يرجعان إلى أصل واحد ولغة واحدة .

وأشار جبر ضومط فى كتابه « فلسفة اللغة العربية » إلى رأى أحمد كمال باشا وقال أن الباحث العالم أظهر لنا عمق الاتحاد بين اللغة العربية واللغة المصرية القديمة وألف قاموساً كبيراً أورد فيه ألوفا من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للغة العربية المصرية فى الغالب ، إما موافقة تامة أو موافقة بضرب من التحريف أو القلب والإبدال المهود مثله فى اللغتين ، وقال إن أحمد كمال يرى أن العربية أصل للغة المصرية القديمة المدونة بالعلم الهيروغلى ، ومن لوازم هذا أن أصحاب المدنية كانوا من العرب .

والمعروف أن أحمد كمال باشا وهو أول أثرى مصرى قد ألف قاموسا فى ٢٢ مجلدا ضخما .
قضى فى تأليفه ربع قرن ، وما زال مخطوطا لدى نجله الدكتور محرم كمال عالم الآثار الكبير ،
وجملة قوله أن أغلب اللغة التى استعملها قدماء المصريين عربية الأصل لفظا ومعنى ، فضلا عن
أنها شبيهة بالعربية التى نستعملها اليوم وأن لغة المصريين القدماء هى لغة جزيرة العرب
لا تختلف إحداها عن الأخرى إلا بالإمالات وبعض المترادفات فهما لهجتان فى لغة واحدة .

وجمة القول فى هذا أن المصريين جنسا من العرب ولقهم جزء من اللغة العربية .

٢ - أما « الفينيقية » فهى دعوى كالفرعونية تماما ، استغلها الغزو الثقافى الغربى لتزيق
وحدة الفكر العربى الإسلامى ، وقد كشفت أبحاث التاريخ والآثار معا على أن الفينيقيين
عرب ، وأن فينيقيا لفظ يونانى معناه النخلة وضعه الأغارقة بعد أن زاروا هذه المنطقة
المتدة من أنطاكية شمالا إلى غزة جنوبا ، فقد هتفوا عندما شاهدوا « النخلة » :
« فينيكيا » وتناول شعرائهم وكتابهم هذا الاسم فتداولوه ، وذكره هوميروس فى شعره
وهيرودت فى كتاباته وبطليموس الجغرافى الفلكى فى أبحاثه .

وجملة القول فى هذا أن جماعة من عرب البحرين قحطانية الأصل هاجروا فى الخليج
الفارسى قبل المسيح بألف سنة ، فأقاموا قريبا من مدينة بابل - على رواية أحمد زكى
باشا - ثم ساحوا إلى الشمال إلى شاطئ بحر الشام فأسسوا طرابلس وبيروت وصور
وصيدا وعكا وحيفا . وقد وجد الباحثون فعلا تشابها كاملا بين حضارة البحرين وحضارة
لبنان وفلسطين مما أكد أن الحضارتين مرتبطتين برباط وثيق .

وقد ذكر هيرودت « المؤرخ » صراحة وبصيغة التوكيد أن الفينيقيين جاءوا من
الخليج الفارسى واستقروا فى ساحل الشام ، وذكر استرابون « الأثرى » أن قبور
البحرين مشابهة لأجداث الفينيقيين وبذلك 'تجمع مراجعات علمى التاريخ والآثار على أن
اللبنانيين قحطانيون عربا من أهل الجزيرة العربية أصلا .

٣ - وبالنسبة للبربر نرى أغلب المؤرخين على رأى القائل بأن البربر فى عمومهم أمة
عنية عارية قحطانية نزحوا من الجزيرة العربية إلى السودان والمغرب والأندلس وجزائر

البحر المتوسط ، وأن هذه الأمة العاربة القحطانية قامت بأول فتح عربي للمغرب ، ونشرت العمران بالدم العربي القح في ديار المغرب وسجلت لأول مرة ونهايا عقد ملكية المغرب للعروبة على حد تعبير (عثمان الكماك) في كتابه البربر ، حيث يرى أن النسابة للبربر (من ابن حزم إلى ابن خلدون) لا يجعلون للبربر عرقا في غير حمير ، وأن البربر يكرهون جدا إلى اليوم أن يقال إنهم بربر ويسمون أنفسهم (أمازيغ) أي أشراف . وقد رد كثير من الباحثين العرب والاجانب المنصفين الرأى القائل بأن البربر من أصل لاتيني ، وقالوا إنه لم يقم عليه دليل يؤبه له من العلم أو التاريخ .

ويقول المؤرخ « حسن السائح » من كتاب المغرب « إن الذين يدرسون اللغة البربرية يشهدون لها ، بأنه لا مجال للشك في انتسابها إلى الأرومة السامية التي لا تجمع البربر والعرب جمعا لغويا فقط ، بل تجمع بينهما جنسيا وسلاليا وأن اللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كأختها العربية وهي من اللغات السامية المعبر عنها في تاريخ اللغات (Pratosemitique) وهي تتشابه مع العربية في كثير من المفردات وأصل الاشتقاق ومخارج الحروف ، وقد لقحت هذه اللغة مرة أخرى بالقحطانية بعد جلاء يهود خير عن ضواحي يثرب وإقامتهم بشمال أفريقيا ، كما نقحت قبل ذلك بالعربية قبل الميلاد بخمسة قرون أي عام ٤٨٠ ق . م حيث هاجرت قبائل كنعانية عربية إلى بلاد أفريقيا . »

ومن هنا تبدو هذه الدعوات الثلاث وقد انهارت أمام الحقائق التاريخية التي تؤكد وحدة الفكر العربي الإسلامي بوحدة هذه الروافد مع نهر الأمة العربية الكبير .

-
- الفرائنة عرب عرباء : أحمد زى باشا : ١٣ أكتوبر ١٩٢٩ المقطم .
 - الفينيةفون ومفاخرهم : المقطف مارس ١٨٨٨ .
 - جبر ضومط : المنار ١٥ .
 - (كتاب) البربر : عثمان الكماك :

موضوعات البحث

صفحة

الكتاب الأول : الفكر العربي (مقوماته ومعطياته)	١٧
معطيات الفكر	٢٥
الكتاب الثاني : الفكر الغربي (مقوماته ومعطياته)	٣٣
الوثنية الاغريقية	٣٧
النزعة الرومانية	٣٩
المسيحية الغربية	٤٠
أساس الفكر الغربي	٤٩
المادية التاريخية	٥٠
نظرية العدم (الوجودية)	٥٤
مادية السلوك والتربية	٥٨
نظرية الجنس	٦٠
مفاهيم الفكر الغربي	٦٣
اليهودية والفكر الإنساني	٧٢
الكتاب الثالث : التغريب والشعوبية	٨١
(١) تغريب الشرق	٨٣
(٢) حركة التغريب	٨٩
(٣) الفكر العربي : محاولة تغريب مقوماته	٩٤
(٤) بين الثقافة والمعرفة	٢٠٢
(٥) بين التسامح والتعصب	١٠٧
(٦) محاولات التغريب	١١٢
(٧) الشعوبية الفكرية الحديثة	١٢٣

صفحة

١٣١	الكتاب الرابع : نحن والحضارة الغربية
١٤٥	الكتاب الخامس : (نحن والفكر الغربي)
١٤٨	١ - الثقافة
١٥٥	٢ - الدين
١٧٤	٣ - التراث
١٨٧	٤ - التاريخ
٢٠٤	٥ - اللغة
٢١٨	٦ - الأدب
٢٢٤	٧ - (القومية) العروبة والإسلام
٢٢٩	٨ - نظرية الأجناس

ثبت المراجع

- موسوعة مقارنة الأديان (٤ مجلدات) الدكتور أحمد شلبي
كتب غيرت العالم
هؤلاء علموني سلامه موسى
آراء فلسفية في أزمة العصر
الماسونية الدكتور أحمد زكي أبو شادي
المادية الجدلية وفلسفة الماركسية
الإسلام والنصرانية محمد عبده
الصهيونية والماسونية
الخطر اليهودي وبروتوكولات صهيون محمد خليفة التونسي
آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ساطع الحصري
اسرائيليات (كتاب الهلال) أحمد بهاء الدين
الفكر العربي ومكانه في التاريخ ديلاس أوليري
في سبيل البعث ميشيل عفلق
المسيحية والقومية العربية
الأقلية : جذورها وبذورها ساطع الحصري
اتجاه الموجات العربية في جزيرة العرب محب الدين الخطيب
فلسفة القومية أحمد خاكي
أضواء على التاريخ الإسلامي فتحي عثمان
فلسفة التاريخ غوستاف لوبون
أثر الشرق في الغرب الدكتور فؤاد حسين علي
المجتمع العربي في العصور الوسطى ادوار وليم لين
الطاقة الإنسانية أحمد حسين
فلسفة الحضارة ألبرت اسفيتسر
نظرات في الثقافة هاري شايرو
الإسلام اليوم وغدا (مجموعة من العلماء)

التربية والأخلاق	يعقوب فام
آراء في التربية والتعليم	ساطع الحصري
العلم والديموقراطية	همايون كبير
المجتمع الإسلامى	الدكتور أحمد شلبي
الاستعمار	الأمير مصطفى الشهابى
الإسلام والقومية العربية (مجموعة أبحاث)	الدكتور أحمد الحوفى
ديموقراطية جديدة	أحمد جمال الدين
الدين والميثاق	أحمد الشرباصى
مصير الأديان فى النظام الشيوعى	سامى عاشور
بين الديانات والحضارات	طه المدور
نشأة الدين	على سامى النشار
من هنا نبدأ	خالد محمد خالد
أيدلوجيه عربية جديدة	مصطفى السجرتى
تقويم الفكر الدينى	محمود الشرقاوى
تاريخ الإنسانية	أحمد حسين
الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة	مالك بن نبي
الإسلام بين الانصاف والجحود	محمد عبد الغنى حسن
الإسلام فى التاريخ الحديث	ولنور كابتول سميث
ما هى القومية	ساطع الحصري
دراسات إسلامية (مجموعة أبحاث)	باشراف نقولا زيادة
هذا العصر المنفجر	قسطنطين زريق
الإسلام من خلال مبادئه	علال الفاسى
الشرق الفئان	دكتور زكى نجيب محمود
عبقريّة العرب فى العلم والفلسفة	دكتور عمر فروخ

الدوريات : مجلة الزهراء : حب الدين الخطيب (م من ١ - ٥)

مجلة المنار : رشيد رضا (٣٢ مجلد)

مجلة دعوة الحق (المغرب)